

جمال الغيطانى

يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

● العدد ٢٩٥ ● يونيو ١٩٨٩ ●

ثمار الوقت

جمال الغيطانى



● العدد ٢٩٥ ● يونيو ١٩٨٩ ●



كتاب اليوم

أسسه

مصطفى أمين وعلى أمين

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الإدارة :

سعيد سنبل

العدد ٢٩٥ شوال ١٤٠٩ هـ
يونيو ١٩٨٩ م
حزيران

الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط
تلكس دولى ٩٢٢١٥ ـ محلى ٩٢٢٨٢

الاشـــتراكات

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيه مصرى

البريد الجوى

دول اتحاد البريد

العربى والافريقى ١٥ دولار امريكى او ما يعادله

باقى دول العالم واوربا

والامريكتين واسيا واستراليا ٢٠ دولار امريكى او ما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات ١٣ ش الصحافة القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

اسعار كتاب اليوم

المغرب	١٥	درهم
لبنان	٣٥٠	ليرة
الاردن	٦٠٠	فلس
العراق	٣٠٠٠	فلس
الكويت	٧٠٠	فلس
السعودية	٧	ريالات
السودان	٤٠٠	قرش سودانى

فى الخارج

ايطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	روبية
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرونات
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	سنتا

تونس	١٤٠٠	مليما	سلطنة عمان	٦٠٠	بيسة	الإمارات	٦	درهم	كندا امريكا	٣٠٠	سنت
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما	غـزة	١٠٠	سنت	قطـر	٦	ريالات	البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
سوريا	١٤٠٠	ق.س	اليمـن	٨	ريالات	انجلترا	١٢٥	بنى	[illegible]	٣٥٠	سنتا
الحبشة	٦٠٠	سنت	نيجيريا	٨٠	بنى	فرنسا	١٠	فرنك	[illegible]	٤٠٠	سنت
البحرين	٨٥٠	فلس	السنغال	٩٠	فرنك	المانيا	٥	مارك	استراليا	٤٠٠	سنت

الغلاف : حسين بيكار

الماكيت والرسوم : محمد عفت


محاق

.. لم يسالنى إذا كنت أعرف اسمه اولا ؟، هكذا جنبنى حرجا . بعد تطلعى إليه اكتفى بتساؤله .

— ألا تعرفنى ؟

قلت مبتسما

— معقول ؟

حدث هذا اكثر من مرة خلال الأعوام الأخيرة ، ان التقى بشخص ما ، اعرف ملامحه ، قسماته عندى ، لكن يغيب الاسم عن بالى ، فى زمن فتوتى قال شيخ اجله على مسمع منى . اول ما يدرك ذاكرة الإنسان من عطب ، نسيان الاعلام . هل لحقنى ذلك ؟ . هل بدأ اندثار لحظات عشتها ، وغياب اشخاص يمثلون أمامى ولا اعرفهم مع ان حوارا جرى بينى وبينهم يوما ، ومعرفة امتدت واتصلت ، القاهم ، اراهم ، ولكنى لا أبصرهم بوعى ، عند وقوع ذلك ابادر بصياغة استفسارات عامة ، لعل بارقة تسطع عندى فادرك ، هكذا بادرت قائلا ..

— وأين أنت الآن ؟

لم تثر الإجابة تداعيا واحدا عندى . تتدفق العربات فى عرض الطريق ، اضطررنا إلى التقهقر خطوتين ، طلعت فوق الرصيف ، حازانى ، أعرفه ، ملامحه مالوفة عندى ، فيها هدوء ، وفى عينيه استكانة ، شاربه قصير يعلو شفتين تبقيان شبه مضمومتين عند الحديث ، أعرف الوجه ، لكن خلا رصيدى ومخزونى مما يمكن ان اقارن به ، بدا ودودا ، راغبا فى البوح ، قلت ..

— فى نفس المكتب ؟

— لا .. نقلنا منذ سنة إلى شارع عدلى ..
— أمام البنك :.
— بالضبط .. انت زرتنى فى المكتب القديم ..
خشيت أن يسألنى عن المكان القديم بدافع اختبار معرفتى به ، يقدم بعضهم على ذلك ، بل يلحون متسائلين : طيب ـ من انا ؟ . أما هذا فبدا هادئا ، أما انه يصدقنى ، أو غير راغب فى احراجى ، كنت أكبح حيرتى حتى لا تسفر عنها ملامحى . اى مكتب عنيته يالترى ؟ متى زرته بالضبط ، ولماذا ؟ لأى غرض ؟ ، قال :
— الأيام تمر بسرعة ..
— نحن الآن فى أغسطس ، والله كأن رأس السنة أول أمس ..
— كل شىء يجرى ..
لحظات صمت ، توقفت السيارات ، يمكننى الشروع فى العبور لكنه سألنى ..
— هل ترى نبيل مهران ؟
— على مدد متفاوتة ..
ضاقت عيناى ، قلت :
— اخر مرة منذ ستة شهور ..
قال متأسيا :
— ياسلام .. كنا لانفترق ..
ياه .. عنى اوعنه ؟ أو ثلاثتنا معا ؟ ، تبدو المناطق المعتمة من ذاكرتى مستعصية ، قصية عنى ، خشيت إحراج الرجل لو بدا منى ما يدل على جهلى ونسيانى ، لا اعرف إلا الملامح فى مجملها . لكنها غير متصلة باسم ، بموقف ، بزمن خاص ، يسألنى :
— ما أخباره ؟
— من ؟
— نبيل
قلت انه منطو ، وانه غير سعيد بعد عودته من الخارج ، يبدو أن أمورا تغيرت عنده ، أشياء لم أقدر على تحديدها تماما ، لكنه لم يعد ذلك الإنسان المنبسط ، المرح ، الذى لم يكن يكف عن السخرية حتى من نفسه ، الأغرب .. اننا بعد دقائق من اللقاء لم نجد مانقوله ، فنضطر إلى ابداء الاعذار ، نفترق بدون الاتفاق على موعد تال ..
— تصور ..

قال متأسيا ، وهو يتجاوزني بنظراته .
— اضطربت اموره بعد الطلاق ..
— ياه ..
— الم يخبرك بانفصاله ؟
أقسم
— ابدا والله .
— ألم يخبرك عندما رأيته ؟
— لا
— متى قابلته ؟

نبيل مقر عمله قريب ، لايفصلني عنه إلا شارع واحد ، لكن نوبته تبدأ في الثانية والنصف ، أى قبل انصرافي بنصف ساعة ، عملي نهارى أما هو فمسائي ، الحق انني لا أذكر متى قابلته ، لكنني وحتى أمعن في الحديث عن ثالث لايتواجد معنا تجنبا للحرج .

— لازم تشوفه .. حالته كانت صَعبة جدا ..
— وابنه ؟
— اظن مع امه ..

ثم قال ان نبيل مقيم الآن في فندق قريب من الدقي ، لم يعثر على شقة حتى الآن ، هذا صعب ، مكلف جدا الآن ، قال انه ترك لها كل شيء ، قلت ..

— من راهما لم يكن ليتخيل أبدا ..
— كل شيء يمكن فهمه إلا العلاقات الإنسانية ..
— خسارة .. ابنهما لطيف جدا ..

يبتسم ، يقول ..

— الم تدر .. اصبحت جدا ..

تتزايد حيرتي ، حتى قوله هذا لم يخدش ذاكرتي ، كلما اتصل الحوار ازداد نأيا عني ، اصبح جدا ، لكن من هو ؟ من ؟ صحت مداعبا ..

— يا عجوز .. انجب ابنك إذن ..
— ابنتي
— لم تخبرنا ولم تدعنا ..
— والله تم كل شيء في اضيق الحدود .. الولادة تمت فجاة .. ثم كيف نستدل عليك .. اسفارك كثيرة ..
— في السنة الأخيرة ..

يقول :

ــ كان الله فى العون ..

تتوقف السيارات ، بعضها تجاوز الخط الأبيض ، اتطلع إلى أضواء المرور قلقا ، أشير بيدى إلى اللاجهة ..

ــ ما تتفضل معنا ..

كأنه أدرك رغبتى ، وعجلتى .

ــ خلينا نشوفك ..

طبعا ، طبعا ، تصاعد حماسى عند دنو اللقاء من نهايته ، لم أخط مباشرة ، إنما أحنيت راسى احتراما ، لحظة عبورى التفت ، لم أر إلا مؤخرة رأسه وكتفيه . أدركت إلى أى حد بدا مهموما ، مثقلا ، وان لهجته فاضت ودا ورعبة في القربى ، هل كنت فظا عندما أنهيت اللقاء بدعوتى المحتوية على رغبتى فى المضى ؛ لكن .. الأهم من ذلك ، هل أدرك عجزى عن استحضار اسمه ، أو قبس من الفترة التى جمعتنا ، ليتنى أعرف .

● ● ●

يوليو ١٩٨٨

عنوة



.. بعد تحرك القطار مباشرة . بالضبط ... بين محطة الملك الصالح ، ومحطة مارجرجس ، فجاة ، صفعة عنيفة ، ثقيلة على صدغ الفتى الذى لم يتجاوز الثانية عشرة على اكثر تقدير ، هكذا قدر احدهم فيما بعد عندما وصل بيته ولام نفسه لأنه لم يتدخل .

كان يقف قرب الباب المغلق ، صغير ، مرجوف ، عيناه تطقلان رعبا ، ويداه ممدوتان تجاه الركاب الذين لزموا أماكنهم ، فوق ارض العربة سقطت حقيبة ادوات رياضية التقطها احد الثلاثة الذين احدقوا به . لم ينتبه أحد إلى تقدمهم من مؤخرة العربة صوب الولد . كان أولهم يرتدى قميصا رماديا وبنطلونا ضيقا ، يشده الى خصره حزام جلدى عريض ، عريض الكتفين ، مستنفر ، متأهب للمنازلة ، عدوانى الحضور ، عريض الذقن . اما الثانى فنحيل يرتدى جلبابا تحته فانلة تغطى ياقتها المستديرة رقبته . اما ثالثهم فاقصرهم مدكوك البنية ، لم يتجه بنظراته إلى الصبى ـ الذى تداخل فى بعضه وتلملم حول نفسه منتظرا ، راجيا الغوث ـ انما اولى ظهره إلى رفيقيه ، يواجه الركاب الذين تطلعوا بدهشة ، وفضول حذر ..

يزعق اولهم

— انطق يلولد ..

يرفع يديه ليتقى الصفعة التى بدت وشيكة ..

— مالك ومالى ياعم ؟

يمسك النحيل ، ذو الجلباب بشعره الغزير ، يلفه حول يده ..

— مالنا ومالك يابن الحرام ؟

يرعق الأول ، اليس من الحرام أن يدوخ أهله السبع دوخات ، أين كان طوال هذه المدة ، اه .. أين ؟

فيما بعد أدركت امراة موظفة في التليفزيون ان هذه العبارات كانت موجهة إلى السامعين أكثر منها إلى الولد ، ولفترة طويلة لم يغرب عن بالها عينا الفتى اللتان فاضتا رعبا . واستنجادا بالقوم الذين تابعوا من اماكنهم ، لم تكن العربة مزدحمة ، وكانت بعض المقاعد خالية ، ليتها صرخت ، ليتها حرضت الجلوس ..

ترتعش شفتا الفتى ، تختلط ملامحه ، يقول انه لا يعرفهم ..

صفعه ثالثة ، اقسى ، سيدة تحمل طفلا تصيح . تطلب الرفق ، الولد صغير ولا يحتمل الضرب . يتطلع القصير إليها .

— خليكى فى حالك ياولية انت ..

الكلمات موجهة ايضا إلى الكافة ، فيها نذير ، يستمر تساؤل أولهم عن المكان الذى كان فيه ، والشلة الفاسدة التى كان ملوما عليها .

فيما بعد تذكر عامل بمصانع الحديد والصلب ، يسكن فى شبرا ويقطع الطريق الطويل إلى التبين يوميا مرتين ، تذكر ان ملابس الفتى وهيئته مختلفة عن مظهرهم ، أما ملامحهم فلا تمت إليه بصلة .

يتراجع الفتى بينما ينزل على مهل ، يوشك أن يتكور متداخلا فى بعضه ، يكاد يقع على ركبتيه ، يتطلع إلى المحدقين بمصيره ، بحضوره الغض ، وعندما امسك الأول بمعصمه اتجه إلى الركاب ، عيناه اتسعتا ، يجعر جعيرا مشروخا متصلا ، يبدو قادما من حشاه ، حتى بدا غريبا خروج هذا الصوت المرعوب ، المرجوف ، المستنجد ، يلطمه الأول على فمه مباشرة ، لكن الجعير لم يتوقف إلا لتتخلله حلمات ممزقة موجهة مباشرة إلى أقرب الجالسين فى مواجهته مباشرة ، رجل دين مسيحى يرتدى ملابس الرهبانية السوداء وكان يتطلع ممتعضا . متالما ، وإلى جواره رجل - ربما فى الخمسين - يرتدى ملابس بلدية ..

— ياعم لا أعرفهم .. واللّه لا أعرفهم ..

يزعق الثانى ، يبدو صوته مختلفا ، محملا بنبرة شكوى

— تعبت أهلك ودوختهم ..

يقوم عجوز عليه هيبة ، يفارق مقعده . تتعلق عينا الولد به ..

— الحقنى ياعم .. والنبى ياعم ..

يقترب العجوز منهم ، يهم الفتى ولكن النحيل يحكم قبضته على شعره ، حتى يضطر الصغير إلى تولية وجهه صوب السقف ، عاضا

شفتيه ، بينما تتقلص ملامحه لألم الشد ، وشمول الرعب ، يقلب محاولا التطلع تجاه العجوز .

— والله لا اعرفهم ياعم ..

يصفعه الأول على فمه مباشرة .

— وتحلف كذبا .

يحول القصير ، المتحفز دون تقدم العجوز ..

— خليك في حالك ..

يتساءل العجوز :

— مالكم وماله ..

يصيح النحيل مرتدى الجلباب

— ابن اختنا واحرار فيه ..

يلتفت الأول .

— اسبوع ولا نعرف طريقه ..

ازاء إصرار العجوز ، يدفع القصير باصبعين مشرعين ، مشدودين في صدر الرجل ، يلتفت العجوز إلى الركاب ، تتوالى اهتزازات القطار . خاصة عند عبور العربات فواصل القضبان ، السرعة تخف تدريجيا ، تقترب المحطة ، في الخارج ضوء النهار خريفي شاحب ، والسماء تتاهب لغروب ثقيل ، يصيح العجوز ..

— ما تلحقوا الولد .. الولد يضيع ..

يصيح القصير ، الممتلىء ، منفرج الساقين .

— من يقترب سيعرف شغله ..

يلوح بمطواة قرن غزال ، لايدرى أحد متى أخرجها ، ومتى شهر سلاحها ، رسم بها نصف دائرة في الهواء ، يكف العجوز عن التقدم ، يوشك القطار على التوقف ، تصر العجلات ، يمسك الأول والثاني بذراعي الفتى ، يحاول الفتى الالتصاق بأرض العربة ، التشبث ، يثنى ركبتيه ، يلوى رأسه محاولا عض النحيل ، تتعاقب صفعتان .

يفتح الباب ..

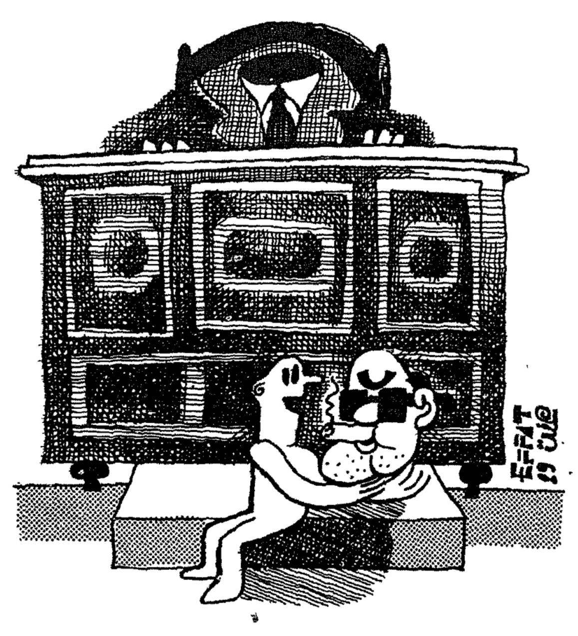
فيما بعد أدرك أمين شرطة كان يرتدى الملابس المدنية ، ويجلس مرهقا في نهاية العربة انهم لم ينادوا الولد باسم ، وأنهم لم يظهروا طيفا من شفقة ، كانوا عتاة . وبدا الصغير بينهم كالفرخ المبلول ، ادركه نَدم ، لماذا لم يتدخل ، لكن .. « ماذا كان بوسعي أن افعل ؟ »

يدفعانه محمولا إلى الخارج ، يصبح الصوت المنبعث من الفتى غريبا ، لائذا ، يائسا . بدائيا ، يتناول ثالثهم الحقيبة أثناء تراجعه بظهره شاهرا المطواة ، كانت هناك فتاة تتأهب للصعود ، تراجعت لتفسح الطريق للثلاثة الذين حمل اثنان منهما الفتى ، الأول يصفعه معلنا انه سيأخذه إلى أبيه ، وان ماجرى لن يتكرر أبدا .

يتحرك القطار ، تلتقى عينا الفتاة بعينى الفتى ، تتشبث نظراته بها ، بينما يدفعونه محمولا ، مفارقا الرصيف ، والوقت !

● ● ●

يوليو ١٩٨٨



صــــنوه

. بقيت الأسباب كامنة ، فلم تسفر الأيام التالية ، ولم
تلحْ علامات ، لم يقف المتتبعون للأمر على تفاصيل
دالة ، بقى الأمر حتى الآن فى إطار اجتهادات ،
وتخمينات شط بعضها .
أمور كثيرة قيلت ، وأحداث أعيدت روايتها بطرق
شتى ، وهمس جرى ، إلا أن سؤالا بعينه تردد .
« من تصور أن هذا يحدث من خليفة افندى .. من ؟ »

سنوات سبع أمضاها فى المؤسسة ، لم يثر مشكلة ، لم يصدر عنه مايقلق ، مايشين أو ماينفر الخلق منه ، لم يسمع له حس ، ولم يزعق عند مخاطبة أحد ، لم يصدر عنه ما يقلق أو يشين .

تذكر مديحة العاملة بالبوفيه أنه لم يؤخر حسابا ، كان يبحث عنها قبل انصرافه ليسدد حساب القهوة والشاى ، لم يتفوه بلفظ غليظ أو جاف ، طوال مدة خدمته فى وجه أحد العاملين ، مع أنه عانى ضغطا ليس بالهين ، فهو مدير مكتب مدحت بك رئيس مجلس الإدارة ، ومدبر أموره ، رأس اثنتين الأولى متزوجة والأخرى آنسة ، الأولى مسئولة عن تسلم البريد ، وتصدير المكاتبات ، والثانية تقوم بفض المظاريف ، وترتيب الخطابات فى الملفات الخاصة بالعرض الفورى ، والحفظ ، أو تحويلها إلى جهات الاختصاص ، عدا ما كتب عليه « سرى » أو « خاص » أو « لايفتح إلا بمعرفة سيادته » فهذا كله من شئون خليفة افندى ، يتسلمها ويفتحها ، ويقدمها إلى سيادته ، أو يرد على ما يستحق العرض ، وهذا أمر يقرره هو لاغير .

كان يرتب المواعيد واللقاءات ، عنده ثلاث مفكرات مجلدة ، الأولى خضراء تتضمن كافة مواعيد المكتب ، والثانية بنية اللون تحوى المواعيد خارج المؤسسة والمناسبات التى يجب عندها ارسال برقيات تهنئة او باقات زهور باسم سيادته ، و الثالثة صغيرة حمراء فيها أمور خاصة جداً ، ويتردد انها اختفت بعد الذى جرى .

كان يجىء قبل الجميع ، قبل أن يشرب كوب الشاى الذى يتناوله عادة على الريق قبل الإفطار يتفحص الصحف ، أى خبر عن المؤسسة يقصه ويلصقه بعناية على ورق أعد خصيصا لذلك ، يتفحص صفحات الوفيات ، واخبار المجتمع ، يصيغ برقيات التعزية أو التهنئة إذا لمح اسما يمت إلى سيادته بوشيجة صلة ولو واهية ، أو اسم مسئول هنا أو هناك ، أما المناسبات الكبرى فلم يكن فى حاجة للنظر فى التقاويم المختلفة ، حفظها عن ظهر قلب ، وأعد لكل منها صيغة مغايرة ، لم يفته شىء ، ولم يقع فى هفوة .

كان هو المسئول عن تحديد معظم المقابلات ، يقلب الصفحات ، ينظر ما عنده ، ثم يدرج الموعد طبقا لما يراه هو ، ويتولى انهاء المقابلات التى تطول عن الحد ، وكان له فى ذلك طريقة خفيفة ، لطيفة ، كان يفتح الباب برفق هين ، ولايتجاوزه يقف مبتسما ، عندئذ يتطلع إليه البك ، متسائلا ، مستفسرا ، فيقول والابتسامة مستمرة ان موعد فلان قد حان ، وانه ينتظر فى الخارج ، هنا يتطلع سيادته إلى ضيفه . علامة على انتهاء المقابلة . لو حدث أن الضيف تغافل عن الإشارة . يعود خليفة افندى . يدخل الغرفة ، يقول بحزم ان وقت المقابلة التالية أزف ، أو يذكر سيادته انه عليه مغادرة المؤسسة بعد نصف ساعة ، أما إذا كان حريصا على إطالة اللقاء ، فان خليفة افندى يدرك ذلك ، لم تكن هناك علامة ، أو رمز ، أو إشارة متفق عليها ، إنما يتراجع خارجا ، ولا يطرق المكتب إلا بعد انسحاب الضيف المرغوب ، الغريب ـ كمّا أكدت زميلته ذلك فيما بعد ـ أنه كان يقوم واقفا ، مدركا بشكل ما انتهاء المقابلة ، وان وقوفه وتأهبه كانا قبل سماع صوت سيادته عند توديع الضيف ، أو رؤيته تأهب الساعى بدير فى الممر ، أو مرور الضيف بالمكتب عند انصرافه إلى المصعد المجاور لغرفة السكرتارية ، لا يمكن لأى انسان الوصول إلى المكتب الرئيسى إلا إذا مرّ من هنا ، كان خليفة أفندى يدرك حركة البك داخل الغرفة من موضعه ، كان شيئا خفيا ينبئه ، أو ينبهه ، إذا قام البك إلى دورة المياه الصغيرة الملحقة فان خليفة ينتبه مصغيا ، يقف . وعندما يجلس يقول لزميلته .

« خرج الآن ..»

ويتطلعن إليه بدهشة ، لكنهن لم يسألن ، ولم يستفسرن !

لم يكن ممكنا لأى زائر ، سواء من العاملين بالمؤسسة ، أو القادمين من خارجها ان يتقدم بمفرده ، يسبقه خليفة افندى ، يفتح الباب ولا يخطو ، ينتظر ولا يتقدم ، يفسح للضيف ، يعلن اسمه ، تلك هى المرات الوحيدة طوال النهار التى يسمع فيها صوته ، يبدو وكان شخصا آخر يصيح من داخله . ذلك انه كان خافت الحضور ، هادئا ، يمشى بلا ظل يلمح ، أو وقع خطى يسمع ، يظهر هنا أو هناك ، فكانه لم يات ولم يول ، مع انه يميل إلى امتلاء ، غليظ الرقبة ، مضغوط القامة ، أما وجهه فمتساوى الملامح ، فى عينيه استسلام دائم ، واحيانا يبدو كانه على حافة بكاء ، أو شكوى طويلة .

لايمكن لمخلوق مهما اقترب منه الاصغاء إلى صوته عند حديثه فى الهاتف ، لطالما حاولت زميلتاه ، خاصة نوال الأقرب إليه ، كن يطرقن آذانهن وهن يبدين التشاغل ، لكن عبثا .. ما من لفظ ، ما من علامة ، فيما بعد قالت السيدة اقبال . وهى اقدم من نوال بثلاث سنوات انها اطلعت على المفكرة الخضراء ، والثانية البنية ، لكن الحمراء لم ترها إلا عند تقليبه صفحاتها ، لم يحدث ان غفل مرة واحدة وتركها فوق المكتب ، كان حريصا جدا عليها ، تؤكد انها خاصة بمواعيد مدحت بك الخاصة جدا ، كان خليفة افندى يتولى متابعتها ، واحيانا ترتيبها ، وضمان عدم التعارض فيما بينها ، بل قالت واكدت انه كان يقصد المكان الذى ستتم به الخلوة ، فيرتبه وينظمه ، باختصار يهيىء القعدة ، هذا ما قالته السيدة اقبال والله أعلم !

فلم تبد أى شواهد على علاقات مدحت بك النسائية ، أو آثارها بعد ان جرى ماجرى .

كتوم جدا خليفة افندى ، لم يفصح ابدا . لاتتذكره الآنسه نوال إلا فى وضع الإجابة ، مع انه دائم الاستفسار عن البريد ، عن الوارد ، عن الصادر ، عن دقة التوقيعات ، قالت لأحدى الموظفات فى إدارة المتابعة انها لم تلمح منه ما يكن صدره عن رجل تجاه امرأة . عندما التحقت بالعمل اضمرت هَمًا محوره الحذر والخشية من البك ، سمعت عن جراته الغريبة ، وغرابة أطواره ، حتى انها تخيلت ردود افعالها إذا قام فجاة واحتضنها . أو امسك بثدييها ، أو لفظ كلمة فاحشة ، أو عرض عرضا غير لائق ، لكنها بعد فترة نزل بها اطمئنان ، الحق يقال ان خليفة افندى جنبهن الاتصال

او الاحتكاك المباشر بالبك ، لم تدر أهو ترتيب مسبق بينهما . أم انه قصد ذلك ، طوال سنوات خمس لم تدخل إلا مرات معدودات ، حدث ذلك عندما اضطر خليفة افندى إلى القيام بأجازة ، عجيب أمره .. طوال مدة عملها لم يتغيب إلا مرتين ، وفى كلتيهما كانت اجازة مرضية ..

يؤكد ذلك حلمى المسئول عن الأجازات فى قسم المستخدمين ، والمعروف عنه الدقة البالغة ، وحرصه على ارتداء حلته كاملة شتاء وصيفا . حتى فى عز الحر ، قال حلمى ان رصيد أجازته كان يرحل من عام إلى عام كاملا غير منقوص ، وعندما صدر قرار الغاء عملية الترحيل هذه ، كان يلتقى به صدفة ، أو عند انصرافهما فى الثانية والنصف ، كان يبدأ قائلا ..

— كيف احوال مدحت بك ؟

يجيب خليفة افندى .

— الحمد الله ..

— هل سيقوم بإجازة قريبا ؟

— ربما ..

عندئذ يقول حلمى ..

— رصيدك بخيره .. يارجل خذلك يومين ..

فيجيب

— والله المشاغل كثيرة ..

كان يعود بمفرده بعد الظهر . فى الخامسة والنصف تماما ، سواء جاء البك أو لم يحضر ، يبقى بمفرده فزميلتاه يعملن نهارا فقط .

ما بين انصرافه وعودته ثلاث ساعات لاغير ، حتى تساءل البعض . خاصة من حراس الأمن الملازمين للبوابة ، كيف يمكنه الذهاب وتناول الغذاء والراحة ثم العودة ، مع زحام المدينة ، وصعوبة المواصلات . لم يدر أحد مكان سكنه . قال أحدهم انه على مقربة ، وان بيته لا يبعد إلا ناصية واحدة ، اى انه يسكن وسط المدينة ، فى شقة صغيرة . من حجرة وصالة فوق سطح عمارة قديمة يمتلكها تاجر قبطى من الصعيد ، وانه يعيش بمفرده . ويأكل فى مطعم صغير بجوار سينما اوديون ، وان اضطرابا حل به خلال العامين الأخيرين ، بعد موت صاحب المطعم وتحوله إلى معرض لبيع بطاريات السيارات الجافة . وانه شوهد مرات يمشى كالتائه وقت الغذاء . ولم يعرف أحد إلى أى مطعم مضى واستقر ، أكد ماقيل افضاؤه يوما الى زميلته اقبال ، عن عيشه بمفرده ، بعد انفصاله

المبكر عن زوجته التى لم ينجب منها إلا ابنة واحدة فقط يراها مرةلاغير كل اسبوع ، ولمدة ساعتين . أماما قيل عن انجابه ابنا توفى فى الثالثة مما اورثه هذا الحزن البادى ، فلم يتأكد ذلك .

لكن آخرين أكدوا انه كان يسكن ضاحية بعيدة ، وانه شوهد يركب قطار المرج ليلا ، وينزل فى عزبة النخل ، أما الساعات الثلاث فاعتاد ان يقضيها داخل مقهى ناحية باب اللوق ، ينزوى فى ركن قصى يتضاءل عنده الضوء النهارى ، يقل الرواد فى مثل هذا الوقت ، يشرب الشاى او القهوة . وبعد اغلاق المطعم كان يصحب معه رغيفا واقراص طعمية ، أو قطعة جبن ، أو سمك بياض مقلى .

موظف بالإدارة الخارجية قال انه رآه فى المقهى ، لم يلحظه ، وان المعلم استقبله بترحيب وانه سأله بمجرد رؤيته ..

— البك فى مصر ؟

— فى مصر ياسيدى ..

تقدمه المعلم إلى المنضدة التى اعتاد الجلوس إليها ، كان يبدو سعيدا بالاهتمام به ، بكوب الماء الذى وضع امامه قبل ان يبدأ الأكل . وعندما مال عليه المعلم هامسا هز رأسه مرات ، من يدرى .. ربما يطلب خدمة يمكن للبك ان يقضيها له .

هل كان يقيم فى وسط المدينة ، أو فى الضاحية ؟ لا احد يدرى لأنه لم يخبر انسانا . اما الاستاذ منسى مسئول الملفات فى المستخدمين ، قال فيما بعد أن عنوانه المدون لفندق فى منطقة الحسين ، يقيم فيه منذ انفصاله . ويدفع إيجارا ثابتا اول كل شهر . لذلك حصل على تخفيض كبير ، لكنه قال أيضا انهم لم يضطروا ابدا إلى ارسال أى خطاب إليه طوال مدة خدمته . لم يكن هناك مبرر ، لهذا لا يمكنه القطع اذا كان الفندق مكان اقامته عندما حدث ما حدث .

هل كان متزوجا ؟

مؤكدا ..

هل كان منفصلا عن امرأته ؟

لاشك فى ذلك .

هل كان والدا لطفله ؟

نعم .. مع انه لم يتحدث عنها إلا نادرا ، لم يشد بذكائها ، ولم يتحدث عن تفردها ، او تفوقها فى المدرسة ، كما يردد معظم الآباء ، فيما بعد أدركت الآنسة نوال انه كان يحتفظ بصورة لها فى حافظته . وفى الدرج

الأيسر ، والأخيرة عثروا عليها اثناء عملية الجرد النهائية ، وعت ايضا ـ لكن متأخرة ـ بهجته وخفة حركته ولطفه كل يوم سبت ، رغبته في تلبية مايعرض عليه ، مايطلب منه ، تكرار مداعباته للساعي العجوز ، لاتدرى كيف علمت بلقائه ابنته كل جمعة ؟ ، لم يفض إليها ، لكنها أدركت انه كان يستعد لهذا اليوم ، ويشترى حلوى ، ولعبا ، ويمضى إليها .

لامت نفسها ، كيف لم تلحظ ذلك ؟ لماذا لم تسأله عن ابنته ؟ ، لم تر فيه إلا ظلا لمدحت بك ، عندما تصل تسأله عما تبقى على مجيء البك . إذ يخرج من عنده تتعلق نظراتها به في انتظار ملحوظة قالها البك ، تبحث في ملامحه عن غضب البك ، أورضائه وانبساطه ، وعما إذا كان ثمة عمل سيؤدى ؟ لم تنظر قط في ملامحه باعتبارها قسماته هو ، أو رؤية حالته باعتبارها انعكاساته داخله هو ، لاهي ولازميلتها ولا أى شخص في المؤسسة كلها ، صغر أو كبر ، كلهم كانوا يبادرونه عند مقابلته باستفسار تتنوع كلماته ولا يتغير مضمونه ، أن كان على سفر فأول ما يسمعه

— متى سيرجع مدحت بك ؟

وإذا كان موجودا .

— البك عنده سفر قريب ؟

عند ذهابه إلى الإدارات ، والاقسام ، يبادره المديرون ، والموظفون .

— مدحت بك مشغول اليوم ؟

تعجب الآنسة نوال ، كيف لم تنتبه . كيف ؟ ، تستعيد هذا الصباح البعيد ، بدا غامقا ، شاردا ، عليه غم ، لم تسأله ، لم تستفسر عما به ؟ ، تذكر ابداءها الملاحظة لزميلتها الست اقبال ، أن خليفة افندى على غير عادته ، اجابتها ان البك ربما قسا عليه ، أو اسمعه مالا يرضيه . في هذا اليوم جاء مدير الإدارة الفنية ، لحظة دخوله قال قبل ان يصافحه ..

— كيف أحوال مدحت بك ؟

انها المرة الوحيدة التى رأته يرفع فيها عينيه . منهما اطل قدر غير هين من الم ، من ضنى ، من عتاب ، من لوم ، وبغض ايضا ، تسترجع هذه النظرة فترى فيها مالم تره لحظتها . لكم بدا متألما . لكنها لم تستفسر ، حتى عندما نزل على غير عادته وغاب لمدة نصف ساعة ، ثم رجع بلفافة ورق عليها اسم الصيدلية القريبة ، راح يفرد محتوياتها من زجاجات صغيرة ، واقراص في شرائط معدنية ، يقارن المكتوب في النشرات الصغيرة المطبوعة بما دونه الطبيب ، تحدث عبر الهاتف مرات ، في أحداها ارتفع صوته ، ونادرا مايحدث ذلك ..

— والنبي حذى ب ، من مواـ يد ـواء ..

ظنت الأمر متعلقا بإحدى قريبات البك ، كان من الطبيعي اتصال اسرة مدحت بك به . كان يلبي بعض أمورها ، أو يسهم في انهاء اجراءات تتعلق بالزوجة ، خاصة عند السفر ، او الحصول على تاشيرات من السفارات الأجنبية ، أو مراجعة محل تخزين الفراء في وسط المدينة ، أو تدبير الحجز عند طبيب ما .

لم تدرك في حينه ان تلك الآلام البادية تخصه هو ، بدا لها مقطوعا دائما عن كل صلة . حتى عن ذاته هو .

يقول عم يحيى . الساعي النوبي العجوز ، الذى يقضى مدة خدمة استثنائية بقرار خاص من البك ، انه لم يستقبل اى زائر في مكتبه . عدا مرة واحدة ، مرة لاغير ، كان ذلك في أحد الأعياد ، الكبير او الصغير ؟ لايذكر اى العيدين ؟

في المناسبات يقوم العاملون بإجازة . باستثناء عدد محدود يتم اختيارهم من قبل مديرى الإدارات الرئيسية ، لتسيير الأعمال الضرورية . خليفة افندى لم يقم بأجازة قط ، كان يجيء في موعده ويمكث منشغلا بترتيب اوراق ونظر في ملفات ، وتدوين ملاحظات ، عادة يسافر البك في الأجازات إلى قرية مراقية التى امتلك فيها بيتا صغيرا مطلا على البحر مباشرة ، يبدو خليفة افندى حائرا ، لايطيل المكث في مكتبه ، يتردد على دورة المياه العامة في نهاية الممر أكثر من المعتاد ، يمشى ذهابا وإيابا ، يداه وراء ظهره ، متوقفا بين لحظة واخرى ، مطلقا آهة قصيرة ، أو صوتا يدل على تعجب ودهشة ، في البداية ظن عم يحيى انه شروع في محادثته ، كان يتاهب ، ولكنه يواجه بصمت مدجج بشرود عظيم ، اعتاد منه ذلك ، ولكن في أيام العمل المعتادة كان يتحرك بسرعة ، بنشاط ، لا يلتفت يمنة او يسرة ، هذا حاله مادام تواجد البك .

في يوم العيد هذا فوجيء عم يحيى بخروجه من المكتب ، وقوفه أمام المصعد ، شك في وصول مباغت للبك ، قام مفارقا مقعده .

— البك طالع ؟

تطلع بعينين فيهما سطوع وألق وافد . غريب عليه .

— لا ... واحد صاحبي ..

استبد فضول بعم يحيى ، لم يسبق ان راى صاحبا له أو قريبا ، وعندما توقف المصعد ، أسرع خليفة افندى يفتح الباب .

— أهلا .. أهلا ..

احاط ضيفه بذراعيه ، حتى ان عم يحيى لم يتمكن من رؤيته في

اللحظات الأولى ، تحقق من ملامحه عندما انفصلا ، بقى خليفة افندى محتفظا بيد ضيفه ، فاردا ذراعه ، مشيرا إلى المكتب ..

— تفضل .

كان الضيف قصيرا ، ممتلئا ، مماثلا تماما لقوام خليفة افندى ، بل أن خطوهما بدا متشابها .

قال عم يحيى انه حرص على ابداء أقصى علامات الاحترام للرجلين ، حتى يبيض وجه خليفة افندى أمام ضيفه ، سال عما يريده البك . شاى ؟ قهوة ؟ فيه عصير ليمون ايضا ..

بدلا من الإجابة ، أشار خليفة افندى إلى صاحبه ، قال إنه رفقة عمر ، وإنهما خدما فى الجيش معا ، منذ سنوات طويلة لم يلتقيا ، سنوات طويلة جدا ، عمر بحاله ..

جاء الساعى بالصينية ، والأكواب والفناجين التى تقدم للبك نفسه ، قام بكافة أصول الخدمة ، ثم انسحب بهدوء ، فى أيام الأجازات يعمق الصمت ، ينزل هدوء ، وتأتى أصوات من بعيد ، شاحبة ، واهنة ، لكنه لم يستطع الاصغاء إلى حوارهما . وعندما دخل ليأخذ الفناجين الفارغة ، سمع الضيف يسأل ..

— وبدوى ..

— سافر ؟

— سافر .. إلى اين ؟

اظن إلى البحرين .. أو .. او قطر ..

فى المرة التالية عندما دخل حاملا كوبين من عصير الليمون ، رأى صمتهما ، كل منهما يحدق إلى جهة مغايرة ، لحظة ان أولاهما ظهره ، سمع خليفة افندى يقول ..

— كانت ايام ..

عند انصراف الضيف تقدمهما ، ضغط ذر المصعد ، خبط الباب مرتين ، نادى ، حتى يغلق أحدهم الباب المفتوح هناك ، تحت ، تبعه خليفة افندى ، سأله عم يحيى ..

— سترجع يابك ؟

قال انه بدا مبتهجا عند عودته ، راغبا فى الحوار على غير عادته ، حتى انه سأله عن أحواله ، عن اسرته ، متباهيا بصاحبه ، قال بدون مناسبة انه ابن ناس طيبين ، صمت لحظات ، ثم قال ان مثله لايعوض ، طال سكوته وعم يحيى مازال واقفا . لفظ كلمة واحدة لم يدر الرجل كيف يجاوبه ، أو كيف يعلق عليها ..

— دنيا ..!

بعد أن جرى ما جرى ، روى عم يحيى لبعض زملائه ، كيف تعرف خليفة افندى إلى البك ، انه الوحيد الذى حكى تلك التفاصيل ، قال ان والده كان ممرضا عند عم البك الذى كان طبيبا مشهورا ، فالصلة قديمة ، يبدو ان خليفة ترك عمله في مصلحة التحاليل الوقائية لسبب ما لم يطلع عليه ، سعى والده قبل وفاته بعام واحد . وكان للبك مديرة مكتب جميلة ، عملت معه منذ ان كان مديرا عاما في الوزارة ، قبل تولى المؤسسة ، لكنها تزوجت ، واشترط عليها رجلها الا تعمل ، فرضيت واستقالت . ولأن البك لايثق تماما في الموظفات الأخريات ، لهذا رضى بتعيين خليفة ، يقال انه اشترط عليه أمورا عديدة ، لايعرف تفاصيلها احد ، وانه بعد اسابيع لاغير رضى عنه لتفانيه ، ولتفرغه الملتزم .

كان ذلك منذ سبع سنوات . قبل هذا اليوم الذى لم ير عم يحيى أسود منه عبر عمره الطويل . اى منذ اربعة واربعين عاما ، انه اول من رأى ..

يؤكد زكريا موظف الاستعلامات انه سمع بأذنيه صباح ذلك اليوم رد خليفة افندى على رئيس شئون الأفراد عندما قابله عند المدخل ، واقبل محييا . سأله عن أحوال البك ، عندئذ زعق غاضبا ..

— يا أخى اسالنى عن نفسى ..

ثم مضى إلى المصعد ، غاضبا ، مطاطئا ، يقول زكريا معلقا انه لو تنبأ بما سيجرى بعد ساعة واحدة لكان له تصرف مختلف ، لكن من كان يتصور ، من ؟

قالت الآنسة نوال انه بعد هذه المكالمة بقى كابيا ، محمر العينين ، صامتا ، لايقلب ولا ينظر إلى الأوراق . وانها سمعته يعلو بصوته اثناء حديثه الهاتفى ..

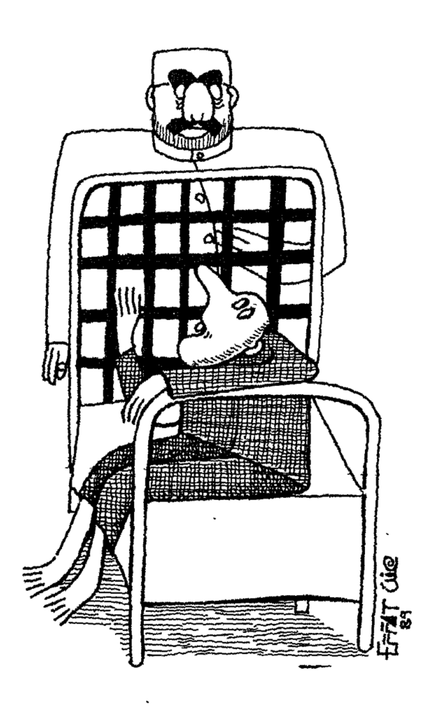
— إذن .. بيننا المحاكم ..

قال عم يحيى . انه عندما سمع الصرخة ، هى واحدة لاغير ، ثاقبة حادة ، لم يصدق ، قام من مقعده فى الممر منتفضا ، اندفع إلى الباب مباشرة ، توقف مرة واحدة ، معقول .. معقول ؟ لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، البك فوق المكتب . منكفىء ، ظهره يكبكب دما ، اما خليفة افندى فانحنى فوقه ، ويداه ممسكتان بمقبض خنجر . أو سكين .. لايدرى بالضبط ، غرسه فى موضع القلب منه تماما ..

● ● ●

يوليو ١٩٨٨

طـــلة



أرق ولم ينم إلا وقتا قصيرا بعد الفجر ..
في الصباح ، أول المستيقظين ، على غير العادة أيام
الزيارات بدا نشيطا . مرحا ، راغبا في المحاورة ،
ساعيا إلى الصلة ، رتب فراشه بعناية ، بسط الملاءة
مرتين حتى رضى عن منظرها ، وقبل تناوله الإفطار
مضى إلى الحلاق في العنبر المجاور ، لاحظ زميله
تغير هيئته ..

— كأنك عريس ..

تطلع إليه ولم يفصح ، لم ينطق كلمة ، وان لاحت في عينيه النظرة الشاردة التي تلوح عند بدء نوبات صمته الطويلة ، والتي تتخذ خلالها عيناه هيئة زجاجية ، وتُزم شفتاه ، ينزل بينه وبين الموجودات ستار مُصمت ، إلا انه لم يقبع ، ولم يتجه إلى النافذة الضيقة التي تتخللها ثلاثة قضبان حديدية ، اعتاد التطلع عبرها خلال وقت الزيارة إلى الفناء المنبسط ، المؤدى إلى الباب الرئيسي بعد تناول الإفطار جاء الممرض ، جال بعينيه في انحاء العنبر ، هذا يعني ضرورة البدء في الإعداد ليوم الزيارة ، اي ترتيب الأسرة والحاجيات ، كنس العنبر ورشه ، نفض التراب عن الجدران ، تنظيف الدورة ، رص المقاعد ، فرد المنضدة المستطيلة وتغطيتها بملاءة بيضاء ، وتعليق لوحة مستطيلة ، كتب عليها آية قرآنية .

« .. فيه شفاء للناس .. »

حروف مذهبة . الخلفية سوداء .

عادة : يبدى نشاطا زائدا قبل بدء الزيارة ، ينوب عن المرضى الذين لايستطيعون الحركة ، أو الذين تناولوا جرعات إضافية من الأدوية المهدئة ، وجلسوا فى أسرتهم أو تمددوا ، محملقين إلى الفراغ ، حتى أن بعضهم يقضى حاجته مكانه . منهم من لاينتبه إلى الزوار ، الذين يحيطون بهم طوال مدة بقائهم ، يتحدثون فيما بينهم ، ويتناقشون فى أمور شتى ، ويوصون الممرض خيرا باقاربهم ، ويدسون فى يده ماتيسر ، وفى نهاية اليوم يتركون ماجاءوا به من طعام ، أو حلوى ، أو ملابس ، وبعد انصرافهم مباشرة ، يدخل الممرض ليجمع هذا كله ، حتى مايتركونه خفية للمرضى من نقود أو هدايا صغيرة يمكن سترها .

اليوم راح وجاء ، كنس العنبر كله ، أبدى عناية خاصة بالفراغ المحيط بسريره . نظف الجدران . نفض التراب عن النوافذ الضيقة .، المرتفعة ، المفتوحة ، والتى يسدلون عليها بعض الملاءات والبطاطين القديمة فى ليالى الشتاء الصعبة .

هذا حاله ، أن يبدى الهمة ، ومع اقتراب وصول الزائرين يأوى إلى قعدته ، إذا ناداه أحدهم لايجيب . لايتناول غذاءه ، ويأوى إلى فراشه مبكرا . وفى الليل يسمع منه نحيب مكتوم ..

ثلاث سنوات وشهور ، لم يزره أحد ، لم يطل عليه انسان ، حتى عرف بذلك ، وعدد آخر فى العنابر الأخرى . إلا أنه ضرب به المثل بين المرضى والأطباء . انه الوحيد ، المقيم هنا منذ وصوله ، لم يأته أى مخلوق ، الآخرون جاءهم البعض مرة أو مرتين . حتى قيل انه مقطوع من شجرة ، ولا أهل له ، فردانى ، وعلى العكس من ذلك قيل انه من عائلة كريمة ، واخوته فى مراكز مرموقة ، أحدهم فى الخارج ، والثانى يشغل منصبا هاما فى الداخل . وله شقيقة طبيبة ، لكنهم مشغولون عنه ، آيسين منه ، فمرضه طويل ، قديم ، لكنهم يوصون أطباء المستشفى خيراً به ، وربما فسر ذلك مداعبتهم له عند المرور ، وحنو الطبيب الشاب عليه .

كل هنا متداخل فى نفسه . منشغل بذاته أو بمالا يدريه آخر ، تنقضى أوقات طويلة على بعضهم . وربما تتجاوز الاسبوع ، بدون لفظهم كلمة ، ولكن تحدث أحيانا انفجارات مفاجئة بدون مقدمات أو نذر ، حدث أن صاح ذلك الطالب الذى كان جامعيا . زعق بأعلى صوته ..

— بص إلى نفسك .. وانت مرمى هنا لايسأل عنك أحد ..

فوجىء الجميع برد فعله ، اذ حملق بثبات مريب إلى الطالب الذى بدا عليه الحذر ، خاصة عندما ارتفعت يداه مبسوطتان ، متصلبتان ، منفرجتا

الأصابع ، خيل اليهم انه سيندفع تجاه الطالب ويطبق على عنقه ، لكنه رفعهما إلى أعلى ، تجاه نفسه ، لطم خديه ، أول مرة بقوة ، بعنف ، ثم صك وجنتيه صكا مدميا ، موجعا ، بادئا في جعير نابع من بئر الحشا ، متألم ، وحشي ، فيه شكوى واحتجاج واستغاثة ، ثم أقعى على قدميه مرددا ، صارخا ..

— آه يا ابويا .. آه يا أنا ..

فوجيء الجميع ، الراقدون ، الواقفون ، من على مقربة ، ومن يقبعون في العنبر القريب ، ولشدة عويله ، وحرارة ندائه ، تبعه آخرون فعلا صراخ جماعي ولم يهدأوا إلا عندما لاح الممرضون عند مدخل العنبر ، امروهم أن يلزموا اماكنهم . لاصوت .. فسكتوا .. ليلة كاملة لم يهدأ نشيجه . سعى إليه الطالب .

— سامحني يا أخي .. لم أكن اقصد ..

لوح بيده ، حركة طفولية ، تنتمي إلى بدايات العمر .

— سامحتك يا أخي .. سامحتك ..

تساءل الطالب :

— لكنك تبكي .

أشاح بوجهه تبدلت ملامحه لنقل ما حط عليه من ألم ، اقتربت هيئته من تلك اللحظات التي تنتابه خلالها نوبات الصرع الحادة ، المباغتة .. قال ..

— أبكي على نفسي .. على حظي يا اخي ..

ثم كرر ..

— سامحتك .. سامحتك والله ..

وانحنى مغيبا ملامحه ، لعدة أيام تالية أبدى الطالب حذرا ، يتحرك بعيدا عنه ، غير أنه لم يبد غضبا ، بدا ذاهلا عنه ، منقطعا . دام أمره أربعة أيام ، لم يقل لأحد صباح الخير ، مع قيامه بما يطلب منه ، مهام نظافة ، ملء أواني المياه ، حمل الطعام من المطبخ إلى العنبر ، لكنه لم يفه لفظا ، لم يبد انفراجة ، حتى جاء الطبيب الشاب الذى التحق بالمستشفى منذ تسعة شهور ، أبدى اهتماما به حتى أنه داعبه أحيانا ، يبدو أنه علم بما جرى ، بعد مروره المعتاد ، اقترب منه ، اصطحبه إلى الخارج ، عند باب العنبر رأوا بأعينهم ذراع الطبيب تحيط كتفه ، لم يسأله أحد عما جرى بينهما ، لكنه في اليوم نفسه نطق ، وجاوب الآخرين ، وان لاح ظله كابيا ، غامقا في نظراته ..

اليوم ، يبدو وكأنه بدل تبديلا ، دار في العنبر مستفسرا ، هل يحتاج أحد إلى قضاء حاجة ؟ . ملأ دورتين بالمياه . وطارد ذبابا حام في الفراغ وحط على وجوه بعض المرضى .

قرب موعد بدء الزيارة اتجه إلى المدخل ، يؤدى إلى صالة مربعة رمادية الجدران ، مرتفعة السقف ، يطل عليها بابا العنبرين الآخرين ، تتوسطها مائدة مستطيلة من الصاج ، تغطى اليوم فقط بمفرش أبيض نظيف ..

ممنوع تجاوز الأبواب إلى الصالة التى يجلس فيها الممرضون ، ليلاحظوا الزائرين ، وليراجعوا التصريحات ، وليراقبوا أيضا الهدايا التى يجيء بها الأهل والأقارب ، معظمها يئول إليهم بعد انصراف الزوار .. حتى النقود التى سلمها الأهل إلى المرضى فيجمعوها قبل إغلاق العنابر ، أحيانا يقومون بتفتيش المرضى ، والويل لو اكتشفوا قروشا مخفاة ، ان عقابا ثقيلا يلحق المريض عندئذ ، بدءا من الضرب ، وحتى حقنه بمادة مخدرة تلقيه طريحا لا يعى مدة ربما تتجاوز يومين ، هى فى الأصل علاج يستخدم عند حالات الهياج الشديد ، أو الاضطراب الصعب .

أول من وصل اليوم المرأة القصيرة ، البدينة ، التى تجيء فى نفس الموعد ، إذ تصل فى قطار التاسعة ، وتستغرق خطواتها البطيئة المتثاقلة حوالى الثلث ساعة ، من المحطة إلى المستشفى ، ثم قطع الفناء الطويل الذى تتخلله شجيرات قصيرة متشابهة ، يقال إن الانجليز زرعوها فى زمن الحرب الأولى أثناء إدارتهم ، انها تجيء ، فوق رأسها قفة صغيرة فيها جبن وأرغفة ولحم ، وفاكهة الموسم . تصافح أولا ممرض العنبر ، تدس فى يده ما فيه النصيب ، ثم تمضى إلى ابنها الذى يرقد فى نهاية العنبر ، أحيانا يراها قادمة فيبدى غضبا ، ويدير ظهره ، تقعد عند حافة السرير ، تربت ظهره ، تدادية ، تعتذر إليه عن أمور لم تأتها . تطعمه بيدها ، تلملم ثيابه المتسخة ، تصف ما جاءت به . تبقى صامتة أحيانا ، أو تحدثه ، أو تميل مسندة ذقنها إلى راحة يدها ، تشرد بنظراتها ، أما إذا صاح فجأة فإنها تطبطب عليه ، وإذا دفعها بقوة فإنها تعود إليه ، مرددة ..

— حقك علىّ .. حقك علىّ يا ضناى ..

اليوم تقدم منها عند باب العنبر ، تطلعت إليه صامتة ، حذرة ، لم تعتد منه ذلك . قال بمودة ..

— عنك يا خالة ..

ابتسمت حائرة ، علا صوت ابنها من نهاية القاعة . صارخا ، مهددا ..

— مالك ومالها يا جدع انت ..

اضطر إلى التراجع ، عاد يحملق إلى المدخل الرئيسى . جاء شقيق الطالب الذى كان جامعيا ، انه لا يملك كثيرا ، لا يأتى معه بطعام ، أو هدايا ، إنما يترك نقودا لا يعرف إلا الممرض مقدارها .

الجميع فى أسرتهم ، بعضهم محملق ، يتحدث إلى من يجاوره ، ورائحة مطهر قوى تضفى على الفراغ حضورا يائسا ..

الرجل خفيفة اليوم ، ربما لأنه الأسبوع الأخير فى الشهر ، يقل فيه الزوار عادة ، عدد منهم يصل فى قطار العاشرة ، يقضى ساعة أو أكثر ، ينصرف قبل صلاة الجمعة .

عائلة المقاول العجوز تجىء قبل الثالثة ، انهم الوحيدون الذين يصلون بسيارة ملاكى خاصة ، تنتظر فى المكان المخصص لسيارة المدير ، والأطباء . حتى العاشرة لم يكف عن الشخوص ناحية الفناء ، يسأل الممرض عن الساعة ، وبالرغم انه لم يصرح ، فان الممرضين ، وبعض زملائه ادركوا انه ينتظر زيارة اليوم . لكن لم يعرف أحد ، من القادم ، متى سيصل ؟ لم يسبق لأحد رؤية اى زائر له ، أمره معروف فى المستشفى . بل ان بعض الضيوف ادركوا أمره ، وحن بعضهم عليه فى المناسبات ، لاحظ الممرض قلقه ..

— ما تقعد يا أخى .. انت خايلتنا ..

تطلع إليه راجيا ..

— والنبى خلينى واقف هنا ..

عند العاشرة سأل :

— القطار وصل ؟

لم يجبه أحد ، بالرغم من إصغاء الممرضين الثلاثة إليه ، عندئذ أجاب نفسه ..

— طبعا .. وصل ..

فى العاشرة والربع اقعى ، لكنه بعد دقائق انتفض ، وهنا بدا ذلك التناقض الحقيقى فى حضوره ، فى هيئة جسده ، لم يكن يلوح إلا عند نوبات انفعاله ان غضبا أو فرحا ، كان بنيانه قويا ، أما وجهه ، وملامحه ، خاصة عينيه ، وفمه ، ونقاط اتصال أعضائه بجسده ، تحتوى شبها وثيقا بالأطفال الذين لم تستقر حركتهم بعد ، لم تستو أمورهم ، يزداد الشبه عندما يتحدث . طبقا لعمره المدون تجاوز الخامسة والعشرين ، لكنه من ناحية الهيئة وردود الأفعال ، واللهجة ، لم يتجاوز التاسعة ، بعد إفاقته

من نوبات الصرع الحادة التى تدهمه فجاة ، يبدو طفلا غير قادر على المشى ..

يميل إلى الأمام ، يفرد ذراعيه حتى المدى ، فى البداية مالا إلى أسفل ، دفعهما ثم خفضهما من جديد ، يبدو حائرا ، لا يدرى بأى وضع يقابل الزائر الذى بدا فى الفناء ، وعندما تقدم خطوتين ، صاح الممرض ..

— ابقى عندك .. هو سيجىء إليك ..

يبتسم ناظرا إلى الممرض .

— ربنا يطول عمرك .. خلينى أقابله على الباب ..

يصيح الممرض ..

— من يعنى .. وزير ؟

لكنه يبدو أنه أدرك لهفته ، هو الذى لم يسال عنه أحد منذ احتجازه ، قال متسامحا ..

— لكن لا تخرج ..

فى وثبة واحدة يقطع المسافة إلى الباب الرئيسى ..

— اهلا ، أهلا بالأحباب ..

قصير جدا الزائر ، أجعد شعر الراس ، يرتدى قميصا رماديا ، وبنطلونا أسود من الصوف الصناعى ، يمسك حقيبة كتب عليها الحروف الأولى من اسم شركة طيران عربية ، أحاطه بذراعيه ، اضطر إلى الانحناء بينما يتراجع الزائر بنصفه الأعلى ، يبدو حذرا ..

— باسم الله ، ماشاء الله ، صحتك بخير ..

يطفطف زبدا بين شفتيه . لايدرى مايجب قوله بالضبط ، الحيرة بالغة ، والاضطراب عظيم ، الانفعال زائد ، يتجه إلى المنضدة ، بجوارها مقعدان خاليان ، يجلس بعض الزوار أحيانا فى الصالة الخارجية ، عندما هم الضيف بالجلوس ، قال ..

— لا .. سلم اولا ..

يبدو الرجل خائفا بعض الشىء ، يتقدم من الممرضين الثلاثة ، يبدو أكثر اطمئنانا بعد ان رآهم ، أنهم ليسوا مرضى .

سلم على عم عوض .. وعم حسين .. وعم جابر .. يشير إليه ..

— ابن خالتى ..

يتقدمه مرة أخرى إلى المنضدة ، عندما يوشك الزائر على ملامسة المقعد ، يصيح .

— لا .. تعال هناك ..

ينظر إلى الممرضين بطرف عينه ، يرقبونه باهتمام ، يبدو وجلا ،

يخشى صدور لفظ أو حركة تكسفه أمام ضيفه ، لهذا تتبدل الانفعالات بسرعة بالغة مابين التفاته ناحيتهم وعودته إلى ضيفه . لم يتحرك احدهم . لم يبد ملاحظة قاسية . على الرغم من أن الزائر لم يقدم لاحدهم اى مبالغ مالية ، بدا واضحا انه يجهل المتعارف عليه هنا . اما الحقيبة فاثارت فضولهم .. يتقدمه الى داخل العنبر ، يتطلع محموما إلى المرضى ، بعضهم يرقبه بهدوء ، والآخرون لم تتبدل حدقات عيونهم ، لكن معظمهم راحوا يرقبونه . لم يروه من قبل بصحبة زائر ..

ان سريره الرابع إلى اليمين ، يميل عليه ، ينفضه ، يشد الملاءة .. يهم الضيف بالجلوس ، لكنه يتناول الوسادة ، يثنيها ..

— ضعها وراءك حتى لاتتعب ..!

يقعد ، يداه امام صدره ، يفرد اليمنى ، يتلفت حوله ، ليس لديه شيء يمكن ان يقدمه ، ليس عنده نقود ليدعوه إلى كوب شاى مما يعده ممرض العنبر الثالث ، إلا ان ذلك لم يمنعه من النطق ..

— تشرب حاجة ؟

— اقعد .. انا فطرت وشربت

يواصل إلحاحه ، لكن الضيف يصرّ ..

— لا تتعب نفسك ، قلت اننى لن اشرب .

ينظر حوله حذرا ، خاصة عندما يفارق احد المرضى فراشه ، يتداخل فى بعضه كلما اقترب احدهم منه . يقترب المريض الذى يرقد قرب نهاية العنبر ، انه اصلع تماما ، يرتدى نظارة طبية إطارها من السلك ..

— تعال ، تعال سلم على ابن خالتى ..

يتوقف . انه يمسك صحيفة قديمة ، يبدو متئدا ، متمهلا ، يتقدم قائلا بعربية واضحة النطق ..

— أهلا وسهلا بك

يلوح وجل . وتبدو خشية . خاصة عندما امسك الرجل بيده لحظات ، يبدو أن هذا ضاعف من اضطرابه ..

— ابن عمى .. مهندس ..

يلتفت إليه الرجل .

— ابن عمك ولا ابن خالتك .. يابنى أرس على بر ..

يتراجع مفاجئا ، يتردد ، لكنه يكرر ..

— مهندس كبير فى السعودية ..

يرتفع صوته . كأنه حريص على ان يسمعه كل من جاوره فى العنبر ، خاصة انه خفت عندما التفت ليقدم زميله المريض ، قارنا اسمه بوظيفته

السابقة كمدير عام أحد فنارَات البحر الأحمر .. مما دعا الرجل إلى الابتسام ، والتصحيح .

— يابنى ، لم أصل إلى درجة مدير عام ..

يشير إلى حافة السرير ..

— تفضل .. تفضل معنا ..

يفكر الرجل لحظة ، يضرب راحة يده اليسرى بالجريدة المطوية ..

— لا بأس .. لا بأس .. لكن اسمحا لى أن تقبلا دعوتى ..

يلتفت إلى الزائر ، يحدق فيه بقوة ..

— شاى .. شاى أو قهوة ؟

يرتفع احتجاج

— تعزمنا هنا .. هذا واجب علىّ أنا ..

— خلاص يابنى .. أنا مثل والدك ..

يقول مبتسما ..

— انهم يعدون شايا جيدا ..

يوليهما ظهره ، يخرج ، يعودان إلى مواجهة بعضهما ، لم يدر مايقوله بعد عبارات الترحيب ، كما ان خجلا بدأ عنده لأن الرجل طلب منه الرسو على بر ، ابن عمه أو ابن خالته ؟ هل لاحظ الآخرون ؟

— وصلت بالطائرة ؟؟

— لا والله .. جئت بالسيارة ..

يصيح بأعلى نبرة ممكنة .

— من السعودية إلى مصر فى عربتك ؟

— طبعا .. فيه طريق جديد الآن .. العقبة .. نويبع ..

— هذه المسافة كلها .. سقتها أنت ؟

يبتسم الزائر لأول مرة .

— وأكثر منها ..

— طبعا عربة غالية جدا ..

— يعنى !

ينحنى الزائر ، حانت اللحظة التى يفتح فيها الحقيبة ، يتطلع مترقبا ، يبدى بهجة عند رؤيته جهاز المذياع الصغير ..

— لى أنا ؟ لى أنا ؟

يبتسم الزائر متواضعا ..

— لتسلى نفسك ..

يقلب الجهاز ، يتحسس أزراره المتعددة ، لم يدر كيف يعبر عن امتنانه ، ماذا يفعل ؟ يقوم واقفا ، يقبل المذياع ، يميل محتضنا ضيفه .

— ربنا يخليك ..

لم يكن المذياع الشيء الوحيد ، يخرج جلبابين ، يؤكد أنه اشتراهما من جوار الحرم النبوى المبارك في المدينة المنورة .

— وعلبة حلوى . كلفت نفسك ..

صوته مرتفع ، كانه يريد ابلاغ كل من حوله ، يقلب علبة الحلوى الأجنبية مرتين ، يحاول فتحها ، يود ان يقدم بعض محتوياتها إلى الجيران الذين يحملق بعضهم الآن إلى العلبة ، إلى الجلبابين ، إلى الراديو .. ، يتطلع الى مدخل العنبر ، لم يحدث من قبل ان ظهر أحد الاطباء اثناء الزيارة . مواعيد المرور معروفة ، الاستثنائى منها عند وقوع حالات هياج مفاجئة ، لكنه يتمنى ظهور الطبيب الشاب الآن ، لو يلمحه الآن ، يسارع إليه ، يرجوه مصافحة قريبه الذى قدم من السعودية خصيصا لزيارته ، يلتفت إلى ضيفه ، كيف يقدم الطبيب الشاب ، بماذا .. اى العبارات ؟ اى كلمات ؟

سيقول انه ، لا .. افضل طبيب فى المستشفى ، لا .. فى كل المستشفيات ، انه يرعاه ، يوصى به خيرا ، يعالجه باحس الادوية ، لو يظهر .. لو يدخل الآن . يلمح الممرض عند المدخل ، يرجف قلبه ، يهرع نبضه ، سيتم تفتيشه آخر النهار بدقة ، قبل ذلك اهملوه لانه لم يستقبل اى زوار ، ليته يفتح العلبة ليلحق قطعة منها ، لكنها محكمة !

يصل الرجل حاملا صينية الشاى ، عليها ثلاثة أكواب .

— بنفسك ياسعادة البك ..

لاتوجد منضدة ، يمسك الكوب ، يقدمه إلى الضيف . يتمتم بما يعنى انه لاداعى ، يتناول الصينية ، يقعد الرجل متسائلا عن البلدة التى يعمل فيها الضيف ؟

يقول انه فى الرياض . يتساءل الرجل عما إذا كان فى الرياض ذاتها او فى بلدة قريبة منها ، ثم يقول انه يعرف مستشارا قانونيا عمل فى الرياض قبل ثلاثين سنة ، من اوائل المصريين الذين ذهبوا إلى السعودية ، كانت المدينة صغيرة .

يقول الزائر انها مثل اوروبا الآن ..

يقول الرجل انه امضى مدة خدمته فى جزيرة عليها فنار تتوسط البحر

الأحمر ، وفي النهار كان يمكنه رؤية الساحل السعودى . جزيرة صغيرة عاش فوقها سنوات طويلة ، معه خمسة أفراد لاغير .

يصمت لحظة ، يسال إذا كان مستريحا ..

فى هذه اللحظة يدركه ضيق ، ان الرجل يثرثر كثيرا ، يطيل جلوسه ، يوشك ان ينبهه ، هذا ضيفه هو ، انه قريبه ، فليتركهما معا ..

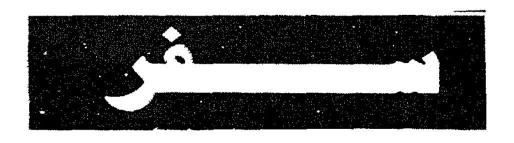
يحمد الزائر ربه ، ثم يقول ان الغربة صعبة ، امضى أربع سنوات متصلة انها المرة الأولى التى يجىء فيها إلى مصر . سيرجع فى نهاية الشهر ، هناك لايعرف إلا بيته وعمله ، وربما تمضى عدة أعوام قبل مجيئه مرة أخرى . يفضل أن يمضى مدته كلها متصلة ..

ياه ، عدة أعوام ، ثلاثة ؟ أربعة ؟ يعنى لن يراه مرة اخرى ، ان خوفا غامضا يدركه ، وحشة تزحم صدره ، مازال الممرض يقف عند المدخل ، لايتطلع إلى صوبه ، ينظر إلى قريبه ، يمسك يده .. — اربع سنوات .. يتطلعان إليه ، يقول راجيا ..

— يعنى لن تطل علىّ مرة ثانية !!؟

● ● ●

نوفمبر ١٩٨٨


سفر

.. عند بدء سفرى الوذ بوحدة ، لا أرغب مخاطبة من يجاورني ولا أسعى ، أرحل في رحيلى ، فأمضى إلى ما كان ، واستشرف ما سيكون ، أحاول النفاذ إلى كنه مالم يكن . ومالن يكون ، ماهو غير كائن ، أرى مالم اره ، مالم تساعدنى أيامى المنهكة على استبصاره .

هذا دأبى ، وتلك خصلتى ، إن في طائرة ، او في قطار ، أيا كانت المركبة ، لذا حرصت على حجز مقعد مفرد الى الجانب الأيمن ، حيث يمكننى رؤية الطريق المحاذى للخط الحديدى ، والمدن المتعاقبة ، المطلة على الترعة ، كذا المزارع الممتدة ، والبيوت المتناثرة ، واشجار النخيل التى تزداد كثافة وتراصا كلما ازداد الايغال جنوبا .

لم يتبق إلا دقيقة واحدة على موعد التحرك عندما تقدم من المقعد الذى يقع امامى ، يحمل حقيبة متوسطة الحجم ، لم يضعها فوق الرف ، انما فوق الأرضية المغطاة بالمشمع ، يتابط جهاز تسجيل ومذياعا متوسط الحجم ، يرتدى زيا ازهريا ، عمامة صغيرة تغطى راسه . في منتصف العمر ، لم يحلق ذقنه يومين على الأقل ، متعب العينين ، يتطلع إلىّ ، يبدو راغبا في القربى ، لكننى اولى بوجهى تجاه الرصيف .

يبدأ القطار ، يسرع بعض المودعين ، رجل نحيل يجتاز العربة من اولها إلى آخرها ، المحه خارجها ، جسده يميل اثر قفزة ، يخلع جارى عمامته ، تبدو صلعة مستديرة ، وشعر قصير جدا . عندما التفت إلى الوراء تجاهى ، ملامحه متغيرة ، كاننى في مواجهة شخص آخر .

ـــ التكييف بارد ..

صوته مرتفع ، تعليقه منطوق ، غير ذى وجهة أو قصد ، لكنه يسعى إلى المجاوبة ، لزمت صمتى ، اسمع تكة اثر ضغط مفتاح جهاز التسجيل ، لحظات ويرتفع صوت مطرب شعبى ، مدائح نبوية ، لم يغط ضجيج القطار على الغناء ، فيه جمال قديم ، وشجن خفى ، وبحة لاتخفى ، إلى مابعد الجيزة لم يتوقف ، كف فجاة ، هل انتهى الشريط ؟ أم أن الرجل أوقفه ؟

اغمض عينى ، احصى البلاد التى سيتوقف فيها القطار . والمدن التى سيمرق عبرها ، والقرى الصغيرة التى سيثير عند مزلقاناتها الغبار والحذر ، استعيد سفراتى العتيقة ، بصحبة والدىّ واشقائى ، عينا أبى وقعتا على ما امر به الآن ، قطعنا الطريق مرات ، كانت القاطرة سوداء ، تنفث دخانا ، وفى الليل يلوح منها وهج نيران ، لها زعيق وكبكبة ، كنا صحبة وجمعا ، اما الآن فما انا إلا مفرد ، مبتوت . اسعى فى دنيا خلت ممن اتيا بى إليها . انتظر ما تجود به أحلامى من رؤى أحيانا تعلق بذاكرتى الواعية اثر صحوى ، يوما تطلعنا إلى ما امر به الآن ، فهل ثمة أثر ؟ هل للفراغات ، للفضاءات ذاكرة ؟ . هل ثمة بقايا للحظات المارقة عدا المخيلة ؟ احقا تفنى الأصداء ؟

— ياه .. الدنيا برد ..

لم يتطلع ناحيتى ، ادرك صدى . طالع انزوائى ، كرر تعليقه لحظة التفات راكب يجلس فى الصف المجاور ، حيث المقاعد مزدوجة .

— لكن التكييف رحمة ..

يقول ذو الزى الأزهرى .

— طبعا .. المسافة طويلة .. هو الأخ من اى بلدة ..

— من اخميم ..

— أحسن نلس ..

— تعيش يامولانا .. وانت ؟

— من طهطا .. لكن شغلى فى ادفو .

وليت بوجهى تجاه النافذة ، وبنظراتى عبرها ، انها سفرتى الأولى التى لن ارى فيها خالى ، دائما كان ينتظرنا ، بيته ماوانا ، اسعى إليه ، لكن لاقف على مثواه ، غدا تممة الأربعين ، كان هادئا ، آخر من تبقى لنا ، لم يعد لنا إلا اقارب لم التق بمعظمهم ، يتقدم الواحد منهم الىّ ، ألا تعرفنى .. أنا ابن بنت عمتك ! . لم يعد لنا خال ولاعم ، صوته . رائحة ثيابه ، وضع عمامته ، غرف البيت ، مخزن الحبوب ، صومعة القمح ، وثمرات الدوم الجافة ، هذا من مكونات صباى .

صوت الأزهرى عرتفع ، جنوبى اللهجة ، مع ميل إلى النطق بالفصحى ..

— من أخميم نفسها ، أومن نواحيها ؟

يؤكد الآخر انه من أخميم ذاتها ، يستفسر عن شغل الشيخ فى ادفو . يقول انه مدرس لغة عربية ، انه هناك منذ اربع سنوات ، مرت والله كأنها أربعة أسابيع ، ناسها طيبون لمن يعايشهم ويعرفهم . اذ أمنوا للغريب ، إذا وثقوا به ، فكأنه بين أهله ، لذلك يقولون إن القادم إليها يبكى ، وعند مفارقتها بعد تمام مدته يبكى ، ناس أخميم مشهورون بالكرم ، يعرف منهم الشيخ أبو ضيف ..

— الشيخ أبو ضيف العقيلى ؟

— عرفته ؟

— ومن لم يعرف أو يسمع بسيد الناس ؟

لاحظت ان الأزهرى خلع حذاءه ، قعد متربعا فوق المقعد ، يتطلع اليه الراكب الآخر . حول معصمه ساعة ذهبية ، فى أصبعه خاتم غليظ الفص ، استعدت صمت خالى ، تطلعه الطويل . ثم أهته المفاجئة المحيرة ، كان تاجرا للغلال ، أمره معروف ، وامانته مشهورة ، ومكياله لاشك فيه ، لكم صبحته طفلا إلى الأسواق ، سوق الاثنين فى خارج جهينة ، وسوق نزة الحاجر الأربعاء ، وسوق السبت قرب الطليحات ، والأخير ابعدها عن بلدتنا جهينة ، كان يرفع تليس القمح او السمسم او الفول فوق ظهر الحمار الأبيض القوى ، يقعدنى . وأحاول الاحتفاظ بتوازنى ، بينما يعدو هو ممسكا بعصا قصيرة ..

— مثل هؤلاء لا ياتى الزمن بمثلهم ..

يتحسر الراكب ذو الخاتم على زمن الناس الطيبين .

كان خالى قليل اللفظ ، خفيض الصوت ، طويل الشرود بعينيه ، إلا عند حديثه عن والده ـ جدى ـ ، كان ازهريا ، مضى إلى العاصمة ، ورجع بعد سنوات قضاها مجاورا فى الأزهر ، أصبح هو من يحل ويربط فى أمور الناس ، يؤم المصلين ، ويخطب الجمعة ، وينهى اجراءات الزواج ، والطلاق ، ويحسم نزاعات الميراث ، ويفضى النصيحة إلى من لجا إليه ، كان مسموع الكلمة حتى من كبار السن . له هيبة ، احبه الناس لرقته ، وطيبته ، وحنوه البلدى ، وحتى اليوم مازال المعمرون يذكرونه بالخير ، ومعظمهم يتحدث عن جمال صوته ، وقدرته على النفاذ إلى دهاليز القلوب ، حتى انه فى ليالى الموالد ، خاصة مولد النبى ، كان يقف

فى الرحبة ، ممسكا بعصا معدنية كثر الحديث حولها ، يطرقها بقضيب صغير ، مستخرجا انغاما شجية لم يسمعها أحد قبله ، ولم تتكرر بعده ، فى هذه الليلة كان النسوة يخرجن عن العادة ، فيقفن فوق أسطح البيوت المطلة ، يصغين ويدمعن حتى مطلع الفجر . كانت شهرته فى رواية السيرة ضاربة فى النواحى القريبة ، ولها أصداء حتى قنا وأسيوط ، غير انه لم يلب أى دعوة تلقاها من خارج جهينة ، ولو تنقل بين البلاد راويا ومنشدا ، لجمع الثروة ، واشترى الأطيان ، والجمال ، وبنى الدور العالية ، لكنه لم يفعل لأمر لا يعلمه إلا ذو الجلال والإكرام ، لم يفارق البلدة ، وكان يمضى ساعات نهاره ، وقدرا من الليل بصحبة كتبه ومخطوطاته القديمة التى رجع بها من مصر ..

يعلو صوت الأزهرى ، التفت بسرعة . جاره مصغ ، ثالث يجلس فى المقعد الأمامى استدار تماما . يقول الأزهرى انه نزل أخميم منذ خمسة عشر عاما ، جاءها كمراقب فى امتحانات الشهادة الابتدائية ، عندما كان المدرس ينظر إلى الطالب مرة واحدة فيجمد مكانه ، بعكس تلاميذ هذه الأيام غلاظ العيون ، كان بصحبته اربعة من زملائه ، اثنان منهما مازالا يعيشان ، واحد فى مدرسة الصنائع بمدينة فوة بحرى ، والثانى راح اليمن ، والآخران توفاهما الله عندما انقلبت بهم عربة اجرة فى الرياح المنوفى ، حمولة العربة سبعة ، كان داخلها اربعة عشر ..

— طمع .. وارواح الناس تضيع ..

قال الراكب الأمامى ان أصحاب العربات فى الأرياف عموما ليس عندهم ضمير ، مرة كان مسافرا من الفيوم إلى اطسا . حشره السائق حشرا فى العربة ، كانت قديمة ، قديمة جدا ، وحتى يتخيلوا مدى الزحام ، كان على المقعد المجاور للسائق ثمانية اشخاص ، حدث أن أوقفهم ضابط مرور من المركز ، تطلع دهشا ، متعجبا ، قال للسائق إنه لن يؤذيه ، لن يحرر له مخالفة ، لكنه يطلب منه انزال الركاب . وإعادة حشرهم أمامه . حتى يرى كيف استطاع ترتيبهم فى هذا الحيز الضيق .

يقول الراكب ذو الخاتم ..

— لو رأى الشيخ ابو الفضل مثل هذه العربة لمنعها .. رحمه الله ..

— مات ؟

يبدو جزع الأزهرى حقيقيا .

— تعيش انت

— يا ساتر

— متى ..

— من سنتين .. حكاية ، الناس تعرفها !

يقول ان الشيخ أبو الفضل عاش عمره كله مهابا من الكافة ، الغنى والفقير على السواء ، كان بيته مفتوحا دائما ، في أى وقت يمكن للغريب ، للعابر ان يدخل ويقيم ويأخذ حقه من الضيافة كاملا ، وفي اليوم الثالث يسأله بعد تناوله الافطار عن اسمه . والجهة التي جاء منها ، ومقصده النهائي ، وسبب انتقاله ..

يقول الأزهرى . إنه لم يقض في أخميم إلا أسبوعا لاغير ، لكنه عرف الشيخ وكأنه عايشه دهرا ، بمجرد وصولهم خرج إلى استقبالهم وقال في حسم لايقبل الجدل ، ان ضيافتهم عنده حتى نهاية الامتحانات ، ليس معقولا ان يبيتوا في سوهاج ، ويتحملوا عناء المشوار يوميا ، صحبهم إلى المضيفة التي عرف فيما بعد انها لم تغلق منذ مئات السنين ، تعهدها الجد تلو الجد . قال لهم ان البيت بيتهم ، وانهم أحرار ، لن يزعجهم أحد ، ولن يزعجوا أحدا ، فهم كما يبدو أبناء أصول ، صباح كل يوم كان يجيء احد رجاله بالإفطار ، أقراص سخية تشر سمنا ، ودوارق ملأى بحليب طازج ، له رائحة وعبير ، لم يعد الآن مثله ، وجبنا معتقا احمر اللون لقدمه . وعسلا مصفى ، أما الغداء لم يخلو ابدا من اللحم ، أو البط ، او الأوز ، والويكة او الملوخية ، والبامية البوراني المعتبرة . والله .. والله طعم الأكل مازال فى الحلق حتى الآن ، آخر يوم ذبح خروفا وجاء ليأكل معنا . المرة الوحيدة التي شاركنا ، قعد ولم يتناول إلا لقيمات . ورغم ذلك لم يتحرك إلا بعد ان شبعنا كلنا ، ثم صب الماء على يدى كل منا ، كان يحمل المنشفة على ذارعه ، ياسلام .. مثل هذا يموت ؟

— مات .. وكيف مات ؟

يقول الجار ان الحاج أبو ضيف من ناس الزمن القديم ، انجب ابنا واحدا لاغير ، حكمة ربنا وتقديره ، ربى الولد أحسن تربية ، كان ابنه على خلق ، لكن بعد ان اتم تعليمه في مصر ، طلعت في دماغه فكرة السفر ، قال لأبيه انه يريد رؤية بلاد الله ، ان يجرب حظه ، الحاج كان حكيما ، أصغى إلى ولده وهو قاعد فوق الدكة القديمة وعصاه بين يديه ، كان يعرف ويفهم انه لو رفض فلن يبدى ابنه اعتراضا . لكنه سيبقى غصبا ، لن يكون على هواه ، البلد كلها تعرف انه لم يرفع عليه يدا . كانت النظرة منه تكفى ، الولد كبر واصبح رجلا . صحيح .. كان يتمنى بقاءه إلى جواره ، الولد سند وظهر ، خاصة ان العمر يتقدم به ، لكنه كما قال فيما بعد لأحد

أصحابه التجار انه ادرك لحظة سماع رغبة ابنه ان الفراق دنا واقترب ، وان ما كان يبدو ثابتا ، جزءا منه ، آن له أن ينفصل عنه ، لم يضغط على ابنه ، لاتصريحا ولا تلميحا ، بل ؛ ساعده على تدبير أموره ، نزل سوهاج واشترى قمصانا وحذاء وقماش بدلة لكن الولد رجاه أن يفصله جلبابا له ، اعتذر بضيق الوقت ولكاعة الخياطين ، هذا القماش طواه الرجل ، كان يتوسده عند نومه ويقول لامراته ومعارفه انه يشم رائحة ابنه فيه ، مع ان ابنه لم يرتده يوما ، المهم .. الولد سافر ، وصل منه خطاب ، والثانى ، والثالث ، وكان الحاج يقراها على مهل ، وبصوت مرتفع ، ويمنع امراته من البكاء ، فالبكاء شؤم على الغائب ..

سرعة القطار مستقرة نسبيا ، عند مزلقان صغير ألمح امراة عجوزا . فوق راسها قفة صغيرة ، بمفردها ، احتواها بصرى للمحة ، لحظة خاطفة هى فى ثبات ، انا فى حركة . فى جزء من الثانية تواريتا ، لا اذكر ملامح جدتى . احاول استعادتها فلا ارى إلا رداءها الاسود وقوامها النحيل ، الطويل ، وبقايا وشم مثلث يتقدم جبهتها ، اما يدها المعروقة ، فمازلت اعى ملمسها المقدد ، ابت الزواج بعد غياب جدى ، ماتت وهى تؤمن أنه حى يسعى ، وانه يوما ما ، إن فى غسق ، أو فى فجر ، سيبدو عند مطلع الطريق المؤدى إلى القرية إلى الرحبة .

راكب يرتدى عمامة من اللباد ، ملفوف حولها شال أبيض ، يخاطب الأزهرى متاسيا ..

— وحد الله يا مولانا .. الدنيا لاتدوم على حال ابدا .. يقول انه من بلدة اسمها نزه الحاجر ، عاش عمره كله فيها ، يتاجر فى الأقمشة . له أصحاب من أسوان إلى القاهرة ، لو قال لهم أريد بضاعة بألف جنيه لارسلوها إليه بدون ورقة ، ولا استفسار حتى .. الحمد الله .. الحمد الله على كل شيء .

يسكت لحظة ، يبدو انه استعاد أمرا آلمه .. يقول انه كان على صلة برجل طيب ، صالح ، اسمه الحاج عبد اللطيف ، لكن الناس عرفوه بمجير الطير ، ذلك انه ورث سبعة فدادين ، احاطها بسور ، أمر الا يؤذى أى طائر يحط على زراعه ، أو يشرب من قناة تتخلل ارضه . الا يطارد عصفورا يلتقط حبات قمح ، أو هدهدا يسعى فوق سعف النخل ، أو غرابا أوى إلى غصين شجرة . ويبدو ان الطيور مثل البشر . تدرك وتفهم . اذ بدات أسراب منها تجيء ، لتحط آمنة يمشى الرجل او الطفل بجوارها فلا تفزع ولا تفر ، وكان الحاج مجير الطير ، يفرد ذراعيه ، يبسط يديه وفيهما الحب . فيجيء البط البرى . وعصافير عجيبة الخلقة لاتظهر إلا من السنة

إلى السنة ، تقف على كتفيه ، وتتلاعب . وتتناغى على ذراعيه . ويراه الخلق راضيا ، مبتسما ، قال بعضهم انه يلاغى الطيور ، وانه يفهم لغاتها ..

— سبحان الله .. سبحان الله ..

يقول ان مجير الطير كان قصيرا ، ممتلئا ، تغمز عينه اليسرى - إذا تحدث - رغما عنه . كان مسموع الكلمة ، له احترام ، انجب ثلاثة . اثنان ذكور ، وبنت واحدة ، الولدان تخرجا من المعهد في أسيوط . أصبحا مدرسين ..

يتدخل الأزهرى مقاطعا .

— تقصد المعهد الدينى ؟؟

— بالضبط

— أياك تتكلم عن ياسين والسيد ؟

— تعرفهما ؟

— الا أعرفهما ؟ خدمت معهما فى سوهاج .. ياسين والسيد عبد اللطيف .

— بالضبط

يقول ذو الخاتم الغليظ ،

— مولانا يعرف كل الناس ..

يجيب الأزهرى .

— ربنا يرضى عنا أحبابه ..

ثم يقول :

— ربنا فتح عليهما .. واحد راح الجزائر .. والثانى سافر إلى السعودية ..

يقول ذو العمامة .

— ليتهما ما سافرا .

يجزع الأزهرى .

— يا ساتر استر .. ماذا جرى لهما ؟

يقول الأزهرى انه لم يحدث لهما هما ، ذلك انهما بعد سفرهما جرى المال فى أيديهما . لم يقصرا فى حق والديهما ، الكسوة تصل اختهما مرتين ، مرة فى الصيف ، مرة فى الشتاء . أحسن قماش ، أحسن مصاغ

اولاد حلال بصحيح ، بعد غربة ثلاث سنوات اجتمعا لأول مرة في بيت والدهما مجير الطير ، القادم من السعودية تاخر شهرا حتى يلقى أخاه . وفي ليلة ، بعد تناولهما انعشاء ، قال القادم من الجزائر لابد من بناء بيت جديد ، من الخرسانة والطوب الأحمر ، راح يعدد البيوت التى بنيت حولهم .

هذا عاد من العراق وبنى ، وهذا رجع من ليبيا وبدأ ، هم ليسوا أقل ولا اهون .. ، الاخ لم يعارض أخاه ، لم يختلفا طوال حياتهما ، نعم الأخوة والربابة ، ليتهما اختلفا هذه الليلة ، لكن ماجرى جرى ، اتفقا على اقتطاع ثلاثة قراريط لاغير من الفدادين السبعة ، في البداية أبدى مجير الطير رغبة مخالفة لولديه ، ان يعيدا بناء البيت القديم ، لكنهما اقنعاه . او سكت على مضض حتى لا يكسر خاطرهما ، قال اكبرهما ضاحكا : تخاف الا تاتي الطيور بعد البناء ؟

سمالوط .

كان والدى يحصى مرات وقوف القطار البطىء الذى نركبه . يحفظ مواعيد دخوله هنا وهناك حتى وصوله إلى طهطا ، حيث نفارق .. ، فوق الرصيف يقف خالى وعدد من الأقارب ، تحذرنى أمى من الوقوع فى الخطا ، نصل البيت الذى ولدت فيه عند الغروب ، فى الفراغ رائحة وقود الفرن الذى ظل مشتعلا طوال النهار ، والخبيز ، فوق الألواح الخشبية المغطاة بذرات الدقيق الأبيض تتراص الأرغفة المستديرة ، المنتفخة ، لكم احببت مذاقها وغمسها فى اللبن الرائب ، بعد الوصول تقعد أمى ، النساء يتوافدن عليها مرحبات ، متطلعات . يتفحصنها ، يسالنها عن احوالها ، عن مصر وناس مصر ، لم يكن يخلو حديث بعضهن من غمز أو لمز ، كانت جدتى تدفع عنها السنتهن ، وتزجرهن ، أرى أمى تجلس حزينة ، ساهمة ، أرى جدتى واقفة تنظر إليها ، لا أدرى هل يجمعهما زمن واحد ؟ لحظة واحدة ؟ أم تنتمى الوقفة إلى وقت ، وقعدة أمى إلى يوم آخر ؟ لا أدرى ، يستبهم علىّ ما كان ، أرى جدتى تجلس مصغية ، امسك كتابا قديما ، أصفر الورق ، يحتوى على لوحات لفارس يغوص سيفه فى جسم أسد ، شطره نصفين ، هذا حد من عمرى كنت أعرف عنده القراءة ، اتلو بصوت مرتفع ، وهى تصغى . لماذا نجلس نحن الاثنين فى البيت ، أين أمى ، أين امراة خالى ، أين اخوتى ؟ . فى الغرفة المواجهة مكتبة جدى ، ثلاثة صناديق من الخشب الغامق ذى الرائحة الذكية ، يحتوى كل منها على مخطوطات عتيقة ، كتب بعضها بالاسود والأحمر ، تحتوى

صفحات على اشكال مثلثة ، ومربعة ، وارقام ، وحروف غريبة ، يقول خالي ان هذه الكتب أمضى عمره كله في جمعها ، وقبل غيابه الغامض جاءه رجل سوداني ، يقود جملا محملا بالمخطوطات القديمة ، كان يجيء مرتين كل سنة ، مرة أول الصيف ، ومرة أول الشتاء ، في المرة الأولى يجيء من قبلي ، وفي الثانية يكون قدومه من بحرى ، منذ ظهوره عند الجسر يتجه مباشرة إلى البيت ، لايكلم أحدا ، لا يقف هنا او هناك ، لا يلقي السلام ، كان ظهوره يثير الرهبة والخوف عند البعض ، فالكتب التى يأتي بها إلى جدى قديمة ، تحوى امورا في السحر ، والتنجيم ، ومعرفة غوامض الآتى في الأزمنة المقبلة . بعض هذه الكتب له حراس ، أو خدم ، من الجن ، والتعامل مع المخطوط ، الامساك به يجب ان يتم بطريقة معينة ، بل يجب تلاوة جمل والفاظ قبل فتح بعضها ، وأى تصرف مخالف يلحق أذى لامثيل له ، هذا ما ردده خالي دائما ، قال أيضا ان هذا الرجل السوداني كان يقضى بصحبة جدى خمس او ست ساعات ، يعرض عليه ما جاء به ، احيانا يأتيه بكتاب معين كان الجد أوصى عليه منذ عشرين عاما ، لم يكن ينسى ، ولم يكن يقضى لحظة واحدة بعد انتهاء لقائه بجدى ، يقوم إلى جمله حتى لو انتصف الليل ويفارق البلدة مبتعدا في جوف الظلمة .

— استر ياستار ..

صاح الأزهرى ..

يتمهل الرجل ذو العمامة . متاسيا ، محزونا ، يقول ان الأرض ساخت بالبناء ، الأرض اصلا زراعية ، مع انهم صبوا فيها خرسانة بالشيء الفلاني ، مالت الجدران ، وقع السقف على الرجل وامراته ، كانت سابع ليلة لهما في البيت ، وكان مجير الطير كان قلبه مدركا لما سيقع ، بعد اكتمال البنيان ، لم ينتقل إليه ، نفسه لم تطاوعه على مفارقة القديم ، لكن امراته الحت ، قالت إن البيت لابد أن يكون فيه نفس ، الطيور اعتادت عليه ، وتقف على شرفاته وعند نوافذه ، قالت : ما نفس إلا نفس بني آدم ياحاج ، والولدان لابد ان يجيئا فيجدانه عامرا ، بعد انتقالهما كان يروح في كل صباح إلى البيت القديم . يفتحه ويرشه بالماء . ويقعد امامه ساعة او اكثر ، كانه كان يشعر ، البلدة كلها خرجت وراءهما ، لكن الأغرب ، الاعجب ، الطيور ، الطيور غطت السماء وهي تنعق وتصرخ مثل البني آدميين ، وبقيت تحوم في سماء البلدة حتى الغروب ، في اليوم التالي عثروا على عدد منها فوق عتبة البيت ، عند النوافذ ، فوق السطح ،

وسط الزرع ، بعدها لم ير احد عصفورا ، ولابطا ، ولا هدهدا ، كانت الطيور تحوم حول الفدادين السبعة ، ولا تقربها ..

— سبحان الله ..

— العمل الطيب لايروح أبدا ..

صمت الحديث ، ضجيج القطار الرتيب ، انتقال العجلات فوق القضبان ، رجل يرتدى معطفا اصفر يقف فى الممر ، حتى اتى ؟ لم الحظه ، يقول ..

— الفاتحة على أرواحهما وارواح المسلمين ..

يبسطون الأيدى ، لم يتطلع صوبى احد ، منذ البداية أخرجت نفسى من الدائرة ، لكننى رفعت يدى ، قرأت فاتحة الكتاب ، رأيت والدىّ كأنهما يصغيان ، وخالى الذى اسعى حتى احضر ذكرى الأربعين ، أدركنى أسى ، لا ادرى ممن سمعت ان اصعب الأيام على الميت ، يوم الأربعين ، فيه يسقط الأنف ، وتتلاشى تماما ملامح الوجه ، لهذا وجب الترحم عليه وزيارته وقراءة ماتيسر من القرآن الكريم عليه .

يمضى القطار ، ادرك زيادة السرعة ، يتكاثف النخيل ، أحقا قطعت هذا الطريق من قبل ، طفلا رضيعا ، وصبيا ، وفتى ، وشابا ؟ أمضى قاطعا المسافة الطويلة لاحياء ذكرى مازالت بعد غضة طويلة ، كان قدوم خالى فى صبانا يغير إيقاع حياتنا ، ننتظره ببهجة ، ويتعاهد ابى وامى الا يختلفا فى حضوره ، وعندما يجىء ويصل نعانقه فرحين ، رائحة جلبابه الصوفى وعبير جنوبى غامض ، نتحلق حول القفة ، تفرغ امى محتوياتها ، الأوزة المذبوحة ، حمامات ، الكشك ، الملوخية الجافة ، البلح واخيرا الخبز المعجون باللبن ، والخبز الشمسى ، فى اليوم التالى مباشرة ينزل خالى بصحبة ابى ، يمضيان إلى المقهى . ثم يبدأن الرحلة إلى الأضرحة ، إلى آل البيت ، والأولياء . واعز المشايخ ، ضريح الحسين هو المركز ، يصلى فيه الظهر والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، واحيانا الفجر ، فى اليوم الثالث يشكو ثقل الراس ، والدمار ، ويبدو عصبيا . يتطلع ابى حذرا ، خائفا ، هكذا ادركت فيما بعد ، إذ حانت اللحظة التى يجب أن يقوم فيها بما يكره ، ان ينزل ليبحث عن فص افيون . فقد نفذ ما جاء به خالى من البلدة . طوال عمره لم يقترب والدى من المخدرات ، كانت بالنسبة له فى دائرة المحرمات . حتى السجائر ، نادرا ما رأيته يدخن ، لكن لابد من القيام بالواجب ، يسعى عند العصر إلى حلاق فى الباطنية ، اعتاد التردد عليه ليحلق شعر راسه ، واحيانا

لحيته ، يرجوه ان يعثر له على فص افيون ، يؤكد انه لايحتاج إليه ، إنما هو مضطر بسبب وصول نسيبه من البلدة . يومىء الحلاق مبتسما ، يؤكد انه يعرف تماما بعده عن هذه الأمور ، يقطع أبى الطريق إلى البيت مرتجفا ، حتى انه ليدخل فى عز الشتاء مبتلا بعرقه ، مرتبكا ، يسارع بالنظر عبر النافذة . إذ خيل إليه ان أحدهم يتبعه ، يقعد خالى القرفصاء ، يمسك بالقطعة الضئيلة بين اصبعيه ، يشمها ، فى قدر حبة العدس . يعاود فركها قبل ان يدسها تحت لسانه ، ثم يشرب الشاى على مهل ، بعد قليل يفارقه التوتر ، تلمع عيناه ، يبدو مبتهجا ، راغبا فى الحديث ، ساعيا إلى التواصل برغم حبه الصمت ، وإيثاره الإنزواء ، ها هو فى مدخل البيت بالبلدة ، ها هو يمشى مع ابى ، اين .. لا أدرى ، شعاع للشمس ينفذ من فتحة فى سقف علوى ، ذرات الغبار ، سلم الضوء ، يفضى إلى أين ؟ باستمرار ، دائما ، تستحيل الموجودات ، المحسوسات إلى صور ، بعضها يبقى إلى حين ، ولكنها فى النهاية مندثرة جمعيها ، يتحدث الأزهرى عن رجل مهيب ، محترم عند الشرطة والمسئولين ، حتى ان بلدته نجت من البهدلة عندما قامت الشرطة بحملة لجمع السلاح ، كانوا يأخذون النساء كرهائن فى القرى المجاورة حتى يتم تسليم البنادق والمدافع ، يتم احتجازهن فى النقطة ، عندئذ يبيع الرجل ما أمامه وماوراءه ليشترى قطعة السلاح المطلوبة . حتى يفتدى عرضه ، لكن فى هذه البلدة لم يحدث شىء من التطاول والفضل يرجع إلى هذا الرجل ، عندما بدأت الحملة سعى بنفسه إلى المامور ، استفسر عن المطلوب من قريته ، عاد بالكشف المسلم إليه ، جمع الرجال ، وخيرهم بين تسليم القطع التى أفادت التحريات البوليسية بوجودها وبين بهدلة الحريم ، ولو جرى لهن مكروه فسيبقى الأمر عارا إلى الأبد ، قبل غروب الشمس كان يدخل المركز وبصحبته رجلان يحملان عشر بنادق محلية الصنع ، وثلاثة مدافع رشاشة ، وكمية كبيرة من الطلقات ، هذا الرجل كانوا يلقبونه بالشيخ . متزوج من ابنة عمه ، يقولون انها كانت جميلة جدا ، وانه احبها حبا لاقبله ولابعده ، ولم يكن يرفض لها طلبا ، كسوتها كان يأتى بها من مصر ، والعطور من الخارج ، وبالرغم من تأكيد الأطباء ان القصور منها وليس منه ، وبالرغم من عرضها هى ، والحاحها ، وضغطها ، ان تزوجه بمعرفتها ، حتى يرى ابنا من صلبه ، لكنه رفض تماما ان يأتى إلى البيت بضرة .

كان الرجل الجالس فى المقعد الخلفى طرفا أساسيا فى الحديث ، كان يخبر عن شخص اسمه ابراهيم ، لم يخلف صلاة الفجر فى المسجد قط ، بعد عودته من الجامع تقعد امراته أمام الفرن . تشوى البيض ، تسوى الاقراص ، كان لايتناول الفطائر إلا غارقة فى السمن البلدى السائل ، يغمسها فى القشدة ، ثم يخلط أربع بيضات نيئة بنصف كوب من عسل النحل . من يمكنه الآن تناول إفطار كهذا ؟. أما الغذاء فلم يخلو من البط او الأوز او اللحم ، كان اللحم له مذاق مغاير فى الزمن القديم ، مات الرجل بعد السبعين .

كبس عليه الأكل بعد عشاء ثقيل .

كم إنقضى من الوقت ؟ ، صرت إلى رحيل ، إلى حضور ، إلى وصول ، تأخذنى اغفاءة . يوقظنى ثقل راسى وميله المفاجىء ، صوت العجلات ، النخيل خارج القطار ، الأشجار المولية الى الخلف بسرعة ، لم أدر النقطة التى وصلنا إليها عندما فتحت عينى ، فرأيت بلادا نائية ، وقرى لا اعرفها ، ورجالا من الزمن القديم يعبرون جسورا من أخشاب النخيل ، وبيوتا متضامة ، وشيخا عجوزا يرتدى عمامة خضراء ، وطارقا آخر الليل يقف محدثا جدى ، يتبعه ولا يظهر بعد ذلك ، أرى جدى يقدم حجابا مثلثا عليه خرزة زرقاء ، يطلب من رجل يقعى امامه شاخصا ان يحتفظ به تحت ابطه مادام حيا يسعى ، حافظ الرجل على الحجاب ثلاث سنوات ، ومرة خلع ثيابه ونزل الترعة ، سقط الحجاب فى الماء ، نزل الرجل ولم يطلع ، ابتلعه اليم . احدهم يتحدث عن رجل شجاع ، اعتصم بالجبل وتوحد به وعندما قرر رد اهانة إلى ضابط شرطة تعرض لأهل بيته ، نزل من الجبل . تصدى له فى سوق الناحية المزدحم ، على مسمع ومرأى من الخلق كلهم ، جرده تماما من ملابسه . ثم ذاب كفص الملح فى الماء .

يتلاشى صوت القطار ، يتبدد الحضور المحسوس ، من أرى ؟ ملامح الأزهرى أو الراكب ذا الخاتم ، أو الآخر مرتدى المعطف الأصفر ؟ أم اننى اطالع خالى . وجدى ، والشيخ أبو الفضل ، ومجير الطير . وذلك الشاب الذى رحل فى بعثة ، وبعد ان استقر شهرا واحدا ارسل يطلب اختيار عروس ، زوجة أبيه ابنة مدرس غريب عن البلدة ، سافرت إليه مرتدية زى الفرح ، لولا ذلك ماعرفها فى المطار . كانت من أنجح الزيجات ، أولادهم كبروا الآن ، الأول مهندس ، والثانى ضابط فى سلاح الجو ، والبنت طبيبة ، اما الأب فمحام كبير ، مكتبه يدر آلاف الجنيهات شهريا . رأيت

مدقا ترابيا طويلا وفى نهايته مبنى قديم لايعرف أحد ما بداخله ، يقولون ان عليه رصدا يؤذى من يقربه ، رأيت خالى مبتسما ، ومجير الطير متطلعا إلى السماء ، وسقاء يحمل قربا من الجلد ، رائحتها غريبة ، يدخل مطرقا يملأ الزير الكبير فى مدخل الدار ، يستمر اندفاع القطار ، موغلا فى الغياب ، بينما يقوى حضور البعاد ، فتحت عينى ، محاولا عبثا أن أرى ما يحيطنى منذ بدء سفرى ولكن لم يكن ذلك فى مكنتى ..

●●●

أكتوبر - ١٩٨٨


ملكه

لم يصدق ما رآه فى البداية . عندما طلع السلم على مهل ، وكمن قرب مدخل السطح ، وراح يرقب المحاسب الذى انحنى على السور ، مطلا ، محملقا عبر المنور ، كتم ولم يفصح لامرأته ، فلو أفشى ربما تعرض لفقد مصدر رزقه كبواب وحارس لهذه العمارات الأربع . لقمة العيش أتت به إلى مرسى مطروح ، هذه المنطقة النائية ، البعيدة عن موطنه ، عن بلدته سوهاج . عندما خرج قاصدا الاسكندرية إلى أقاربه فى الميناء ، ولأن الحال كان صعبا ، والأمور معسرة ، فلم يطل به المقام هناك ، والحق أنهم لم يقصروا ، حاولوا مساعدته ، لكن فرص العمل كانت ضيقة ، والحال واقف .

فى أحد الأيام عرض عليه صاحبه أن يقصدا مرسى مطروح للعمل فى مخبز افتتح حديثا هناك ، عزم أمره وتوكل على الله ، غير أن أيامه لم تطل فى المخبز ، إذ جاء بعد غروب يوم جمعة ، شاب فى الثلاثين ، وبعد أن اشترى عشرة أرغفة بلدى ، عرض عليه مباشرة العمل كحارس على أربع عمارات يتم تشييدها قرب البحر ، عمل مزعج ، فيه قرش حلو ، وضمان المستقبل ، فبعد إتمام البناء سيحصل على غرفة فى الطابق الأرضى ، مستقلة ولها دورة مياه ، عندئذ يمكنه أن يأتى بأسرته من الصعيد ، بدلا من إقامتهم فى ناحية وهو فى جهة ، لا يرى امرأته وطفليه إلا فى العيد الكبير ، من السنة إلى السنة .

في اليوم التالي مباشرة رأى المحاسب لأول مرّة ، كان يقف في موقع البناء ، أكداس من الخشب ، وحديد التسليح وتلال من الرمل والزلط ، لم يكن هناك إلا حفرة كبيرة ، كشفت عن الأرض الرملية التي يميل لونها إلى صفرة غامقة .

كان طويلا ، أسمر ، يرتدي قبعة بيضاء ، من القماش ، وقميصا رماديا ، وبنطلونا رياضيا قصيرا يكشف ركبتيه ، وحذاء من الكاوتشوك ، هكذا رآه ، وهكذا أيضا ظل يراه طوال شهور الصيف ، أيضا الجيران والمعارف ، وموظفو الإدارات المختلفة في المحافظة لم يروه إلا هكذا ، لم يبدله إلا مرة واحدة عندما ارتدى الحلة السوداء التي يأتي بها من بلدته ، ذهب بعد صلاة العصر ليوقع عقد شراء الأرض الجديدة المطلة على البحر مباشرة ، والتي أحاطها بسور ، وعلق عليه لافتة تحمل اسمه ، لكنه لم يشرع في البناء بعد .

أيقن أنه ينام في نفس الثياب ، لا يبدلها ولا يغيرها ، خاصة عندما فتح باب الحجرة الخشبية ، ورآه متمددا ، نائما أما الحذاء والجورب فوضعهما قرب المدخل ، أثناء البناء لم يقم في أحد فنادق المدينة ، لم يستأجر شقة مفروشة ، في البداية جهز مأوى له ، صف أكياس الأسمنت ، بسط ألواح الخشب ، وافترش مرتبة قديمة ، وتوسد حقيبته الجلدية ، ثم بنى له المقاول تلك الغرفة الصغيرة من الخشب ، كان يتمدد عند العصر بعد الغذاء ، وينام في ساعة متأخرة ، يجول بين أكوام الرمل والزلط ، وعندما بدأت طوابق المبنى تظهر متكاملة وترتفع ، كان يستيقظ في الليل ، يصعد السقالات الممتدة ، ينتقل هنا وهناك يتقدمه ضوء المصباح اليدوي ، خابطا أعمدة الخرسانة براحة يده ، كأنه يتأكد من متانة البنيان ، كثيرا ما أيقظه وطلب منه أن يرافقه ، إذ خيل إليه أنه سمع صوتا غريبا ، ربما يمضي ساعة في التجوال الحذر هنا أو هناك ، متوقفا بين لحظة وأخرى ، متطلعا بحذر ، مدققا بصره في العتمة ، مطرطقا أذنيه ، فجأة يصيح : « من هناك ؟ » ، ثم يصمت ، لا يتردد في السكون العميق إلا الأصداء البعيدة ، وتدافع الموج الأبدي . قال له أن حوادث السرقة هنا نادرة ، وسكان الناحية معظمهم أعراب ما زالوا على الفطرة ، غير أن المحاسب يزجره قائلا : « اسكت انت لا تعرف الناس .. »

يوميا كان يعد أكياس الأسمنت ، ولو استطاع لأحصى قوالب الطوب الأحمر كلما مرّ بصفوفها المتراصة . لم يهدأ قط ، أشد ما خشيه سرقة شيء ما ، حفنة رمل . بعض المعدات ، كان يتعجل المقاول دائما ،

يستحث العمال ، يصفهم بالكسل ، او يرجوهم بذل الهمة ، فلابد من إنهاء تلك الرحلة حتى يعود إلى عمله بالسعودية ، تاخير يوم واحد يعنى خسارة فادحة بالنسبة له ، أحيانا تنتابه حالة عصبية ، فيزعق قائلا ان الناس لا يعرفون إلى أى حد شقى وتعب ، كل قرش فى هذا البناء فيه عرق وجهد اضعاف قيمته ، ما أن يهدأ ، حتى يلف على العمال والملاحظين يسترضيهم ويعتذر إليهم . ويطلب منهم أن يسامحوه ، فالنقود لايتام وهو مؤتمن عليها ! لم يعرف البواب عدد السنوات التى امضاها فى السعودية ، لكنه من الذين سافروا فى فترة مبكرة . قبل موجة الرحيل إلى بلاد النفط ، يبدو أن هذا تم بعد تخرجه مباشرة من كلية التجارة فى بداية الستينات ، طبعا البواب لم يخض معه فى تفاصيل كهذه ، لكنه علم عنه الكثير من خلال المعايشة ، والملاحظة ، ومن الآخرين ، وان لم يتوقع منه ما رآه فى ذلك المساء فوق السطح ..

فى المنزل المواجه مباشرة يسكن موظف شاب بالعلاقات العامة بالمحافظة ، تعرف إلى المحاسب ، دعاه إلى كوب شاى ، الحقيقة انه كان حذرا فى تلبية الدعوات ، إذ لابد أن يرد بمثلها ، وظروفه كما ردد أحيانا لا تسمح ، فهو أعزب ، وعيشه صعب ، ولا يجيد الطبيخ ، كما انه يؤثر العزلة ، لكن هناك علاقات لابد ان يسعى إليها ، واشخاص يجب التقرب منهم ، مثل هذا الموظف ، وبالفعل قدم إليه مساعدات شتى من خلال موقعه العام والذى يجعله على صلة بمديرى الإدارات كافة ، عرفه على وكيل دائرة الإسكان ، وعلى مدير التصاريح ، والمسئول عن إمداد المدينة بالمياه ، وعلى مقاول الكهرباء الذى كان فى الأصل مدرسا للرياضيات الحديثة بالتربية والتعليم ثم استقال وتفرغ للأعمال الكهربائية ، إضافة إلى خدمات عديدة أخرى ، ولفترة شغل المحاسب بهم طارده كثيرا ، ماذا يبغى الموظف منه ؟ . هل يريد مبلغا من المال ؟ لكنّه لم يلمح لا من بعيد أو من قريب . هل يفكر فى تاجير شقة عنده ؟ ، لكنه صرح مرارا امامه ان العمارات الأربع سيؤجرها فى الصيف فقط للشركات ، والمجموعات ، وسيغلقها بقية شهور السنة ، درس هذا بدقة ، على اية حال . قرر اخذ الحيطة ، والحذر ، والتلويح امام الموظف الشاب بعلاقاته الخاصة مع مسئولين فى أجهزة حساسة ، وبالرغم من مضى سنوات لم يتقدم الموظف خلالها باى تلميح ، إلا انه ظل على حذره وخشيته . قال الموظف فيما بعد لبعض معارفه أن المحاسب قضى فى السعودية خمسة وعشرين سنة كاملة ، منها عشرون متصلة ، لم يخبره المحاسب باى تفاصيل عن هذه

المدة الطويلة ، غير أنه كان يرفع أصبعه محددا بدقة وإيجاز . قضاءه المدة كلها هناك متنقلا بين الرياض ، وأبها ، وجدة ، وأنه آثر الانقطاع تماما حتى يكون نفسه ، والحمد لله على كل شيء ، ثم بدأ يتردد على مصر كل سنة مرة ، حتى استقر وجاء إلى هنا ليبدأ أول مشروعاته . لكنه لم يقطع العلاقة تماما ، قال انهم يحبونه هناك لعمله ودأبه وأمانته ، وبقائه هذه السنوات كلها بدون خطأ واحد . كان يحمل بطاقة خاصة تيسر له العودة في كل سنة لمدة محددة ، ثلاثة أشهر . نظم أموره بحيث يسافر قبل بدء موسم الحج بشهر ويعود بعده بشهرين .

ما طبيعة عمله ؟ في أي المجالات بذل جهده ؟ لا أحد يدري ، كما أنه لم يطلع إنسانا ، لم يكن يتحدث عن نفسه بافاضة ، دائما أبدى الحذر ، فأي إنسان يسعى إليه ، إنما يريد قضاء حاجة منه ، هذا ما أعتقده ، وهذا ما قاله صراحة للبواب ذات ليلة وهو يقف أمام العمارات الأربع بعد اكتمالها ، قبل بدء موسم الصيف .

أحد سائقي عربات الأجرة ، وكان يعمل بانتظام على الخط بين مصر وليبيا ، وبعد إغلاق الحدود ، بدأ العمل بين مرسى مطروح ، والاسكندرية ، هذا السائق اعتاد السفر إلى السعودية للعمل خلال موسم الحج ، قال وأكد لأصحابه أثناء جلوسه بالمقهى الكبير في السوق الرئيسي ، أنه شاهد المحاسب الذي ينادونه هنا بالبك يعمل في شركة نقل ، وانه كان يقف في الساحة الرئيسية للمدينة المنورة ، بعد صلاة الفجر وحتى صلاة العشاء ، لا ينتقل ، ولا يروح هنا أو هناك . يرتدي جلبابا أبيض ، يغطي رأسه بغترة ، يعصبها بعقال ، يتحدث لهجة بدوية ، لكن السائقين وهم خليط من فلسطينيين ولبنانيين وأفغان ومصريين ، كانوا يعرفون أصله وفصله ، كان يمسك كشفا بالحركة ، ويشرف على ركوب الحجاج . وصعودهم ، وترتيب أمتعتهم ، حتى إذا اكتملت العربة ، دوّن اسم السائق ، ورقمها ، وعدد ركابها ووجهتها . أذن لها بالمضي .

في إحدى المرات قال المحاسب انه عمل في شركة اقتصادية كبرى ، بدأ مع صاحبها عندما كانت لا تضم إلا خمسة أشخاص ، تركها وهي من أكبر شركات المملكة ، لها فروع في العالم العربي ، وأوربا .

مرة أخرى قال انه لف السعودية مدينة ، مدينة ، ومضى إلى انحاء بعيدة في البادية ، وأنه اتفق قبل عودته النهائية مع مؤسسة معروفة على المجيء خلال موسم الحج ، لاحتياجهم إلى خبرته ، ثم يعود إلى مصر ،

لم يذكر شيئا واضحا عن عمله هذا . لكنه العام الماضى لم يسافر ، جاء موسم الحج مع قرب انتهاء الصيف ، بدا مهموما ، كدرا ، قلقا . يستثار عند أى بادرة ، وكثيرا ما يرتفع صوته غاضبا ، طالبا من الخلق أن يتركوه في حاله . وحدث أن وصل أحد المصطافين ، كان مدرسا معارا للعمل فى المملكة ، أبدى المحاسب اهتمامه به ، سأله عن الأحوال هناك ، عن الرياض ، عن الشوارع الجديدة التى شقت ، عن المعالم التى تغيرت ، عن المدينة المنورة والمبانى التى هدمت لتوسيع الحرم النبوى المبارك ، والدكاكين التى أزيلت ، والفنادق القديمة التى اختفت ، والفندق الكبير الذى بدأ بناؤه العام الماضى ، ثم سأل مدققا عن سعر صرف الريال ، والدولار ، والجنيه المصرى ، ثم يختتم قعدته الليلية مع المدرس بآهة حسرى ..

— كان المفروض أن أسافر .. لكن أولاد الحرام ..

بعد سفر المدرس وأسرته نزل به كمد ، صار قليل الكلام ، كثير العبوس ، صامتا ، شاردا بعينيه على الدوام ، مما دعى البواب إلى أن يقول له ..

— يا رجل وحد الله .. لا أحد يعرف أين الخير ؟

لم ينس فيما بعد تطلعه إليه مغتاظا ، لكنه لم ينهره ، إنما قال شاكيا ..

— عارف ثلاثة أشهر هناك كم تساوى .. كم يا جاهل ؟

يعنى دورا جديدا كان يمكن أن أضيفه إلى هذا ..

أشار إلى المبنى الرئيسى الواقع على يمين الداخل ، ثم ردد بعد صمت قصير ..

— لكن ليس هذا ما يكوينى .. المهم حنينى إليه ، إلى الحبيب المصطفى ..

رفع يديه إلى السماء .

— انتقم لى منهم .. انتقم لى من أولاد الحرام ..

بقى أياما يجلس بمفرده ، ظاهر الغم ، عازفا عن الخلق ، يمر به البواب ، يطلب منه أن يذكر الله ، أن يصلى على الحبيب ، يشير إلى الفراغ ، منبها إياه إلى الهواء النقى ، العذب ، هل هناك فى الدنيا أجمل من بحر مطروح ؟ غير أنه يلوح بيده مهموما .

لم ينزل البحر قط ، لم يمش بحذاء الشاطىء ، لم يجلس بأى مقهى ، لا مطل على البحر ولا فى الشوارع الداخلية ، طوال فترة البناء أقام فى هذه الزاوية الصغيرة لم يغيرها . فى الصباح كان البواب يحمل الدورق

ليصب المياه عندما يغسل وجهه . يمسك الصابونة حذرا ، يحركها بين يديه ، ثم يضعها فى ورق معدنى قبل ان يزيح الرغاوى عن وجهه ، على فترات متباعدة ، كل أربعة أو خمسة أيام يطلب وعاء مملوءا ، يقف داخل الزاوية ليستحم ، بينما يقف البواب على مقربة حتى لا يدنو أحد فيرى صاحب الملك عاريا كما ولدته أمه ، لم يستغرق البناء طويلا ، الحق انه بذل مجهودا ، كان يمضى إلى الجهات المعنية عدة مرات يوميا ، يتردد على متعهد توريد الزلط ، والرمل ، ومقاول الأدوات الصحية ، يقول دائما ان أى تأخير معناه تعطيل لدورة رأس المال ، أى خسارة حقيقية . بعد ما يقرب من عام اكتمل بناء العمارات اثنتان إلى اليسار ، اثنتان إلى اليمين ، يتوسطهما ممر عرضه ثلاثة أمتار ، مبلط ، يحيط بهم سور متوسط الارتفاع ، يتخلله باب خشبى فوقه لوحة زرقاء كتب عليها بحروف بيضاء « ادخلوها بسلام آمنين » ، فوق السور علق أربع لافتات خشبية ، كتب على كل منها ، « مصيف السعادة ـ شقق فاخرة بالكماليات ـ تليفون ... » ، إلى يمين الداخل ، عند ناصية العمارة الأولى . يوجد المكتب ، يشبه الدكان ، إذ يغلق بأبواب من الصاج المضلع ، داخله أريكة جلدية قديمة ، ومنضدة فوقها تليفون أمكنه الحصول عليه بعد وساطات عديدة ، لعب فيها موظف العلاقات العامة دورا أساسيا . من موقعه هذا يمكنه رؤية الداخل والخارج . ومتابعة المارة . يغلق الباب بمجرد خروجه ، حتى إذا غاب عدة دقائق .

بعد تمام البناء والتشطيب ، تسلم كافة المفاتيح ، مفاتيح الأبواب الرئيسية ، مفاتيح الغرف ، من كل واحد نسختين ، بدا واثقا ، سعيدا ، مستبشرا ، نصحه البواب أن يذبح عجلا عند العتبة ، ويفرق لحمه على الغلابة ، لكنه ابى ، قال إن هذا مكلف ولا داعى له ، لكنه فى اليوم نفسه أخرج حزمة من أعواد البخور ، وزعها على الشقق ، أشعلها وقال ان هذا أكثر بركة .

تتكون كل عمارة من خمسة طوابق ، عدا الأولى إلى يمين الداخل ، أدوارها ستة ، فى كل طابق ست شقق ، كل شقة حجرتان وصالة ، ومطبخ صغير ، ودورة مياه افرنجية ، فرشها بأثاث متشابه ، اشتراه من تاجر الموبيليا الوحيد . كما اشترى أكداسا من الملاءات ، وأكياس الوسائد ، ومراتب إضافية . وعندما أبدى البواب ملاحظة حول كثرة العدد ، قال ان كل شقة ستحتاج إلى طقمين ، واحد للفرش ، والثانى لتغييره بمجرد سفر الفوج ، وما زاد عن ذلك سيتم تخزينه . الشىء الذى ثمنه قرش واحد

اليوم ، سيصبح غدا بقرشين ، وبعد غد بثلاثة ، اما ما يفقد قيمته باستمرار فالجنيه ذاته .

البواب ابدى ملاحظة اخرى بعد خجل وتردد ، إذ انتظر طوال مدة البناء ، نام فى العراء صيفا وشتاءً ، على امل سكنه بالغرفة التى تقع فى نهاية الممر والملحق بها دورة مياه مستقلة . هذه الغرفة جعلته يتحمل اشياء عديدة ، ابسطها طول غربته ، وانقطاعه عن اسرته ، المحاسب وعده أن الغرفة من نصيبه ، انه بحاجة إليها ، لتلمه هو وعياله ، هل نسى وعده ؟ لكنه فوجىء باستخدامها كمخزن للملاءات والوسائد الزائدة .

لوح المحاسب بيده مهونا ، مخففا الأمر ، ما الداعى للعجلة ؟ ، شهور الصيف ستنقضى بسرعة ، بعدها ستصبح العمارات الأربع خلوية ، يمكنه فتح اى شقة والنوم فيها ، اليست بيده المفاتيح كلها ؟

البواب لم يسكت ، إنما جادله قائلا إن الفرش له مكان فى الطابق تحت الأرضى من العمارة الثالثة ، ان غربته طالت ، وتركه عائلته بعيدا أمر لا يرضى الله ، ولا تقبله ملة ، ولا يجوز فى اى شرع او دين ، غربته طالت ، ويتمنى لم الشمل .

المحاسب قال ان الطابق تحت الأرضى به بقايا المواد المستخدمة فى البناء ، براميل فارغة ، أسلاك الكهرباء ، اكياس « مونة » البياض ، هل يرمى هذا كله فى الشارع ؟ ، فليات له بمن يشترى هذه البقايا ، وليعد المكان ، ثم انه سيشترى غسالة كهربائية حديثة وينوى وضعها هناك ، والا كيف واين سيتم تنظيف المفارش والبياضات ؟

قال البواب انه ممكن الاحتفاظ بالغسالة فى الغرفة ، هنا زعق المحاسب ..

— وتديرها على كيفك ..

لم يخف البواب ضيقه ، نتر بيده ، ابتعد ، وقف المحاسب بمفرده متصورا ان الموضوع انتهى ، غير أن البواب مضى إلى موظف العلاقات العامة ، لطالما ارتاح إليه ، وصفه بانه ابن حلال ، طيب ، وكريم ، امراته لا تنساه يوم الطبيخ ، ترسل إليه طبقا ورغيفين ، وربما شريحة بطيخ ، او عنقود عنب ، أو قطعة بسبوسة ، اعتاد هو أن يقضى حوائجهما خفية ، قبل ذهابه إلى السوق يمر بالبيت ، يسأل عما إذا كانا فى حاجة إلى ارغفة من الفرن ، أو اى شىء آخر ؟ . بدا راغبا فى الخدمة ، الأسرة طيبة ، لا يسمع لأفرادها صوت . دائما فى حالهم ، حتى الولد والبنت لا يلعبان فى الشارع ولا يثيران اى ضجيج ، وكثيرا ما صاح محذرا من

الجانب الآخر إذا رأى البنت الصغيرة تشب برأسها عبر حاجز الشرفة . إذا طلبت منه الزوجة أمرا أو قضاء حاجة سعى مبتهجا ، خفيفا ، راضيا ، وإذا طلب منه المحاسب شيئا فانه يتباطأ ، وإذا استطاع إبداء الحجج أو الأعذار فانه لا يتردد ، مع ان المحاسب صاحب المِلك ويمكنه أن يلحق به الضرر . لكن شعورا خفيا ترسخ لديه ان المحاسب فى حاجة إليه ، ولن يمكنه الاستغناء عنه . والحقيقة أن المحاسب وثق به ، تحدث دائما مع القوم الذين يزورونه للاتفاق على قدوم أفواج المصطافين عن أمانه البواب ، وإخلاصه ، وخوفه الشديد من الحرام .

هذه الثقة لم تأت بين يوم وليلة ، لكنها نمت عبر المدة الطويلة ، منذ أن كان البناء مجرد خطوط بيضاء فوق الأرض ، ثم حفرة ، ثم أساسات متقاطعة . حتى ارتفعت الطوابق واحدا بعد الآخر ، وعندما عرض عليه مقاول البياض اكرامية سخية راوده شك ، فأبلغ المحاسب ، وعندما عثر على ورقتين فئة العشرة جنيهات فى الممر . قدمهما إليه ، قائلا ، « عد فلوسك » ، أبدى تأثرا . دس النقود فى جيبه ، لم يقل صراحة إذا كان المبلغ من نقوده . أو يمت إلى شخص آخر ، ردد « يا سلام على الأمانة » ، قال البواب « الحرام ما يعمر » ، كان يعرف الحسابات الخاصة بالمقاولين ، والعمال ، ومرفق المياه الذى تم الاتفاق معه على تزويد العمارات بماء الشرب ، ومرفق الصرف الصحى ، واقساط الأثاث المستحقة للتاجر .

أصعب الأوقات عند الدفع ، يؤجل خروج القرش من جيبه حتى آخر لحظة ممكنة ، يجادل ، يثير العقبات ، يدقق ، يراجع الكشوف عدة مرات ، ثم يخرج آلة حاسبة صغيرة من جيبه ، يمسحها جيدا ، ثم يضغط الأزرار الصغيرة العديدة . ثم يتأكد من صحة التوقيعات ، يضاهى ، يقارن ، ينظر عن قرب ، يحدق بدون منظار ..

عند الدفع ، يا ساتر على منظره لحظة عده النقود ، أولا ، يقعد ، لا يمكنه الدفع أبدا واقفا ، حتى لو فى صالة بنك ، يجلس على كرسى ، على حجر ، على الرصيف إذا لزم الأمر . ثم يخرج حافظته الجلدية ، يبل طرف أصابعه ، يخرج ورقة ، يفرك طرفها خوفا من التصاقها بأخرى ، ثم يمد ذراعا مترددة ، ورقة ، ورقة ، حتى لو كان المبلغ ألفا أو ألفين ، أحيانا يرفع العشرة الجنيها ، أو العشرين إلى الضوء ليرى العلامة المائية ، ربما يطلب تغيير واحدة بأخرى .

عند تسلمه مبلغ ما يبدو مرتاحا ، مستمتعا ، كأنه على وشك الشروع فى المضاجعة .

فى اليوم الذى يسدد فيه مبلغا ، أو يتسلم مقدارا من النقود ، يمكن رؤيته تحت المصباح مباشرة ، يدون أرقاما وعلامات ، ثم يستدير متمهلا إلى الخزانة الحديدية ، لا تفتح إلا بعد إدارة أرقام معينة لا يعرفها إلا هو .

بعد أن يقضى ساعة أو أكثر فى التدوين ، والترقيم ، وإجراء اتصالات هاتفية بصوت هامس ، يخرج متعبا ، يقف أمام المكتب فاردا طوله ، واذ يلمح حنفى يقول له ..

ـــ اعمل لنا كوبين شاى ..

المقهى لا يذهب إليه ، والشاى لا يشربه إلا من البواب ، وكثيرا ما تغاضى عن تلميحاته فيما يتعلق بالمشروبات التى يقدمها للسائقين . ضاق البواب حتى أوشك على هجاج إكيد ، أرض الله واسعة ، والرزق هنا أو هناك ، كل البلاد تتساوى بعد مفارقة قريته فى الصعيد ، ما جعله يتحمل ويصبر ، أمله فى هذه الغرفة ، وعندما أبدى المحاسب المماطلة أصبح قاب قوسين من مغادرته المدينة كلها ، وحتى لا يندم لجأ إلى جارهم الشاب الطيب موظف العلاقات العامة بالمحافظة ، حكى الأمر من بدايته ، كيف تحمل المشاق ، ونام فى الطل شهورا على أن تلمه هذه الغرفة . أن يرسل فى استدعاء أسرته من البلدة . منذ مفارقته لهم ، وهو يحلم بحجرة تجمعهم معا ، لها باب يغلق عليهم ، ودورة مياه مستقلة ، ثم ان العبء ثقيل ، انه ينظف سلالم العمارات الأربع يوميا ، ويمسحها مرة كل اسبوع ، كذا الممر ، يضع المفارش فى الغسالة وينشرها، يقضى بعض الحوائج . أمور المحاسب نفسه فى حاجة إلى اثنين ، وليس شخص واحد ، طوال النهار يبعث به إلى هذا ، إلى ذاك ، وفوق هذا كله عليه الانتباه إلى مدخل البيوت حتى لا يقترب أحد الغرباء ، حمل ثقيل ، لكنه صبر ، على أمل تسلمه الغرفة التى وعده بها ، وهاهو الآن يماطل ، يطلب منه النوم فى العراء ، بين السور والمبانى ، هل كتب عليه العيش عمره كله فى الخلاء ، هو فى ناحية ، وامرأته وأطفاله فى ناحية ، الحق أن موظف العلاقات العامة أصغى مطولا ، بدا عليه التأثير ، قام على الفور متجها إلى المحاسب ، قابله هذا حذرا ، متوجسا ، مع انه زاره فى بيته ، وأكل عنده مرتين ، وتوسط له مرارا فى المحافظة .

قعد إلى جواره فوق الدكة الخشبية التى صنعها النجار للبواب من بقايا أخشاب البناء . قال موظف العلاقات أنه يقصده لأول مرة فى أمر ويرجو منه الا يرده خائبا .

تزايد حذر المحاسب ، غاصت رقبته بين كتفيه ، تداخل في بعضه ، تطلع إليه بعينين ضيقتين ..

— خيرا إن شاء الله ..

قال موظف العلاقات العامة ، ان البواب هو رجله بلا شك ، وفي غيابه يبدو حريصا على الملك اكثر من صاحبه ، حتى انه تشاجر مرة مع سائق عربة نقل بمقطورة أوقف سيارته امام المدخل ، كما انه يطارد الأطفال الذين يحاولون تسلق السور ..

— هو .. اشتكى لك ؟

ابدا ، ابدا ، لكنه فهم منه حاجته إلى اسرته ، وهذا لن يتم إلا إذا نفذ المحاسب وعده . الم يخصص حجرة له ؟

لوح بيده مهونا ، قال ان هذا البواب ثرثار ، تحدث معه اكثر من مرة . الحجرة مشيدة خصيصا له ، لكنه قفل لا يريد أن يفهم ، المصيف لا يستمر إلا اربعة شهور ، اربعة ونصف على الأكثر ، بعدها يمكنه ان يتمدد في الملك كله ، سيصبح بمفرده ، يفتح اى شقة ويدخل ، عليه تحمل شهور الصيف لا غير ..

تساءل الموظف :

— في العراء ؟

لا ، لا ، اشار إلى الممر الضيق الذى يفصل بين السور والبناء ، سيجهز له مرقدا مؤقتا ، ماذا يفعل .. الاتفاق مع الشركات اتسع بحيث اصبح عدد الأفواج القادمة اكثر مما قدر ..

— هذه الحجرة الصغيرة سوف تضيف إلى دخل المشروع الف جنيه في الشهر .. عرضوا تاجيرها في ايام الذروة بخمسين .. ويمكن أن تصل إلى خمسة وسبعين ..

قال الموظف ان البواب لم يقصر معه ، هو ائتمنه على الملك كله ، ليس من المعقول أن يبخل عليه بحجرة ، طبعا ، يصدق كل كلمة قالها حول تسكينه في الغرفة بعد الصيف ، لكن الرجل يريد ان يحضر أسرته ، وعلى اى حال ، فعندما تتوفر له الراحة ، سياخذ منه اكثر .. عملية اقتصادية ايضا ..

— يعنى اضحى بالف جنيه عشانه ؟ ، انا شخصيا لن انام في شقتي ، رتبت امورى في المكتب ، لكن اخسر الف جنيه عشان خاطر عيونه ، يا سلام .. نجوم الظهر اقرب له ..

قام الموظف يائسا ، متخليا عن هدوئه ، ولباقته التى اكتسبها من ممارسته الطويلة كموظف علاقات عامة ، استدار مرددا ..

— أول طلب أقصدك فيه وتكسفنى .
— أطلب شيئا معقولا .. لكن طلبك ثمنه ألف جنيه فى الشهر ..
فى الليلة نفسها جاء البواب صامتا ، لملم خلقاته ، صرها فى بقجة كبيرة ، وقف أمام المِلْك ، صاح بأعلى صوته انه لن يكسر لقمة خبز أخرى فى هذه البلدة ، انه راحل إلى أرض الله الواسعة ، إلى ناس يقدرون قيمته ، يوفون بوعودهم ، ويحترمون كلمتهم ..
اختفى المحاسب تماما ، كان فى مكان ما داخل العمارات ، وعندما بدأ البواب يخطو مبتعدا كان آخر ما سمع منه .
— حسبى الله ونعم الوكيل ..
تابعه الموظف وزوجته من الشرفة .. صامتين ، متعجبين ، لكن فى الليلة نفسها حدث مالم يتوقعه أحدهما ، فبعد انصراف البواب بساعة تقريبا ، ظهر المحاسب امام العمارات مرتديا البنطلون القصير ، والقميص الأبيض وغطاء الرأس ، والحذاء الرياضى ، رفع رأسه باتجاه شقة الموظف ، لم ير أحدا . لكن النافذة كانت مفتوحة ، وصوت التليفزيون يسمع بوضوح ، بخطى سريعة قطع الشارع ، مضى إلى موقف عربات الأجرة ، إلى الميدان الرئيسى ، إلى مقهى الصعايدة ، إلى محطة القطار ، فوق الرصيف يقعد حنفى فوق الدكة الرخامية منتظرا قطار الواحدة صباحا ، المتجه إلى الاسكندرية ، وقف أمامه ملامسا خصره بيده ، قال ..
— قـم معى ..
تطلع إليه صامتا .
— والغــرفة ؟
بحلق البواب فى اليد الممدودة إليه بالمفاتيح ، فيما بعد قال للموظف انه لقى نفسه أمام شخص آخر تماما .
— مبروك عليك يا عم .. ما دمت لا تريد أن تفهم ..
أبدى البواب همة عالية فى تنظيف الحجرة ، وإعدادها لقدوم أسرته ، اشترى بالتقسيط كنبة بلدى ، يمكن استخدامها كمقعد وسرير ، وطشتا من الألمنيوم ، وأطباقا ، وموقدا ، ومصباحا غازيا تحسبا لانقطاع الكهرباء .
وافق المحاسب على تغيبه ثلاثة أيام لا غير ، حذره من التأخير ، أول الأفواج سيصل فى بداية الأسبوع القادم ، وقع عدة اتفاقيات مع شركات صباغى البيضا ، وغزل المحلة ، ونسيج كفر الدوار ، ومؤسسة مطاحن الشمال ، ومصلحة الارصاد الجوية ، مدة الفوج أسبوع . الوصول أيام

الجمع والأحاد والثلاثاء ، يتم تسديد القيمة كاملة ، ويجرى الحساب بالنسبة للشخص الواحد فإذا جاءت عائلة خصص لها شقة مع الأخذ فى الاعتبار عدد الأفراد ، الحق انه شغل وقتا طويلا ، وقضى ليالى عديدة يدون أرقاما ، ويجرى عمليات طرح وضرب ، وقسمة وجمع ، شَطب وكتب ، حذف وأضاف ، دوّن العديد من الملاحظات ، فكر وخطط فى أفضل وسيلة لاستغلال المِلْك . التأجير الدائم لأهالى المحافظة أو العاملين بها غير اقتصادى ، ثم انه من المتعذر تأجير كافة الشقق مفروشة طوال السنة ، يا سلام .. يا سلام لو أن شركة كبيرة تقدمت ، وطلبت تأجير الشقق طوال الاثنى عشر شهرا لموظفيها ، لكن أين هذه الشركة فى تلك المحافظة النائية ؟ أين ؟ ، يعرف مهندسا عمل فى السعودية ، عرفه عن قرب ، عاد إلى القاهرة واشترى مساحة من الأرض فى ضاحية المعادى ، شيد عمارة من خمسة طوابق ، كل طابق شقة واحدة لا غير ، لكنها تدر له مبلغا هائلا ، لماذا ؟ لأنه أجرها إلى شركة بترول أمريكية ، والإيجار يدفع مقدما لمدة سنة ، أى حظ ؟ .

لكن الأراضى فى المعادى مرتفعة السعر ، هنا الأسعار رخيصة جدا ، ثم ان شهور المصيف ستدر ربحا يتجاوز بكثير الإيجار السنوى لو أنه أجر الشقق كلها خالية ، اما إذا رزقه الله بمستاجر فى الشتاء فهذا خير وبركة ، ترك عند البواب عقودا بيضاء ، وحدد له أسعارا ، وشرح له ما يجب أن يقوم به أثناء غيابه ، انه يثق به تماما ، لهذا ضحى بتلك الغرفة .

نجح فى تجنب سماسرة المدينة حتى لا يدفع عمولات ، لكنه لم يبادرهم بالجفوة ، إنما تعرف إليهم. وسعى إلى بعضهم ، هؤلاء هم من سيأتون إليه بزبائن الشتاء ، والخريف أيضا ، ومما أسعده كثيرا اكتشافه أن صاحب فندق الخليج الأخضر من بلدة مجاورة لقريته ، اتفقا على التنسيق وتبادل المنفعة ، إذا زاد العدد واكتمل فى الفندق يمكنه تدبير مكان فى العمارة للنزلاء ، وإذا حدث العكس يمكن للفندق إيواء الزبائن ، ثم تسوى الأمور فيما بعد .

قبل مجىء أول الأفواج بثلاث ليال ، وصل البواب ، حاملا على ابطه ابنه الصغير ، وراءه امرأته الشابة ، سمراء ، ممتلئة ، رآهم موظف العلاقات العامة لحظة وصولهم ، تبادلا التحية ، بعد دقائق طرق البواب الباب ، صافح الموظف بحرارة ، قدم إليه فطيرا ، وجبنا حلوما وثلاث حمامات مذبوحة .

قالت الزوجة ان هذا تعب لا مبرر له ، قال إن خيرهم سابق ، وهنا تساءلت عما إذا كانت امرأته فى حاجة إلى شيء ، الحت عليه ، يجب أن تجيء إلى زيارتها ، انها غريبة ، وهي غريبة أيضا .

قال البواب خجلا ، وهل من المعقول أن تعلو العين على الحاجب ، إلا أن الزوجة طلبت منه الانتظار . دخلت وعادت تحمل حلة من الألمنيوم ومقلاة بيض ذات يد طويلة مكسوة بالخشب ، قالت انها فى غنى عنهما ..

نزل مرددا ان الدنيا ما تزال بخير ، وعلى الرغم من عزمه الا يقدم إلى المحاسب لقمة واحدة ، إلا أنه عندما تذكر وقفته ، ونظراته إلى القفتين ، ادركته رجفة ، عينه وحشة ، وربما أصاب الولد أذى إذا لم يلقمه شيئا مما أتى به . قدم إليه نصف فطيرة ، وقطعة لحم حمراء ، ابتسم فرحا ، قال انه الخير الحقيقى ، مذاق اللحم مختلف ، بسط صحيفة قديمة فوق المكتب ، التهمه بشهية ، وأطال مضغ اللحم ، ثم طلب كوبا من الشاى الثقيل حتى تكتمل المتعة .

لم ينس البواب قط منظر فكيه وهما يمضغان اللحم ، يثير الضيق ، لم يحدث أن اشترى « زفرا » ، اى زفر ، لا لحم ولا طير ، طعامه الدائم قطعة من الجبن ورغيفان ، عنده علبة حلاوة طحينية ، يفتحها مرتين فى اليوم ، يحف منها رقيقة هشة . يستحلبها على مهل ، لا يفتح فمه طوال مضغها ، أما الشاى فيشربه مع البواب .

بعد وصول الزوجة من الصعيد ، بدا متطلعا ، منتظرا ، وعندما قال مبتسما ..

— البيت كله رائحته تقلية ..

تجاهل البواب إشارته ، لم يفته التلميح ، كان ممكنا تقديم طبق من الملوخية التى فاح عبقها فى المدخل ، لكنه احجم ، عند الظهيرة تراجع متمهلا ، أغلق الباب . قعد إلى الطبلية والولد فوق حجره . وعندما طرق الباب ، أشار إلى زوجته أن تتوارى ، قال مجاملا ..

— تفضل معنا ..

قال واللوم باد فى صوته ..

— انت لم تسال فينا يا عم ..

اضطر إلى الالتفات .

— طبق للبك .. ورغيف يا بنت !

صاح المحاسب ، مسمعا الزوجة ..

— لا داعى للخبز .. عندى أرغفة من أمس !

في العصر أعاد الطبق فارغا ، ممسوحا ، وليس مغسولا ، قال انه لم يذق ملوخية كهذه ابدا ، ضحك ..

— تذكرنا بعد ذلك ولا تنس ..

هذا ما حاول البواب تفاديه ، لكن الأمر جرى وكانه مقدر مع وصول امراته وعياله ، فبمجرد فوح رائحة الطبيخ ، يرفع وجهه متشمما ، متسائلا ..

— يا ترى المدام طابّخة ملوخية ؟

اضطر مرغما إلى إضافة فرد بالغ ، شره إلى اسرته في ايام الطبيخ ، او عند قلي الفطائر ، احيانا ياتي المحاسب بنصف كيلو باذنجان ، أو ربع كيلو بطاطس ، يعطيه له ، راجيا ان تقوم المدام بإعداده ، انه مشغول دائما ، كلن ياتي بما يكفيه بالكاد ، يستعيذ البواب بالله ، عندما يحمل ثمرة باذنجان واحدة ، أو ثلاث حبات بطاطس ، ويرجو من امراته قليها للبك ، حتى الزيت لم يات به . وطبعا الفلفل ، والملح ، والبهارات .

ثمة امر آخر اقلقه ، لكنه لم يفض به لأى شخص ، حتى اقرب الناس إليه في هذه المدينة النائية ، موظف العلاقات العامة ، انه تلصص بصر المحاسب عند ظهور امراته الشابة ، لكم استعاد هيئته فيما بعد ، عقب ما رآه فوق السطح .

خيل إليه حينئذ ، وتاكد فيما بعد انه يقترب في عمق الليالي من الغرفة ، يقعي بجوار الباب ، او تحت النافذة إذا عجز عن النفاذ ببصره في ليلة حارة يتركان فيها مصراعي النافذة مواربين ، حرص على تنبيه امراته ان تغلق الباب جيدا عند يقلئها بمفردها ، وإسدال الستائر ، الا تمسح البلاط إلا والباب مغلق ، قبل وصول المصطافين ، وبعد ذهابهم ، لا يكون في العمارات الأربع إلا هي وطفله البكر .

لم يفته ايضا متابعته للمارات عبر الطريق ، عندما يكون بمفرده في مكتبه ذى الواجهة الزجاجية ، احيانا يقوم ويخرج ، يستند إلى الجدار ، يقدم ساقا ، يؤخر اخرى ، يثبت بصره او يهرول بنظراته إثر ردفين ممتلئين يتجهان صعدا حتى يغيبا تماما عن دائرة رؤيته ، بينما يده مدسوسة في جيب بنطلونه القصير ، اوشك على سؤاله دائما ، لماذا لم يتزوج ؟ ، لكنه آثر الصمت ، وان لم يتخل عن حذره ، ولم يفارقه ضيقه بسبب نظرات الجوع الشره المسددة بإتقان وخفية إلى امراته في لحيظات ظهورها ، إلا ان مجيء المصطافين وبدء الموسم اتى بمشاغل جديدة ، بدأ معه كده وتعبه .. طبعا لم ينس اول فوج ..

أمام الباب الرئيسى الذى يتوسط السور الخارجى وقف المحاسبَ لحظة وصول أربع عربات كبيرة ، غادرها رجال ونساء واطفال ، تصاعد ضجيج القادمين ، صيحات الأطفال ، وتسلؤلات عن الحقائب التى بدأ إنزالها من الأبواب الجانبية ورصها فى الطريق ، صخب ، لكن تسوده بهجة . انهم قادمون إلى مصيف ، مشهد اعتاد الجيران رؤيته عند الوصول ، وعند الرحيل ..

يقف عند المدخل ، عاقدا يديه أمام صدره ، متطلعا إلى الجميع ، منتظرا لحظة توجههم نحوه ، وعندئذ رفع يده ، باسطا أصابعه ، طالبا منهم الهدوء ، وراءه وقف البواب ، فى شرفة البيت المقابل وقفت زوجة موظف العلاقات وشقيقتها التى نزلت عليها ضيفة عدة أسابيع فى الصيف . وعندما هدأ الضجيج ، قال بصوت خطابى ، مرتفع ، انه يرحب بهم فى المصيف الجميل ، وانه وفر لهم كافة وسائل الراحة فى شققه الخاصة ، الفاخرة ، المزودة بالكماليات ، انه يقدم إليهم نفسه ، فهو صاحب هذا المِلْك ، وهو فى خدمتهم ، إقامته هنا لمدة أربع وعشرين ساعة ، مستعد لتلقى أى شكوى ، لكن هناك ملاحظات ضرورية لابد من الاصغاء إليها اهمها . ضرورة الحرص على كل نقطة مياه . يرجوهم عدم الإسراف ، الا ينسوا الصنابير مفتوحة . المياه هنا مشكلة فى المحافظة كلها ، سيوفر لهم احتياجاتهم لمدة ساعتين فى الصباح ، وثلاث ساعات بعد الظهر ، طبعا لابد من الاستحمام لإزالة ملوحة البحر .

ضحك مبتسما ، جاوبه البعض ..

الأمر الثانى ، ضرورة الحفاظ على الأثاث ، كل شىء مرتفع السعر ، وأى قطعة سيتم إتلافها لابد من دفع تعويض عنها .

ثالثا ، لابد من الانتباه إلى الكهرباء ، يرجوهم الا يتركوا مصابيح الشقق مضاءة طوال الليل ، أما انوار السلالم فستبقى حتى الفجر .

رابعا ، سيتم تغيير أنابيب البوتاجاز فى المواعيد المقررة .. المحافظة بعيدة يا اخوان ، آخر شىء ، عدم إلقاء الزبالة فوق السلالم أو من المناور ، سيوزع عليهم أكياسا من البلاستيك على كل شقة ، وعند الذهاب إلى البحر يرجو وضعها بجوار السور الخارجى ، وسيتم إزالتها أولا بأول ..

بعد أن فرغ ، أصغى إلى استفسارات شتى ، بعضها حول جهة البحر . وافضل الأماكن للنزول ، الحق .. انه أجاب بالتفصيل ، اشار إلى ناحية الشاطىء ، ذكر اسعار النقل بواسطة العربات الصغيرة التى تجرها الحمير ..

طلب تقدم العائلات أولا ، ثم بدأ يدون عدد أفراد كل منها فى دفتر متوسط الحجم . أما الموظفون والعمال العزاب ، فخصص لهم العمارة المطلة على الطريق الجانبى ، وعندما لمح طبلة وآلات موسيقية أخرى ، حذر من إحداث ضجيج بعد الثانية عشرة ، ثم طلب الانفراد بالمشرفين على الفوج ، وهو من سيتعامل معهم . سلم كل منهم المفاتيح لتوزيعها بمعرفتهم ..

طوال الأيام التالية كان المحاسب يرى فى مختلف أوقات النهار ، متجولا هنا وهناك ، مرتديا الزى الرياضى ، وغطاء الرأس ، بين الحين والحين يدخل المكتب حيث يرفع سماعة الهاتف ، يتحدث بعض الوقت ، وفى الغالب يمسك قلما ، ويدون أرقاما . سمح للمصطافين استخدام الهاتف ، مقابل جنيه واحد للمكالمة ، الأجر الرسمى ثلاثون قرشا ، لكنه أخبر موظف العلاقات العامة أن الكثيرين لا يفضلون الذهاب إلى مكتب البريد ، وانتظار الدور ، من هنا يمكن لكل منهم الاتصال مباشرة بمحافظته أو بلدته بواسطة النداء الآلى ..

لاحظ البواب مكوثه اثناء اتصال أحدهم ، وقوفه متظاهرا بالنظر إلى الساعة لضبط مدة الدقائق الثلاث المسموح بها والمحددة للمكالمة ، ولكنه وثق انه يتصنت ، وان لم يتصور أبدا ما رآه فيما بعد ، فوق السطح ، فى العتمة !

لا ينقطع الضجيج طوال اليوم ، يتزايد خاصة فى الصباح ، قبل الخروج إلى البحر ، وبعد تناول الإفطار ، ترتفع صيحات النساء ، وأحاديث الرجال ، كثيرا ما يصيح أحدهم من الطابق الثالث أو الرابع ، معلنا انقطاع المياه ، وربما زعق آخر على المحاسب شاكيا إيلاجه مفتاح الشقة وعدم استطاعته إخراجه ، أو عطل مفاجىء أصاب مفتاح الكهرباء ، أو تسرب البوتاجاز من الأنبوبة ..

أحيانا يصعد بنفسه ، أو يطلب من البواب الذهاب لمعاينة ما جرى ، فيما بعد أدرك حرصه على الطلوع عند الأسر ، ليلمح امرأة فى قميص النوم ، أو ليتبادل الحديث البطىء مع الفتيات ، لم يكن يرسله إلا عند العزاب .

شكا لموظف العلاقات منعه من تلبية حاجات بعض الأسر ، مثل قضاء الحوائج من السوق . كشراء الخضار ، أو الذهاب بصينية سمك إلى الفرن ، أو شراء الصحف والمجلات لهذا أو ذاك ، مثل هذه الخدمات تعود إليه بمال يسير تعوض قلة المرتب ، وزيادة الغلاء ، المحاسب اعترض

بحجة أن هذا سيشغله عن ملاحظة المِلْك ، وعندما ألح ، وقال له انه يحجب عنه الرزق ، اقترح قيام امراته بهذه المهام ، انها شابة ، وعفية ، ويمكنها ذلك . أجابه غاضبا انه لا يوجد رجل صعيدى يقبل قيام امراته بخدمة هذا أو ذاك ، قال ، إذا خشى عليها من العزاب فلماذا لا تخدم الأسر ، غير أنه أبى واستنكر ، بعد أيام عاود الإلحاح ، فوجيء بالمحاسب يطالبه بنسبة معينة من الإكراميات ، ثم قال بالانجليزية ..

— هذا بيزنس ..

— نعم !

— شغل ، يعنى شغل يا غبى ، انت تستفيد من شغلك فى المِلْك .. وأنا لى نصيب ..

صاح البواب :

— لكن هذا رزقى ..

جاوبه بزعيق حاد ، الا يكفى انه ضحى بألف جنيه فى الشهر من أجله ، الا يكفى ذلك ، هذه الحجرة التى يشغلها مع عائلته لا ينام هو فى مثلها ، فى هذا المِلْك شقاء وعرق سبع وعشرين سنة ، ويجب أن يستعيد نقوده . وما اقترضه من البنوك ، عندئذ اقسم البواب انه لن يخدم هذا ولا ذاك ، ما دامت عينه على اى قرش يدخل جيبه .. ليست المرة الأولى او الأخيرة التى يلمح فيها أو يذكر صراحة سماحه له بسكنى الحجرة ، ردد دائما تضحيته بمكانه ، بشقته الخاصة ، وبقاء البواب فى حجرته ، فى البداية أعد مكانا لنومه فى مخزن المفروشات الموجود أسفل الطابق الأول ، لكنه بعد أسبوعين قال ان المكان مكتوم ، طلب منه أن يحمل مرتبة وملاءة ، ويصعد بهما إلى سطح العمارة المخصصة للعائلات ، قرر النوم فى الهواء الطلق ، حذره من الهواء البارد آخر الليل ، وانه ربما أصيب بنزلة برد ، أو روماتيزم ، وعلاج هذا مكلف جدا ، لكنه لوح بيده .

— انت جاهل .. هل تفهم اكثر منى ..

ولكنه فهم فيما بعد اختيار هذا السطح بالذات لنومه ، فى الليل لا يكف عن التجوال ، أو صعود السلالم ، التوقف امام الشقق المغلقة ، أو النظر عبر المناور إلى النوافذ الصغيرة المفتوحة ، محاولا الإصغاء إلى المياه المنسالة ، أو متتبعا أضواء الكهرباء الموقدة ، مرة أثار مشكلة صاخبة مع أحد المشرفين ، إذ لاحظ بقاء بعض المصابيح موقدة طوال الليل . قال المشرف إن بعض الأسر تضطر إلى ذلك لخوف الصغار من النوم فى العتمة . أطرق ولم يجب ، فى اليوم التالى مباشرة جاء بالمقاول الكهربائى يصحبه صبى صغير . قام بتركيب مصابيح صغيرة جدا ، تبث هسيسا من

الضوء ، شدد على استخدامها بعد منتصف الليل ، قال انه يفعل ذلك حفاظا على الطاقة ، من أجل البلد .

كان يغلق المحبس الرئيسي للمياه في المواقيت التي حددها ، والمياه من أكثر المشاكل التي سببت إزعاجا للكافة ، وأولهم البواب ، يوميا يهرول مرات إلى المرفق لاستعجال وصول العربات ، أعداد المصطافين كبيرة ، واستهلاكهم مرتفع ، في البداية كان السائقون يجيئون على مضض ، لأن صاحب المِلْك ابدى شحا غير معهود . وعندما صارحه البواب رد عليهم ان هذا شغلهم ويجب القيام به ، قال له ان البلد كلها ماشية هكذا ، وان سمعة المِلْك ستسوء إذا اشتكى النزلاء من انقطاع المياه ، لكنه صاح مقاطعا ..

— هل تعرف كم سيكلفني هذا ؟

— لكن الناس ..

— اسكت يا اخي .. أنا ضحيت بالف جنيه بسببك ..

لوح بيده ، وانصرف مبتعدا ..

— انت حـر ..

لكن الأمر ازداد تعقيدا عندما تاخرت عربة الماء في الوصول ، ولم يعد في الخزان نقطة واحدة ، علت الاحتجاجات ، وهدد المشرفون بكتابة تقارير إلى إدارات شركاتهم لفسخ العقود . اضطر المحاسب إلى الاختفاء ، لم يجدوا امامهم إلا البواب الذي طلع إلى موظف العلاقات ، رجاه استخدام نفوذه ، لولا ذلك ما وصلت عربة المياه في التاسعة ليلا ، بعد ان صرخ الأطفال من لسع ملح البحر ، ولم تستطع الأسر تجهيز وجبات العشاء . في هذه الليلة خاطب المحاسب بحدة ..

— شوف يا ابن الناس ، هذه أول سنة للمصيف ، والناس سوف تطفش منك ..

فيما بعد حكى لموظف العلاقات ان ألما شديدا بدا عليه ، وكأن مشرطا يمر بجلده .

— يعني كم نعطيهم ؟

قبل أن يجيب ، فوجيء بصياحه ..

— طوال النهار تقعد معهم امام العمارة ، وتعد لهم الشاى ..

أجابه بهدوء :

— المودة لها حدود ، شيء من الإنسانية ، وشيء من بعد النظر يا بك ..

بعد يومين . رآه واقفا أمام المدخل .

— انت لم تر المدينة ..

تطلع إليه متسائلا ، عندئذ قال له ..

— يعني انت لا تخرج ولا تدخل .. روّح عن نفسك ..

أشار بيده :

— واسيب المِلْك لمن ؟

— العمارة باقية مكانها ..

لوّح المحاسب لا مباليا ..

— أصلك فاضي ..

عندما رأى امرأة موظف العلاقات تقف أمام البيت ، بينما يقوم اثنان من العمال بتسوية الرصيف ، قام من مكانه ، عبر الطريق ، بعد أن حياها بأدب شديد ، تساءل عما يفعله هذان . قالت انهما يسويان الرصيف حتى يصبح منظره أفضل ، تساءل عما إذا كانت اتفقت معهما ؟ ، أومأت مجيبة ، قال مبتسما ، هل من الممكن مساعدته في تسوية عتبة المدخل الرئيسي فقط ، عملية بسيطة لن تستغرق سوى دقائق معدودات . أشارت إليهما ..

— اتفق معهما ..

لم يجب ، إنما أولاها ظهره مبتعدا ، ابتسمت ، تذكرت عندما أحضر زوجها بعض أصص الزهور ، ورصها عند مطلع السلم ، يومها أسرع المحاسب إليه ، استفسر عن ثمنها . وعندما أصغى إلى الإجابة ، ردد شاكيا ..

— هذا كثير .. كثير جدا ..

ثم قال انه أنفق كل ما عنده ، والمِلْك لم يدر بعد ما يكفي ، مع ذلك ضحى بألف جنيه في الشهر وأعطى الغرفة للبواب ..

— سمعت كلامك يا عم .. لكن كلفني هذا كثيرا ..

قال زوجها له ان البواب أمين ، وهذا لا يقدر بثمن ، أومأ موافقا ، لكنه قال أن لسانه طويل أحيانا ، قال زوجها له انهما يأكلان في ماعون واحد ، تطلع إليه بعينين ضيقتين ، حذرتين ، ثم دعاه إلى المكتب ، صاح طالبا من البواب إعداد كوبين من الشاي ، قال إنه يحتاج إلى موافقة من المحافظة ، ينوى العام القادم تحويل مكتبه هذا إلى « سوبر ماركت » صغير ، يبيع فيه الأطعمة المحفوظة ، والمأكولات الخفيفة ، ولوازم البقالة . لماذا يدعهم يذهبون إلى السوق ، لو وفر لهم هذا هنا فسيدر ذلك

ربحا ، ويريح الناس ، المهم انه ينتظر موافقة السفر إلى السعودية . ساله زوجها ..

— فيه مشاكل ؟

قال إنه مرتبط بعمل مؤقت مع شركة للنقل ، أحد زملائه سافر ولم يخبره مع انه هو الذى توسط له ، وهناك سعى ضده ، حتى حرمه من تصريح الإقامة اثر وشاية رخيصة .

— منه إلى الله ..

— يا رجل ، ألم تشبع من السفر ؟

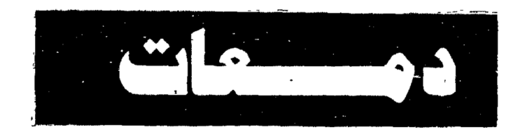
— اسكت .. الشغل هناك كله بركة ..

عندما بدأ حفر أساسات مبنى جديد قرب ناصية الطريق ، بدا قلقا ، لم يهدأ ، راح يسأل عن المالك ، من أى جهة ؟ ولماذا جاء إلى مرسى مطروح ، الغرض من الإقامة ، عدد الطوابق ، عمق الأساسات . والتكاليف .. التكاليف مهمة جدا .

طلب من البواب تسقط الأخبار ، وتحرى الأمر ، لكن البواب صار أمره إلى اضطراب . ولولا ضيق مجالات الرزق لفارق المكان بصحبة أسرته ، من يدرى ؟ ربما تسلل المحاسب ، وكمن لامرأته كما رآه هذه الليلة ، شىء مقرف . لكن ماذا بوسعه أن يفعل ، بل انه لم يعد يراه إلا من خلال هذا الوضع الغريب الذى رآه عليه ، عندما صعد إلى السطح بعد العشاء ، وفوجىء به مطلا إلى المنور ، وبنطلونه القصير بين قدميه ، كذا سرواله ، مؤخرته عارية تماما ، ولانهماكه البالغ فى استحلاب متعته لم يشعر به ، ولم ينتبه ..

● ● ●

نوفمبر ـ ١٩٨٨


دمعات

إذن .. سافرت ؟
استوثقت الأمر عندما فتح الباب ، وأطل وجه فتاة سمراء ، ترتدى المعطف الأبيض ، تحمل صينية فوقها أكواب الشاى والماء ، وفناجين القهوة . سألتنى ..
— تأمر بشىء ؟
— أنت معنا ؟
— نعم ..
أومأت شاكرا ، استعدت اللحظات الأخيرة التى رأيتها فيها . ترى .. اين هى الآن ؟ . وإلى أى المصائر تسعى ؟ .
بعد وصول زميلتى ، سألت ..
— مديحة سافرت ؟
— بعد بدء أجازتك بيوم ..
— اعتدنا عليها ..
قالت ، هذا صحيح ، كانت بنتا طيبة ، مهذبة ، مبتسمة ، بشوشة الوجه ، كانت منا ، عندها قبول حسن .. سكتت لحظات ثم قالت :
— لكن العاملة الجديدة مهذبة أيضا ..
أومأت موافقا ، قلت ..
— نصحتها الا تسافر ..
— الدنيا صعبة ، وبختها وحش ..
تراجعت إلى صمتى . فى هذا اليوم ادركنى قلق خفى ، مستتر ، استعصى علىّ تقصى بداياته ، محوره وقوع خلل ، يسير ، ضئيل ، لا يمكن للبصيرة أن تلحظه ، يستعصى على الرصد .

عند الظهر أدركت دهشا انه سفرها ، غيابها ، إلى هذا الحد اعتدت وجودها بيننا ؟ . عجيب .. لم اصافحها مرة واحدة ، لم أضع يدى فى يدها ، جرى الحوار وثمة مسافة مرئية وخفية تفصلنا ، دائما .. عبارات سريعة ، موجزة ، خاطفة ، وفى الأغلب الأعم ، بمبادرة منها واقبال .. استعيد طرقها الباب ، دخولها المتمهل ، المبتسم ، تدركنى وحشة ، اتساءل ، اين هى الآن ؟ لا اذكرمتى رايتها اول مرة ، متى التحقت بالبوفيه الخاص ؟ من سبع ، من ثمان سنوات ؟

لم تكن موجودة سنة اغتيال السادات ، هذا مؤكد ، لكنها كانت بيننا عندما انتقلنا من المقر القديم ، إلى المبنى الجديد المواجه .. منذ خمس سنوات لاغير ..

جاورت فى المبنى الأول اربعا آخرين ، حاجز خشبى حال بيننا وبين بقية الصالة المستطيلة ، جدرانها تغطيها الأرفف الخشبية ، تتخللها نافذتان مطلتان على الشارع الجانبى .

لم يستغرق وقوفها إلا ثوانى معدودات ، كانت حانية ، لطيفة الطلة ، مبتسمة ، غير ذات ثقل ، وجهها الذى اراه عند انصرافها ، أشهده بنفس الملامح التى طالعنى بها فى الصباح الباكر ، فكانها لم تبذل المجهود ، ولم تتعب اليوم كله ، ولم تستكن .

عرفت اننى افضل شرب الشاى الثقيل بعد وصولى مباشرة ، وفى منتصف يوم عملى ، وقبل انصرافى بنصف ساعة . عدا ذلك تقترب على مهل ، تسال ضاحكة العينين ..

— اجيب شاى ؟

افارق سطور الورق ، ربما اومىء موافقا ، ربما اطلب عصير الليمون ، منذ أربعة اعوام بدات تنتابنى حالات الدوار تلك ، بدأ غوصى فى قرار سحيق ، فى ايام اعيائى الأولى ، وبدأ نصبى ، كانت تستفسر جزعة ..

— مالك .. لونك مخطوف ..

عندما واجهتها بعينى المجهدتين ، وداخلى المنهك . قالت جزعة ..

— سارجع حالا ..

عادت بعد لحظات تحمل الصينية المستديرة ، عليها كوب واحد فقط ، مستطيل ، مملوء بالليمون المركز ، والسكر الغزير ، جرعته مرة واحدة . كانى الوذ به ، درءا لهذا الدوار البغيض ، وقفت ترقبنى راضية ، قالت اننى احتاج إلى مشروب حلو ، ثم قالت انها ستعد بيديها كوبا مثل هذا عندما يدركنى التعب ، فيما تلا من ايام توقفت أمامى مرات .

— لا .. أنت فى حاجة إلى ليمون ..

لم أردها أبدا ، أحيانا أخجل من اهتمامها الآتى من أعماقها البعيدة ، من زمن كانت تسعى فيه أمى قبل غيابها الأبدى ، بعد اكتمال المبنى الجديد ، انتقلنا اليه ، خصصوا لى غرفة صغيرة تفيض بالضوء ، نافذتها واسعة . أواجه الخلاء الممتد ، وأرى تغير السماء ، وتوالى الظلال فى ساعات النهار المختلفة ، فأدرك وأعى دائما تسرب الوقت . إذ يرهق الكدر عينى اسعى بنظراتى إلى الأفق الممتد . بيوت المنطقة عتيقة ، بالية ، وفدت من القرن الماضى ، طابقان أو ثلاث على الأكثر ، بناء مؤسستنا يرتفع ثلاثة عشر طابقا .

بقيت مديحة فى المبنى القديم . لم يكتمل بعد المحل المخصص للبوفيه وحتى تلبى طلبات زملائى قام أحد السعاة بإحضار موقد كهربائى يعد به الشاى سرا ، فهذا غير مسموح به طبقا لتعليمات إدارة الأمن .

لا أذكر السبب الذى سعيت من أجله إلى المبنى القديم ، لمحتها ، جاءت متهللة ، وقفت ويداها فى الجيبين الأماميين اللتين أضافتهما إلى تنورتها . الأول للنقود الورقية ، والثانى للمعدنية .

قالت إنها فى وحشة . اعتدات علينا ، الشغل هنا خفيف ، تود الانتقال لكن المتعهد يرفض ، لكنها ستحاول .

قلت اننى أتمنى ان أراها هناك قريبا ..

مالت إلى الأمام ، سألتنى عن الدوار ، عن تعبى الذى يحل عند الظهيرة ، قلت اننى أفضل ، وان هذا التعب يحل فى الأيام التى يقل فيها نومى . قالت :

— لا ترهق نفسك ..

— الشغل كثير ..

بعد أيام قليلة فوجئت بها تقف أمام المصعد ، قالت انها ستعمل معنا من الغد . قالت انها فرحة جدا ، خفضت صوتها ، قالت ان بعض الزميلات طلبن من المتعهد انتقالها هناك ، قالت ان أولاد الحلال كثيرون .

قلت . طبعا ..

عادت .

كانت تدخل إلى الغرفة بعد وصولى بدقائق ، تحمل صينية الشاى ، الكوب كريستال الشفافية ، السكر فى طبق صغير ، كوب الماء . تضع هذا بعناية ، بتأن ، وإذ تفرغ ، تقف لحيظات تسألنى خلالها عن صحتى ، ثم تستدير مفارقة . غير ان حضورها الباسم يبقى فى الغرفة ..

كانت تصل فى الصباح ، ضاحكة ، مستبشرة ، مع ان رحلتها من منطقة الزواية الحمراء إلى مقر المؤسسة طويلة ، شاقة ، تبدل المواصلات مرتين . عند وصولها ترتدى المعطف الأبيض وتجول مرحة عند قدوم ضيف لم أكن فى حاجة إلى الخروج بحثا عنها ، كأن حاسة خفية عندها تنبئها . عرفت المترددين علىّ ، الذين يجيئون على فترات متقاربة . او أولئك الذين يندر ظهورهم إلا لحاجة ماسة ، بل عرفت ما يفضله البعض ، مرة بعد خروجها ، قال صاحب لى يدير مكتبا تجاريا .

— البنت لطيفة جدا ..

لم يغب عنى ما احتواه صوته من محاولة إيحاء ، قلت انها بنت مكافحة . تساءل ساخرا ..

— وهل يمنع ؟ اليست امرأة ، لها جسد وروح ؟

لم اتماد فى الحوار ، عندما استعدته بعد ذلك ضقت به ، لمت نفسى لأن ردى لم يكن حاسما ، هل بدر منها ، أو طالع فى هيئتها ما يوحى بخصوصية ما ؟ . حنوها البادى لم أغفله ، لكننى لم اسع بخيالى إليها كأنثى .

ملامحها جميلة ، هادئة ، قمحية ، شفتاها غزيرتان ، فى عينيها مس حزن ، وبصيص فرعونى قديم . حضورها يستدعى إلى وعيى لوحة قديمة لم أطلع عليها ، أيضا ما تخلف فى الفراغ من انتظار أمومى طويل مشوب بحنين وقوف أمام جدار من مادة رقيقة بيضاء . لا تُعرف ، إذا انهار أو تصدع تبدأ غيبة طويلة .

لماذا تلك الصور بالذات ؟

لا أدرى ، لكننى لم استدعها إلى خيالاتى كأنثى مرغوبة ، حتى عند جموح شهوانيتى . مع أنها خصتنى بمالم تفض به إلى غيرى ، تأكد لى هذا بعد سفرها ، لم تجلس فى غرفتى إلا هذه المرة الأخيرة ، لكنها اعتادت الحديث إلى واقفة ، توجز قدر استطاعتها ، بينما أبدى التشاغل ، لا أضع القلم فوق المكتب ، انما أظل ممسكا به ، شاخصا إليها ، مومئا ، متطلعا إلى الأوراق المتناثرة . لزمت الحذر . ربما اساءوا طول مكوثها داخل غرفة مكتبى . أكره أقوال الخفاء ، الهمسات التى يمكن أن تبدأ هنا وهناك . ربما قام ذلك الحاجز بسبب حذرى ، ثم أصبح جزءا من الصلة . ربما .

فى ذلك اليوم ، بدت حزينة ، كابية ..

— عم غازى ..

— ماله ؟

أطرقت ، غازى هو العامل الذى يقوم بإعداد الشاى والمشاريب المختلفة ، عمل سنوات طويلة فى المقاهى ، تقلب فى اكبرها واصغرها حتى استقر به الحال هنا ، تجاوز الخمسين ، رقبته نحيلة ، طويلة ، عيناه جاحظتان ، متزوج ، أب لأربعة . هام بمديحة حبا ، عرض الزواج ، اعتذرت ، ضيق عليها ، أحاط بها ، صار يثير المشاكل كلما رآها تتحدث إلى أحد السعاة ، خاصة محمود النوبى ، ان عواطفه تجاهها لم تعد سرا ، انما أصبح امرها ذائعا ، منتشرا ، بل موضعا لسخرية البعض ، خاصة انه زوج وأب ، لكن مايطمع الناس فيه خفته ورهجة ، وقلة صبره ..

سالتها فجاة ..

— ولماذا لم تتزوجى

— غازى ؟

— لا .. انا اسال عموما ..

قالت بصوت خفيض ، ان شابا يسكن بالقرب منهما ، إذ انها تعيش مع شقيقها ، طلبها . شاب طيب ، يريد ان يعيش ، ابن ناس فقراء لكن سمعتهم حسنة . اخوها رحب به ، صارا صديقين ، لكن الأمر لم يتم ، لماذا ؟

أحواله معسرة ، لم يدخر المهر ، كان عندها كردان دهب عرضته عليه ، ان يبيعه ويتم بثمنه ما ينقص ، لكنه ابى ، كل شىء يرتفع سعره بصورة كبيرة ، حتى جاء يوم اضطر اخوها ان يطلب منه الكف عن الدخول والخروج ، الناس تلاحظ ، وتتكلم ، والوقت يمر ، وما من خطوة حقيقية تمت ، كان ذلك مؤلما جدا ، لكن ما من مفر .

— من يومها . لم يتقدم إلىّ احد ..

ابديت اسفى . بقيت واقفة ، تود لو اطالت المدة ، لكن .. ماذا سيقول الآخرون عن الغيبة .

متى تحدثت أول مرة عن سفرها ، كان مجرد فكرة . انه يوم سبت ، غابت يومى الأربعاء والخميس وجاءت صباح السبت مبكرة ، مبتسمة ، راغبة فى الحديث .

— فطرت ؟

— طبعا ..

— لا .. عندى لك حاجة حلوة ..

سالتها . أين اختفت ؟ قالت انها زارت البلدة ، تبعد ساعتين عن القاهرة ، امها هناك ، قالت انها أحضرت فطيرا معمولا بالسمن البلدى ، وجبنا قديما ، بالتاكيد سيعجبه . حاشت نصيبه ، ربع فطيرة .. أكلت ، اثنيت على مذاق الفطير الذى يصبح من علامات الماضى ، أكدت لى انها لو سافرت مرة أخرى ستحضر لى فطيرتين كاملتين ، اشارت بأصبعها فى الفراغ . ثم قالت انها ربما ترحل ..

لم انتبه أول لحظة ، لكننى أدركت انها تعنى سفرا مختلفا ،

— إلى أين ؟

قالت ان شقيقها ينتظر عقد عمل من الأردن ، قابل صاحب ورشة هناك ، عرض عليه . ولما أخبره انه يعيش مع شقيقته ، وانه لايقدر على مفارقتها . فلا احد لها غيره . قال إن الأمر بسيط ، سوف يدبر لها عملا فى المدينة كمشرفة حضانة ، مادامت تعرف القراءة والكتابة ، وذات مظهر لابأس به ..

تطلعت إليها ، لمحت نظراتها مستفسرة ، حائرة ، كأنها تسالنى رأيى نسعى إلى مشورة .

قلت اننى أكره فكرة السفر ، إلا إذا حتمت الضرورة ، على شقيقها ان يدرس الظروف جيدا . الغربة صعبة ، سالتها عما ستتقاضاه ؟ ، قالت : مائتى دولار . استفسرت عن السكن ، قالت : هم سيدبرونه . قلت ان الأسعار هناك مرتفعة ، عدت اسال : كم تتقاضين هنا ؟ . قالت إن متعهد البوفيه يدفع لها ستين جنيها مرتبا ثابتا ، وياتيها مثلها تقريبا من البقشيش مرت أسابيع ، لم تذكر شيئا عن السفر ، استعيد ملامحها خلال تلك الفترة ، فاراها ناطقة بالود ، بالحيوية ، والرغبة فى القربى ، شمولية البسمة ، عدا يوم لا اذكر موقعه الآن بين ايام الاسبوع . رصدت ضيقا فى عينيها ، سالتها عما بها ؟ . كانت قريبة جدا ، وددت لو تراجعت خطوة ، حتى إذا دخل أحدهم فجاة لا يظن بى الظنون ، تراجعت مقدار شبرين بمقعدى ، رغبت دعوتها إلى الجلوس ، لكن .. لم يحدث هذا من قبل ، غير معتاد هنا .

قالت ان الناس قساة ، قساة جدا .

استفسرت مرة أخرى ، قالت إن أحد رجال الأمن يضايقها منذ فترة ، وانه كتب تقريرا يقول فيه ان عاملة البوفيه تبقى بعد انصراف العاملين ، وانها تخلو بمحمود الأسمر فى غرفة المدير ..

— تصور يا استاذ .. تصور ..

— واين وصل التقرير ؟
التفتت اليّ منفعلة ، بادية الحدة ، قالت انها منذ خمسة أعوام هنا ، لم يبد منها ما يشين ، كل شخص يعرفها ، كما انها تعرف كل انسان هنا ، تفهم النظرات المسددة إليها ، والذين يتظاهرون بشىء ويضمرون خلافه . قالت ..
— فيه ناس طيبين مثلك ، لكن فيه أشرار .. أشرار قوى يا استاذ ..
امسكت حافة المكتب ، لاحظت تحرك وجنتيها إذ تعض على أسنانها واضراسها قدمت إليها منديلا ورقيا ، أومأت برأسى ، طلبت منها أن تخبرنى بتطور الأمور ، خاصة إذا حولوها إلى التحقيق ، ليس سهلا تلويث الناس .. ، انجلى كدرها فجأة ، قالت :
— انا آسفة .. حملتك مالا ذنب لك فيه .. قلت إن ما أفضت به لم يزعجنى ، إنما يطلعنى على بعض مما يجرى فى هذه المؤسسة . وَهنا قالت :
— انت الوحيد البعيد عنهم ... أنت فى حالك ..
فى اليوم التالى قابلت الساعى محمود الأسمر صدفة ، بادلته التحية ، مضيت ، لا أدرى .. ربما ، استعدت لحظات رأيتها تتحدث إليه ، كان هذا فى منتصف نهار بعيد ، هل بدا شىء ما ؟ اثمة خصوصية ، فى الوقفة ، فى النظرات ؟ لم أحسم !
أيام قلائل مضت ، نهار يقترب من نهايته ، عندما طرقت الباب ، دخلت تحمل صينية فوقها كوبان فارغان ، وجهها كدر ، أكثر من المرتين السابقتين ، عندما جاءت تشكو عم غازى ، ورجل الأمن ، وضعت الصينية فوق المنضدة الصغيرة .
— ممكن أقعد ؟
— طبعا .. تفضلى ..
أشرت بيدى ، التفتت إلىّ .
— تصور يا استاذ ، اننى لو أردت أن استريح فلا أجد مقعدا أجلس إليه .. طوال النهار أدور كالنحلة ..
بدا صوتها مغموسا بالأسى ، مترقرقا ، قالت انها أحيانا تود لو تخلو بنفسها لحظات ، أوقات تضيق بالآخرين ، من ذاتها هى . تطلعت إليها صامتا لا أدرى ما يجب أن أقوله ، أو أفعله ، قالت :
— حزينة .. حزينة جدا ..
قبل استفسارى ، استمرت ، قالت انها ستسافر ..

— إلى أين ؟
— إلى الأردن ..
— يا ه .. هذا العرض القديم ..
قلبها مقبوض ، ستسافر مع شقيقها ، لكن إلى بلد لاتعرف فيه أحدا ، بلد غريب ، لا تدرى . بمن ستلتقى ، أو بمن ستجاور ؟ قالت انها اعتادت الناس هنا ، تعتبر نفسها واحدة منهم ، وانها في ونسة ، لكن هناك ستكون فى وحشة ، لاتعرف متى سترجع ..
كانت ترثى ولا تودع ، نقبت عن كلمات مؤازرة ، للتهوين من شدة الأمر ، لكن لهجتها فتقت عندى جروحا . وحركت اساى ، وعيت فى هذه اللحظة انها موشكة على اغتراب ، لكننى مغترب فعلا ، وانها ظلت هائمة ، دائرة حولنا ، على مرأى منا ولم ندرك ، وها هى تحط جالسة فوق مقعد ، عندى هنا لأول مرة ، ورحيلها على وشك انما لتبكى ..
فى لحيظات تحول بكاؤها إلى نشيج ارجف جسدها ، واستدرج دمعاتى إلى مشارف ماقى ، فدنوت داخلى من شفا نواح طالما كتمته ، خاصة عندما رددت فى كلمات متقطعة ، مجروحة ..
— يا عالم .. متى يلتقى الحى بالحى ؟
● ● ●
نوفمبر ـ ١٩٨٨


كشف

.. مدة أنقضت ، زمن غير قصير ، حتى أدرك كنهَ
الصلة بين قدرته على استعادة ملامحها ،
وحضورها ، وبين تخلصه من علامات هذا العرض
البغيض . يثقله إذ يبدأ . يسد عليه جهاته ، لم يعرفه
فى سنى عنفوانه ، وأوان شدته ، لم تلح نذره ،
خاصة وان المسافة لم تكن اتسعت بعد ، أما الآن
فما أشد الفارق، واوعر القفر ..

إذ يبلغ ارهاقه مدى ، يبدأ هجوعه بعد نصب ، متمنيا الافلات من أرق بغيض ، يقضه قضا ، ارق يلح ويجثم ويضمضم ، خاصة عند سفره ، فى الليالى التى يمضيها بعيدا ، وتلك التى تسبق رحيله .

بمجرد تلون الرؤى ، تميع الصور ، تداخل اللحظات المولية بالآتية بالمقبلة ، لحظة الاجتياز التى لايمسك بها الوعى ، اجتياز برزخ ما بين النعاس واليقظة ، ينتفض !

يقوم بغتة ، خطر غامض ، شائه الملامح ، لا يدرك مصدره ، يدهمه ، يوشك على تمام الإحاطة به وتطويقه ، يهرع نبض قلبه مرجوفا ، يبقى آيسا من كل عون ، فى داخله تشتد زلزلة ، ويلوح انخساف أمر ! يشتد وعيه انه مغادر ، مفارق . مقلع بعد لحيظات إلى أبد لا يعرفه . ماتبقى من زمنه الخاص مقدار طرفة عين . أما شمس الغد فلن تطلع عليه .

يفزع .

يجتاز الفراغ بكينونته الجثمانية من سفل إلى علو ، تتباعد أطرافه ، ساعيا صوب غوث غير مرتجى ، قاصدا الهواء ، الفراغ ، يشرع فى الإفلات مما يحيط به ، يفتح النافذة حتى وان نزل بلادا تتدنى فيها -

الحرارة ، ويحتوى الجليد سائر الموجودات ، يبقى تحت وطأة انتظار المحق ، المحو . لكنه لايكتمل ، لاينتهى عنده ، انما يستمر فى عبوره ، لكن مع تكرار الأمر ، مع تأكيد الطبيب المداوى أن الداء ليس عضويا ، انتبه إلى بدء الفكاك مع طلة ملامحها ، بزوغها من داخله ، يمعن البصر صوبها وهو حسير . وإذ ينزل به همود يعى انه نجا ، ولكن .. إلى حين . لايعى متى لاحت له الصلة والرابطة بين هذا الوجه الذى لم يعلق نظره به إلا لحظات عابرة ، مارقة ، حتى شك فيما جرى . وأتى عليه حين من الوقت لم يدر ان كان ما رآه حقيقة أو هما ، كانت الملامح التى رآها . أطلع عليها ، التى حدق اليها فى هذه اللحظات النهارية النائية . المشعة بالضوء الساطع . تراوحه . تفارقه ، تدنو ، تبعد ، حتى أيقن فى الفترة الأخيرة ان الأمر متصل ، ذو وشائج ..

متى رآها ؟ متى وقف على هذه اللحظة ؟

لايمكنه القطع ، أو التحديد ، لايقدر على القول ان هذا جرى يوما بعينه ، اثنين أو ثلاثاء . ذاكرته لم تع ، لم تستوعب ، لكنه يوقن أن هذا جرى فى أيام أوجه ، ومرحلة شدته ، وايناع فتوته .

كان يعمل رساما فى القسم الفنى بالمؤسسة التعاونية ، يوميا يقطع الطريق من بيته فى الحى القديم إلى منطقة الدقى الحديثة ، يبدأ رحلته اليومية فى وقت مبكر ، إن صيفا أو شتاء . يمضى عبر السكة الجديدة ، ثم الموسكى ، ميدان العتبة العتيق ، معظم المتاجر ماتزال مغلقة ، فارق كبير بين هدوء الشارع أول النهار وصخب مابعد ساعتين ، يجتاز قلب المدينة الحديث ، وجسرى النهر .

إلى يمين الميدان الذى تحوطه أشجار مورقة ، خضراء فى تلك الفترة ، يقع مبنى المؤسسة ، عمارة أعدت فى الأصل لتكون مقرا للسكن ، ولكن الإدارة استأجرتها كاملة من المالك .

فى الطابق الرابع القسم الفنى ، فى الحجرة الداخلية منضدة الرسم . اعتاد الجلوس فوق مقعد مرتفع ، مصباح قوى مثبت بذراع معدنية إلى سطح المنضدة الخشبى المائل . يضيئه أحيانا عندما يمعن فى التفاصيل ، أو فى أيام الشتاء الرمادية ، الكابية .

انها أيام قصية الآن . لكنه يعى منها الضوء ، وامتداد الأفق ، وتوثب روحه عند عبور النيل . لاتلوح بقايا للكدورات التى عرفها وقتئذ ، لم تمس منه العصب ، لم تنفذ إلى صميم النخاع .

ماتزال التفاصيل جلية فى ذاكرته ، أبعاد الغرفة . لون الطلاء . ملامح

بعض من اعتاد رؤيتهم وقتئذ ، عامل المصعد ، فى مقدمة ذقنه وشم أخضر مستدير ، مدير الإدارة ، شبه المقابل ، امرأة راسخة القوام ، مهيبة الجمال ، لايستعيدها إلا أثناء خطوها ، لايراها إلا مرتدية قميصا أصفر من القطن . لظهورها أزيز . لتقدمها وقع ، اسمها هيام ؟ ، ربما .. لا يذكر ، زوجها أصلع تماما . رآه مرة واحدة عندما جاء ليصحبها ، تبقى منه نظارته السوداء الإطار ، وزجاجها السميك ، وتهدل ثيابه . وهمس جرى بين زميلين حول خشونة مظهره ، ونعومة حضورها الهادىء .

يذكر زميلا هادئا . منحنيا دائما . غاب عنه سنوات ، ثم لمحه صدفة يقف خلف مكتب الاستقبال بأحد الفنادق الحديثة .

إذ يستعيد هذه الأيام المولية يراها مندغمة ، لحظة من هنا ، هبة من هناك ، نفحة باقية ، وأخرى مطموسة ، ظهور شخص كان صاحبا ، اقبال امرأة . يد تمسك قلما ، صوت يجيب على رنين الهاتف ، ما أكثر الأمور التى تستعصى على الاستعادة . عبثا يحاول ، كأن شخصا آخر عاشها ، أما عمره الذى كان يجتاز العشرينات وقتئذ ، فمنفصل عنه ، تام الكينونة ، كأنه يمت إلى شخص آخر ، تبدو الأوقات التى كانت متصلة ، متناثرة ، ما من واحدة مكتملة ، عدا تلك اللحظة ، كل زمن وهن إلا ها . كل ما عبره تميع عداها ..

أى رداء كان يستره ؟ أى وضع اتخذ ؟

بالتأكيد ، الالتفات صوب النافذة ، إذ يشعر باجهاد نظره لطول انكبابه . يولى وجهه الطريق ، كان باستطاعته رؤية جزء من النهر ، وعدد من الأشجار الخضراء التى اجتثت من جذورها فيما بعد ..

فى مواجهة النافذة تماما تقوم عمارة مرتفعة ، يرى الجانب الخلفى منها . حيث نوافذ الحجرات ، والمطابخ ، وفتحات التهوية .. تطل على الشارع الرئيسى المحاذى للنهر ، تصله منه روائح خاصة لأزمته مدة ، لم تتكرر عبر مكان آخر ، طعام يُطهى ، ورائحة خبيز كعك وأقراص حلوى فى الفرن الواقع تحت مباشرة .

نافذة مفتوحة ، أو أخرى مواربة ، تطل خادمة لتنفض سجادة ، أو تتطلع إلى لا شىء . لا ينظر متلصصا ، يحيد ببصره بعيدا عند ظهور شخص ما حتى لا يظن به أحد سوء القصد والنية .

هذا الصباح . رأى النوافذ كلها مغلقة ، لم يلحظ ذلك إلا فيما بعد ، حتى بدا الأمر وكأنه تمهيد خفى .

لا يمسك حتى الآن بحواف البداية . لكنه يعى الانبثاقة ، بل انها تكررت

داخله مرات فيما تلا ذلك ، يندلع لها نبضه مع أن ربع قرن مضى . فوجئ بمصراعى النافذة المواجهة له تماما ، ينخفض مستواه قليلا ، فتُحا ، حركة قوية ، عفية ، بدون تمهيد أو تأن ، كأن ريحا عاصفة مصدرها داخلى ، لكنه رأى ذراعيها على امتدادهما ، تسندهما حتى لا يرتدا فيكون انغلاق !

انثى ..

شابة ، ذات بهاء واكتمال ، مرمرية التكوين ، فوّاحة الحضور ، ضاجة الحيوية ، عارية تماما ، كما وفدت لحظة انضمامها إلى الخليقة ، رآها بازغة ، متدفقة ، فانصهر الفراغ ، ونبع الضوء منها . لم يعد إلا هى .. ارتج عليه فلم يدر ما يفعل ، لكنه شد ، أوثق إلى وجودها . حام منجذبا إلى فلكها ..

نهدان مشرعان ، بضّان ، فى أوجهما ، استدارة كتفين متناسقين ، عنق طيع ، أما الخصر فيرق ويدق حتى يستعصى على المرء تصور إمكانية احتوائه على شىء !

فيما بعد ، لم يدر كيف ألم بتقبب أردافها ، وتناغمهما ، وحسن تجاور شطريهما ، مع انها لم تستدر ، ولم تغير وضعها . كيف أطلع على أطرافها السفلى ، على قدميها وتناسقهما ؟ مع أن شطر الجدار حجب وأخفى ، فكأنه نفذ عبر حجب المادة ، وأحاط بها من جهاتها ، لكم استعاد حركتها ، تلفتها يمينا ، ثم شمالا ، رَفْعَ رأسها تجاهه ، بالضبط ناحيته ، إليه صوبت عينيها الفوسفوريتين . نفثت طلاتها ، فثبت ، وتركزت كل الجهات عندها . الأصلية والفرعية معا ..

لم يتخلله ارتباك ، إنما نشوة غامضة ، لم يعرفها من قبل ولا من بعد ، مزيج من رعشة حسية ، وانبثاق داخلى .

وجهها متلألئ ، مشعة ، أما الابتسامة فمنبعثة من ملامحها بأسرها ، يؤطر وجهها شعر أسود ، فاحم ، ولد تناقضا خفيا مع بشرتها الضوئية التى كان بإمكانه إدراك نعومتها وطلاوتها من مكانه رغم المسافة التى فكر فى اجتيازها ، ولو فعل .. لمضى إلى هلاك .

انفراجة ثغرها ، لَحْظ تبسمها ، بهاء تواجدها ، هذا كله بدد سائر الموجودات المادية حولها ، حتى أوشك أن يراها واقفة فى فراغ مبين ، ما عداها عدم ..

استوعبها فى مجملها ، وقفتها ، امتداد ذراعيها ، تناسقها ، أصولها الكامنة ، وفروعها البادية ، وعندما تأهب ليرجع الكرة ، فوجئ بها تتراجع قليلا ، بدأ انسحابها متمهلا ، بطيئا ، لم يدر من يدفع مصراعى

النافذة ، لكنهما انغلقا بقوة ، توارت ، اختفت ، ولكن بعد نفاذها إلى لب كينونته ، وعميق مسامه ، غلب على بقية يومه دهشة وعجب ، وطوال الليل انتشى فلم ينم إلا فجرا ، وصل المكتب مبكرا ، خفيفا ، مشرقا . وبقيت النافذة مغلقة .

عبر أيامه التالية علق بصره بها ، لكن لم تظهر ، لم يفض بما رآه إلى مخلوق وإن أثقله الأمر ، شغله ونال منه ، اخذ الحيطة ، خشى أن يجرى انبثاقها فجأة ، أثناء انحنائه على لوحة . أو عند خروجه من الغرفة ، أمل فلزم ، لكن عبثا ..

مع بدء إيوائه إلى فراشه تغمره نشوة . ويتفجر داخله فيض ، حتى ليود المضى فى عمق الليل إلى مكتبه ، لعل وعسى ، وعند بدء مشيه تتسع خطاه ، يخف تعبه ، لطالما تعجل طلوع النهار ، ثم الوصول .

أحب الخلوة ، آثر الانفراد ، النأى عن الخلق ليستعيد بمفرده ما رأى ، ليسترجع الرؤيا ، الجسد النافر ، الداعى ، ملاحة الوجه ، جمال لم يطلع عليه من قبل ، رصده فى لمحة ، لكنه اودع داخله أثرا لا يمحى ، لا يزول ، لا تبهته الليالى ، وتوالى ساعات الكدر أو الصفو ..

أحيانا يجد المتعة فى استعادة التفاصيل ، التعلق بأمل الظهور ، لكن .. عبثا ، لم تفتح النافذة قط ، فكأنها أوصدت إلى ابد ابيد .

حتى بدأ الوهن ينال منه ؟

لا يمكنه القطع أو التحديد ، لكن فى الشهر الأخير الذى سبق انتقاله من مقر عمله هذا ، خطر له أن يرقب باب العمارة ، لعله يراها داخلة أو خارجة ، ما أيسر ذلك ، البناية مطلة على النيل ، لا يفصله عنها إلا عرض الطريق ، فوق مقعد حجرى قديم . بين شجرتين عتيقتين ، ثبت :

بدأ فى السادسة صباحا . ليس معتادا خروج امرأة قبل هذه الساعة ، لكنه أثر الحيطة . إذا لم تكن موظفة أو طالبة فعليه الانتظار . ربما تمضى لشراء حاجة أو لزيارة أقارب . يوم بأكمله ، من شروق الشمس إلى ما بعد غروبها ، لم يفارق بصره مدخل العمارة رمادية الطلاء ..

فى سنواته التالية ، كلما مرّ فى الشارع ذاته ، تطلع إلى المبنى ، يدور حوله ، فى وقت خريفى ، ومساء موشك على الاكتمال ، رأى النافذة مفتوحة ، لم يكن باستطاعته الصعود إلى الغرفة التى شغلها ست سنوات متصلة .

المؤسسة الغيت ، المالك استرد المبنى ، يقيم فيه الآن آخرون لا يعرفهم ، الملابس المغسولة ظهرت فى الشرفات الخلفية . يجهل من

يأوى إلى الغرفة التى لزمها سنوات متتالية . لا يعرف من يتطلع عبر النافذة التى رأى منها ما رأى ، طال وقوفه فى الطريق ، خشى أن يسأله أحدهم عن تطلعه ، عن تعلق بصره بالطابق السادس فى هذا البناء ، مضى حسيرا ، خاويا ..

من يدرى ، ربما انتقلت إلى منطقة أخرى من المدينة ، ربما تزوجت ، ربما رحلت إلى مكان ما فى العالم ، ربما تتنفس هواء غربة .

فى إحدى الأمسيات جلس أمام التليفزيون ، أم كلثوم تشدو ، تتمايل ، تتنقل الكاميرا بين المستمعين فى صالة المسرح والمنصة ، رأى رجالا ونساء ، هى .. هى .. لمحها . لا يمكن أن يخطئها أبدا . يعرف صبوحة الوجه ، ودقة الملامح ، مال ممسكا بحافتى الجهاز ، حدق وأطال ، لكن لم تظهر صورتها قط ، حتى عندما عادت الكاميرا إلى المستمعين صورت آخرين . بعد انتهاء الأغنية تراجع منهكا ، متعبا .. التسجيل قديم ، تمت اللحظات المصانة إلى بداية الستينات .. أحقا هى أم تشبه له ؟

أين هى الآن ؟ أين ؟

لابد أن ملامحها تغيرت ، ربما أصابها مرض ، ربما أدركها وهن ، ربما لم تعد فى بهاء اللحظة ، فى هذه الليلة ادرك أن ملامح الوجه نال منها الوقت ، لم تعد واضحة ، محددة ، كان يدركها فى مجملها ، ولكن التفاصيل التى استرجعها حولا كاملا اندغمت ، انطمست ..

دهش وهو يمعن الرحيل داخل ذاته ، أحقا هو الذى عاش اللحظة المتفجرة بالجمال ، الاستثنائية ، التى أعمت بصره عما عداها ؟ هو أم شخص آخر لا يمت إليه بصلة ؟

لكم مضت السنوات بسرعة ، كأنه ماض فى طريق طويل ، منقسم إلى مراحل ، لا تتضح له كل منها إلا بعد تمامها ، إذ تنتهى يقوم حاجز مستحيل اجتيازه ، أو التراجع عبره ، كأن يدا خفية تدفعه دائما صوب نقطة يجهلها ، مع كل خطوة تبهت الصورة ، وتتميع الكهنونخ .. لاكم سبعر ،صحل *حط ،صاح *=ء ، اعتل وقام ، فرح وحزن ، طرب وشجن ، لكم تبدلت به المواقع . بعض من تصور انهم مقيمون أبدا فارقوا ، ومن توهم دوام وئامهم بغير خلل ، وقعت الوحشة بينه وبينهم .

لكن فى حله وترحاله . فى بسطه او طيه . فى إقباله أو إدباره . لم تندثر هذه اللحظة وان غامت ، لم تفن وان خبت ، لم تنمح وان تميعت .

تعاوده فى مواقف شتى ، فى لحظات لم يع لها . وأوقات يبدو ذهنه خلوا تماما منها ، فجأة .. تنبثق فوّارة ، متدفقة ، فإذا كان صامتا غمغم

وهمهم ، وإذا كان في حركة كف وتوقف ، وإذا ضمته صحبة انفرد ، ربما هج مسافة ليخفف من الاندفاع المتوالى فى أعماقه ، والذى يدفع به إلى الرغبة فى الصياح ، أو ذرف الدمع . أو نطق الحسرة الموجوعة . أوقات ينوء بالحمل ، فيلفظ آهة يدهش لها محاوروه ، يستفسرون عما به ، ما جرى له ، هل يشعر بمكروه ، لكنه يكتم ولا يبوح ..

الغريب .. ان لحظات ود شتى . وأوقات صفاء مع ذوى الود والقربى ، أوشك على البوح ، أحيانا يشتد به الدافع أن يحكى ، أن يفضفض ، أن يروى للآخرين باللفظ المسموع حتى يسمع نفسه أيضا . لكنه إذ يهم . يفاجأ بقلة حيلته ، وانتفاء رغبته .. لم يشأ مشاركة آخرين له ، فى الشهور الأولى التالية ، كثيرا ما تساءل ، هل بدت لغيره ، هل رأى آخر ما رأى ؟ ويتمكن منه غيظ لو أتاه الخاطر بمجرد احتمال إيجابى ..

ما رآه لم يقصه على أحد ، لم يصفه لمخلوق ، أما رغبته التفوه به ، فيحققها إذا خلا بنفسه ، خاصة فى الفنادق النائية ، فى البلاد القصية التى اغترب فيها أياما معدودات .

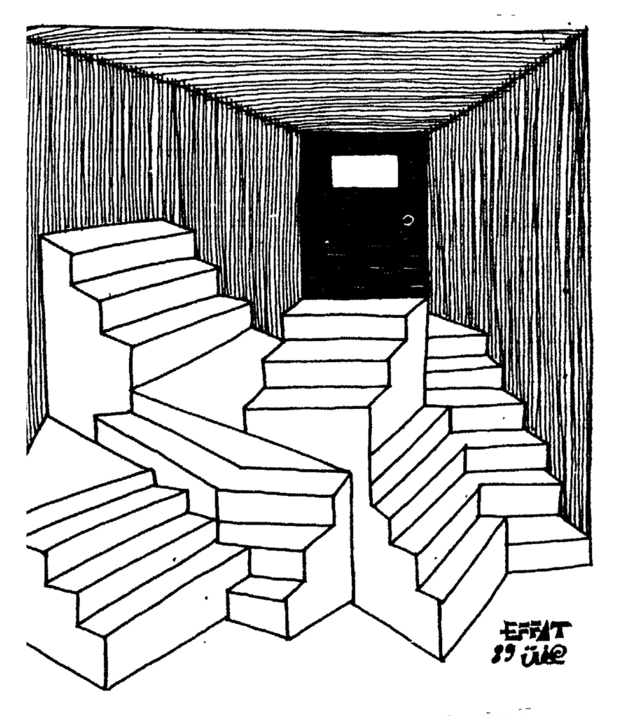
إذ يعمق الليل ، ويمعن فى وحدته ، يحدق فى الفراغ المكانى الضيق ، يحاول استدعاء اللحظة ليراها ، جلية ، سافرة ، وكثيرا ما تنتفض رغبته ، فيسرى عنده شبق غريب ، حتى ليراها منحنية ، معانقة ، منفرجة ، فيقدم على بذل الجهد الأتم لمضاجعة العدم ..

أحيانا يوغل ، لكنه كلما بذل الهمة ازدادت الملامح بعدا ، عندئذ يلفظ يحدث نفسه بما رأى فى هذا اليوم البعيد ..

— أنا من شاهدها ، أنا من اطلع عليها ، هى نظرت إلىّ ، كانت عارية كلحظة ولادتها ، لم تحتجب للتو ، إنما بقيت تضوى فى مجال بصرى .

حتى دهمه ذلك العرض ، اكتمال وعيه بأوان المفارقة ، ما أفظع اكتمال الوعى بانقضاء المدة بعد دقائق ، بعد ثوان ، كالمعصوب فى الثوانى الأخيرة منتظرا رصاصات الفريق المتأهب ، لكنه وحيد تماما ، خلو من كل عون ، لن يطأ أرضا أحبها ، وميناء اعتادت البهجة أن تلامس روحه إذ يصله .. فى العتمة المطبقة لاح له هسيس ضوء ورؤى بعيدة ، أطياف من وقفتها ، تطلعها نحوه ، شروعها ـ الذى كان ـ تجاهه ، لم يستعد التفاصيل ، إنما المعنى ، وبقدر تشبثه تنتظم أنفاسه ، وبقدر تعلقه اليائس الضارى بالعبير العتيق يخف الخطر ، أدرك الصلة وكنه الرابطة ، بين قدرته على استرجاع قبس من اللحظة المنقرضة ، الموالية ، وبين استطاعته استنفاد قوى توشك على الأفول ، تمكنه من الطفو ..

● ● ●   ديسمبر ١٩٨٨



خروج

.. اضطر إلى مفارقة الصحبة ، مع أن الصفو دام ، والود اتصل طوال السهرة الحميمة ، يجب اللحاق بالمترو قبل توقفه ، انه غريب عابر . أيامه قليلة هنا ، لا يعرف المدينة جيدا ، والجهل يتبعه رهبة ، ماواه في منطقة هادئة ، بعيدة ، حذره الكثيرون من المشي بمفرده ليلا ، خاصة أن الغرباء عرضة لتهجم المتعصبين هنا ، اما عربة الاجرة فستكلفه كثيرا . زاده محدود ..

بمجرد دخوله المصعد ، تطلع إلى لوحة الأزرار المستطيلة ، يشير المفتاح ، المضاء إلى الطابق الثانى والعشرين حيث يسكن صديقه .

بتلقائية ضغط الأخير ، هذا ما خبره واعتاده في مبانى القاهرة ، الشاهق منها ومتوسط الارتفاع ، هذا مصعد حديث ، سريع ، لولا انتقال الضوء عبر الأرقام ما شعر بالسرعة الخاطفة ، كان الحركة لم تبدأ بعد .

في المصعد رائحة عطر خفيف ، بقايا عبير غامض لم يدر مصدره أو مكوناته ، لكنه يثق لسبب ما ان المكان سيرتبط به عنده ، لكل موضع رائحته الخاصة ..

يهز رأسه .

لكل امرأة ايضا ، كثيرا ما أعاد له طيف رائحة قديمة حقبة باكملها فيتجدد الأمر ، ولا ينسى .

الطابق الثانى ، يقترب ، الأول .. لكن الضوء لا يثبت ، يستمر انتقاله من دائرة إلى أخرى ، لكنه لا يقرا ارقاما ..

S - 1

SS - 2

SSS - 3

عندما جاء مع صاحبه . قدما من المحطة ، عبرا الطريق . ارتقيا عدة سلالم . تؤدى إلى مجمع المتاجر التى تتوسط العمارات الأربع الشواهق . قال له ان مثل هذه الارتفاعات لم يعد مسموحا بها ، البلدية احتجت ، أثير الأمر فى البرلمان ، هذه الأبراج تشوه الطابع التاريخى للمدينة التى تتباهى بعراقتها . وعتاقتها ، مع أن المبانى تقع عند الطرف الشرقى للنهر ، وبعد عبور الجسر القريب تنتهى الحدود الإدارية للعاصمة . لكن الجدل حسم لصالح الحفاظ على الطابع القديم ، حتى فى المناطق المحيطة ..

SSS - 3

يضىء المفتاح الأخير ، يستقر المصعد تماما ، يفتح الباب تلقائيا ، يخرج .

أين هو ؟ أين ؟

صالة خرسانية تنتهى بباب أحمر مصمت ، إلى الجدار الأيمن أنبوب اطفاء حريق ، انابيب معدنية ممتدة عبر السقف ، مع تطلعه إليها انتبه إلى انغلاق باب المصعد .

الفراغ الخرسانى المصمت ، هل أخطأ ؟ لكنه ليس المدخل الأنيق ، المبلط بالرخام الذى صعدا منه ، عندما جاءا معا عبرا بابا من زجاج متين ، الجدران مغطاة بمرايا مستطيلة ، إلى اليمين صناديق البريد الصغيرة ، إلى أحدها مضى ، عاد برزمة أوراق ، قال ان الشركات هنا ترسل إعلانات لا حصر لها ، عن كل شىء ، يسلمونها إلى البواب ويوزعها هو على الصناديق ..

اين هذا البواب ؟

أين مقره ، لم يره عند الصعود ، ولا أثر له هنا ، حيث كل شىء متغير . كأنه فى بناية أخرى .

ما تزال الدائرة مضاءة ، تشير إلى وجود المصعد ، لا بأس .. سيعود إلى صاحبه . يستفسر منه ، ثم يسلك الطريق الصحيح إلى الخارج ، حقا .. ان الغريب أعمى ولو كان بصيرا .

يضغط المفتاح الخارجي ، يظل الباب موصدا ، كيف إذن ؟ ، يخبط شطرى الباب . محاولا الإفساح بينهما بيديه ، لعل وعسى ، لكن محال تحريكه ، يعاود ضغط المفتاح ..

عبثا ..

يلمح شقا صغيرا تحت الزر المستدير ، مخصص لتلقى مفتاح معين ، مفتاح لا يمتلكه ، اجتهد فى التذكر ، هل أخرج صاحبه مفتاحا عندما استدعى المصعد ؟ . لم يستطع الجزم ، نعم أولا ، لكنه واثق انه عند نزوله منذ دقائق لم يكن معه مثل هذا المفتاح ..

إذن .. يمكن النزول ، لكن الصعود مستحيل بدونه ، مفتاح معين لا يوجد إلا مع ذوى العلاقة ، سكان البناية ، تحوطا وحذرا حتى لا يتمكن الأغراب من الصعود .

كيف لم ينتبه ؟

كيف فاته الاستفسار ؟

لكن اللوم واقع على صاحبه ، اكتفى بتوديعه عند باب شقته ، اكتسب عادات أهل البلاد ، حتى فى نوعية الطعام وكمياته ، كيف يتركه وحيدا ؟ كيف ..

برودة غريبة فى الفراغ ، التدفئة فى الطوابق العليا ، فى المصعد حتى ، لكن هنا .. لا أثر لها ، تسرى عنده قشعريرة خفيفة ، يلمح لافتة خضراء مستطيلة ، كتب عليها « خروج » ، لحسن حظه انه يعرف طرفا من لغة أهل البلاد ، بقايا دراسته الثانوية ، سهم مضىء فى اتجاه الباب ..

ظـلام !

فارقه الضوء بغتة ، بدون سابق علامة ، ضوء موقوت يبدأ مع فتح باب المصعد ، لا يستمر إلا ثوانى معدودات ، هدأ عندما رأى الفوسفور المشع يجسد السهم ، ودائرة صغيرة مضاءة بهسيس ، اتجه إليها ، ضغطها .

ضـــوء ..

يتصرف تلقائيا ، وكأن رصيدا من خبرة مجهولة يدله ، ويشير عليه ، يتقدم صوب الباب ، الخرسانة صارمة . صادة ، رماديتها قاسية ، باب أحمر اللون ، مقبضه أبيض ، الطلاء الكثيف لم يخف حضوره المعدنى الحاسم .

يدير المقبض المستدير ، الباب ثقيل ، لكنه مجاوب ، عندما اجتازه لم يدر ، إلى خروج يمضى أو إلى دخول ؟ .

النور المتسرب لم يبدد الظلام الكثيف ، السائل ، يلمح المفتاح الصغير بجوار الباب ، يضغطه ..

ضـــوء ..

تلك قاعة أكبر . صمتها أرسخ . لكن ثمة سهم أيضا ، يشير إلى الاتجاه الأيمن .

خــرج ..

باب أحمر آخر ، يتقدم بسرعة قبل انطفاء الضوء الذى يدرك الآن أنه لن يستمر إلا ثوانى معدودات ، أمامه طريق يميل منحدرا ، يمضى متمهلا فى البداية .

هل ثمة من يرقبه ؟

تدركه رعدة ، غير أن المكان يبدو مقفرا ، نائيا عن كل صوت وصدى ، تستمر خطاه مع الميل الذى يستوى عند منعطف شبه دائرى ، عيناه ترقبان الجدران ، ليحدد مفاتيح الضوء بسرعة قبل انطفاء الضوء .

انه فى مواجهة ممر كبير ، على الجانبين أقسام يفصل كل منها عن الآخر جدار يبدأ من الأرض . لكن لا يصلها بالسقف ، ينتهى فى المنتصف . فى كل قسم تربض سيارة ..

جــراج إذن !

كيف ؟ يتطلع إلى الضوء الذى سيظلم بعد لحظات ، كيف وصل إلى هنا ؟ ، فى مصر ينتهى المصعد فى الطابق الأول المؤدى إلى الخارج مباشرة ، لكن الأمر مختلف هنا ، إذن .. كان ينبغى ضغط المفتاح رقم واحد ، هذه الأزرار التى تحمل حروفا إنما تعنى الجراج ، جراجا متعدد الطوابق ، فى آخرها الآن ، آخرها او اولها ، لا يدرى ، يجهل المخارج المؤدية .

يسترجع محادثة جرت فى القاهرة يوما مع صاحب مهاجر إلى كندا ، حدثه عن تلك المساحات الهائلة الممتدة تحت المبانى ، عدة طوابق تحت الأرض تؤوى آلاف السيارات ، لا يذكر مناسبة الحديث ، لا يعنيه ذلك الآن ، المهم .. خروجه من هنا فى أقصر وأسرع وقت ممكن .

لن يلحق بالمترو الآن ، هذا غير مهم أيضا ، يمكنه قطع الشوارع مشيا لو اضطر ، المضى إلى موقف عربات الأجرة ، فوق .. سيتصرف رغم كل الأحوال والظروف . المهم الآن .. خروجه بسرعة إلى الطريق ، إلى الفراغ ، إلى الهواء المتجدد ، النقى ، إلى برد الشوارع ، يمكنه تفاديه ، احكام المعطف ورفع ياقته ، لكن البرودة المحيطة به هنا ، هامدة ، جاثمة ، أبدية ، غير ممكن تبديدها ..

لن يتبع اللافتات ، لن يوغل اكثر ، يجب الرجوع والانتظار امام المصعد ، سينتظر مجىء أحد السكان ، يشرح حاله ، إذا رأى دوائر الضوء تشير إلى تحرك المصعد ، يمكنه دق الباب المعدنى ، الصراخ طلبا للمساعدة . أمام المصعد حيز محدود ، لكن هذه القاعة الممتدة تبدو

بلا نهاية ، غامضة ، السهم يشير إلى اتجاه الخروج ، لكن أى خروج ؟

يتراجع صوب الباب الأحمر . يضغط المفتاح الذى كان بإمكانه رؤيته حتى بعد انقطاع الضوء ، يمسك المقبض الأبيض المستدير ، يلفه .. لكن عبثا . المقبض لا يدور ..

الم يفتحه من الناحية الأخرى ، الم يكن سلسا ، منقادا لميده بأقل مجهود ؟ لكنه موصد الآن ، محكم ، مستعص ، لأول مرة يواجه الغلق الذى لا علاج له .

يلمح غطاء معدنيا بلون الباب ، يزيحه .. فجوة طولية نحيلة ، ايضا .. مفتاح ليس معه ، لا يمسك به ولم يكن له يوما ، باب يفتح من جهة واحدة فقط ، للقادم ـ أو الذاهب ـ من هناك إلى هنا ، ثم يوصد ، يستحيل اجتيازه للغريب ، كل من يقيمون فى الطوابق العليا يمتلكونه ، المفتاح موجود عند كل منهم ، لا يفصله عنهم سوى تلك الطوابق .

صاحبه لديه مفتاح ، ربما اكثر من نسخة ، لم ينبهه ، لم يطلعه ، كانه يتصور معرفته المسبقة بالبناء وخباياه ، مع انها المرة الأولى التى يزوره ، انه قريب ، لكنه بشكل ما يدرك انه قصى جدا ، يعبر ذهنه صباح شتوى ، مشمس ، قاهرى التكوين ، لحظة عبوره أحد جسور النيل ، تدركه وحشة ، للصمت هموم ، وثقل بغيض ..

عليه التفكير بهدوء ، ان يقصى الجزع . درأ الخوف متعدد الشعب الذى بدأ يطل داخله ، انه قريب من المدخل أو المخرج ، يختلط عليه الذهاب بالإياب ، يتحرك من موضع إلى موضع ، من نقطة إلى اخرى ، داخل تكوين يجهله .

لا بديل للهدوء ، للتانى ، واقصاء المخاوف الغامضة ، وان اشتد عليه هَفى الأفكار وتتابعها ، الم يقرأ ، الم يشاهد افلاما عن عالم الجراجات التحتى ، قتل ، سرقة ، اغتصاب ، اين قرا عن رجل فى الخمسين اغتصب شابة فى جراج ؟ ، لم يتوقف كثيرا امام الحادث ، فما اكثر مظاهر العنف هنا ؟ لم يتوقع انه سيئول إلى مكان مشابه ، جراجات القاهرة من طابق واحد ، قريبة المدى ، لا يخطىء المرء طريقه فيها ، لم يجهل هذه الطوابق المتعددة ، التحتية ، لم يتوقع وجوده فى احدها يوما ، لم ينبهه صاحبه ، وعندما ضغط مفتاح المصعد الأخير ، عندما خرج منه ، لم يدر انه ينتقل من حضور إلى آخر .. مغاير تماما .

ينادى ذاته ، الثبات ، الثبات ، ليس أمامه إلا ان يتبع السهم الذى يشير إلى اتجاه واحد ، عليه الكلمة المضاءة « خروج » ، اى خروج ؟

ما يظنه خروجا ربما إمعان فى الدخول . عليه الإسراع ليتبين موضع مفتاح الضوء ، لحسن الحظ أنه مصنوع من مادة شفافة تضىء تلقائيا فى العتمة . موجود دائما بجوار الأبواب الحمراء التى لا تفتح إلا من جانب واحد .

على الجانبين تقف السيارات ، كل قسم يحمل رقما كتب بحروف سوداء على لافتة مستطيلة من الصاج ، قرب النهاية تبدأ الأرض فى الميل ، يدرك من ثقل جسده أنه ينزل ..

منعطف ، يدور معه ، يفاجأ ، باب حديدى ضخم يسد الممر تماما ، إذن .. كيف تخرج السيارات ، السهم يشير إلى الحاجز الذى يصل ما بين السقف والأرض . لابد من مفاتيح خاصة لدى أصحاب السيارات من السكان تمكنهم من رفع الحاجز ، أيقن عندما رأى مستطيلا معدنيا معلقا إلى الجدار ، فى مستوى قائدى العربات ، بمقدمته فتحة مستطيلة . إلى الجانب الأيسر باب أحمر ، واحد من هذه الأبواب المتشابهة . فوقه لافتة صغيرة ..

خـــروج ..

إلى أين ؟

لا يدرى ..

هل يقدم ؟

وهل من بديل ؟

من المستحيل عبور هذا الباب الحديدى الضخم . إلا إذا اقتربت سيارة ، آتية . أو ذاهبة ، عندئذ يطلب العون من صاحبها ، حتى لغة البلاد لا يعرف منها إلا ألفاظا متناثرة . كلمات محدودة لن تمده بعون يمكنه شرح حاله ، وتقديم موقفه وهويته ، ثم ان الوقت متأخر ، وربما انتظر ساعات قبل ظهور عربة ما .

لا مفر إذن من اجتياز هذا الباب رغم إدراكه مقدما انه سيفتح وبعد الغلق لن يمكنه العودة منه .. يتقبل ذلك الآن كارها ، مضطرا .

لكن .. ماذا يحدث إذا لقى نفسه فى حجرة صغيرة ، معزولة عن البناء ، ان رعدة تسرى عبره ، تنميها تلك البرودة القاسية التى نفذت خلال أنسجة ملابسه وتلامس جلده ..

فليحدق ، فلينظر ، فليتبين قبل المرور ، يمسك المقبض الأبيض ، يديره ، يشده ، يضغط مفتاح الضوء ، هنا بداية سلم أو نهايته ، ضيق ، حلزونى ، مؤدى إلى أسفل . فوق الجدار سهم يشير إلى الأمام ، وكلمة

« خروج » . إذن .. ليست غرفة مغلقة ، ليس ركنا قصيا مهملا ، يؤدى السلم إلى شىء ما .

من أى مادة صنع الباب ؟ ثقله غير مألوف ، الطلاء يخفى طبيعته ، ليس حديديا ، وليس خشبيا ، يضغط جسده . يتقدم . واذ يصغى إلى التكة الخافتة يطاله حزن وأسى ، تكة مختصرة ، دالة ، يعرفها الآن ويدرك ما تعنيه . هذا باب آخر أقفل ولن يفتح له أبدا .

لكن .. لماذا يجزم ؟ ربما اختلف عن الآخرين ، يعود صاعدا الدرجات الأربع ، يحاول إدارة المقبض ، عبثا .. ، انه الإغلاق ذاته ، الحائل المنيع ، ما من مفر ، النزول يعنى الولوج إلى مسافة أبعد ، أو الانتقال من أعلى إلى أسفل ، لكن هذا السهم الخافت ، يبرز كلمة « خروج » مرة أخرى ، أى خروج ، من أين إلى أين ؟

السلم يلتف حول عمود ضخم من الخرسانة ، فى لحظة بدا وكأنه بلا نهاية ، فى لحظة مباغتة ضاع الضوء ، يتحسس الدرج بمقدمة حذائه ، يمضى وكأنه يعوم فى عتمة ، يلمح الضوء النحيل ، الباهت ، الدال على المفتاح . يسرع . يضغطه ..

لم يتبق إلا ثلاث درجات .

ضوء أخفت ، هواء أثقل . برودة أوعر ، وادراك يكتمل بالاقصاء ، يرى قطيرات ماء تنضج عبر الجدران ، أمامه مساحة مستطيلة ، ممتدة ، على الجانبين خانات ، لكن كل منها مغلقة بساتر حديدى من قضبان حديدية نحيلة ، متقاطعة ، بالداخل سيارات ، بعد عدة خطى ، وتطلعه مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار ، يعكمه كمد .

العربات كلها قديمة الطرز ، غبار متراكم ، بعضها تحتويه أغطية من المشمع حائل اللون ، يقترب من مأوى سيارة سوداء ضخمة ، الزجاج الأمامى محطم ، يطل .. ، يرى إطاراتها مفرغة ، باركة ، أما التالية فبدون مقود .

بطل استخدامها . أم نسيها أصحابها ؟ ، يتذكر شارعا جانبيا هادئا بمصر الجديدة ، يدهش .. لماذا تبدو الذكرى صعبة ، بعيدة جدا ، بتأثير الخوف ، الارهاق ، التوتر .. أم لأنه غامض لا يعرفه ، يقطن احد أصحابه فى عمارة عند الناصية . أمامها مباشرة عربة قديمة ، لونها الأخضر حال وبهت ، قال صديقه انه منذ مجيئه وسكنه وما تزال فى مكانها . لا يدرى أين صاحبها ، ولكن على فترات متباعدة يلحظ اختفاء بعض أجزائها ، حتى لم يتبق منها إلا الهيكل الخارجى .

ينطفئ الضوء الآلى ، الموقوت ، الأشد خفوتا ، تعود العتمة الملساء ، لا يدرك ما ينتظره على بعد أمتار ، لم يحدق ، لم يتبين المكان جيدا ، اما الشعور الخفى أن أحدهم يرقبه فلم يواته هنا ، كل ما يعيه الآن انه بعيد ..

يلمح المفتاح المشع ، يعود الضوء الباهت ، الكابى ، تنتهى الصالة المستطيلة ، امامه سهم لكنه أكثر قتامة ، اما كلمة « خروج » فحروفها متآكلة . على الجدار علقت لوحة مستطيلة ، تحوى رسما هندسيا ، مستطيلات ، مربعات ، اسهما ، حروفا صغيرة ، وكلمات رقيقة لا يتبينها ، خريطة المبنى ، تصميم المكان ..

أين هو ؟

فى أى منطقة ؟

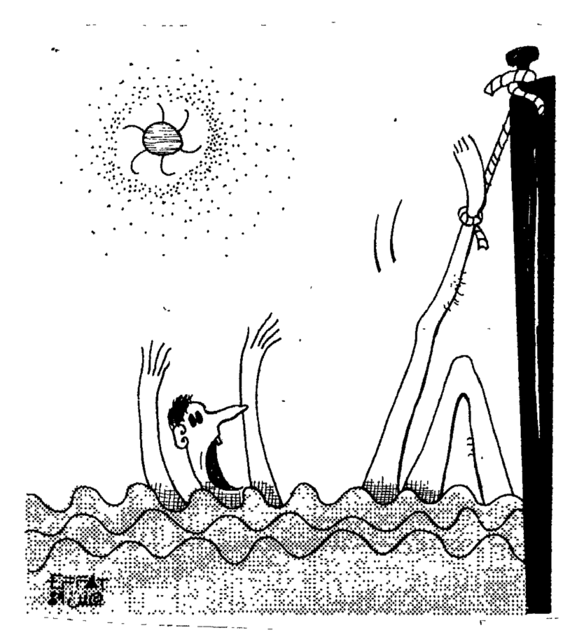
لا يقدر على التحديد ، لا يمكنه فك رموز التصميم إذا صح حدسه ، تميل الأرض منحدرة ، عند المنعطف ممر ضيق . تنتهى المساحة المستطيلة فجاة ، ينتهى بباب اضيق ، اقل ارتفاعا ، حمرته اقتم .. اقتم بتاثير الضوء الواهن ، أم لإرهاق عينيه ، أو لمحاولته استنفاد ما تبقى من قواه ، أم لإدراكه انه قصى ، او لحيرته وتساؤله ،

إلى اين سيؤدى ؟

● ● ●

ديسمبر ١٩٨٨

غرق



أرقت فلم أنم ..
ينزل الليل الشتوى على المدينة والخلاء القريب
مبكرا فتشتد غربتى ، تخلو الطرقات إلا من عابرين
قلائل ، وتغلق المقاهى أبوابها ، تهرع الرياح فتهز
حواف الأشجار ، أما أصداء الأضواء الخافتة البعيدة
فتضاعف بُعْدي .

اعود إلى تلك الاستراحة فيتم اقصائى ، اقابل الليل بمفردى ، خلواً من كل عون ، منبتا ، وما من مساعد !

يقيم فى المبنى مهندس زراعى ، كتوم ، منقول قبلى باسبوعين ، يأوى إلى غرفته مبكرا ، أبقى بابى مواربا ، اصغى إلى صلاته ، مسيحى هو ، احيانا اعبر الصالة ، أرضيتها خشبية ، تصر الألواح المستطيلة ، العتيقة ، ألمحه واقفا فى الركن موليا وجهه تجاه النافذة ممسكا كتابا صغيرا ، يتلو بصوت منغم ، رتيب ، إذ يفرغ يرسم علامة الصليب فى الفراغ مرات ، ثم على صدره ، يقول بصوت مرتفع ..

« تصبح على خير » ..

أجاوبه من داخل حجرتى ، أو أخرج أمام الباب ، يغلق غرفته فينقطع كل حس ، أرتد إلى الفراغ القديم ، الجدران المرتفعة ، السقف البعيد مصباح كهربائى يتدلى سلكه القاتم من المنتصف ، يتوسط غطاء من الصاج الأبيض .

هذا مبنى من طابقين ، يفصله عن المدينة نخيل كثيف ترعة الابراهيمية فى المواجهة ، يحاذيها خط السكة الحديدية ، متابعة القطار سلوائى ، خاصة المتجهة شمالا ، الآن أعرف مواعيدها ، السريع منها والبطىء ،

الفاخر والعادى ، الركاب والبضائع ، يفجعنى صفير القاطرات السريعة ، يتغير مع الحركة ، سرعان ما يتحول إلى صدى واهن لكنه يبث داخلى الحنين الممص ، والرغبة التى لا مجال لتحقيقها ، الرغبة فى التواجد بين الأهل ، ورؤية من اعتدتهم .

فى المبنى ست حجرات ، أربع خالية ، دورة المياه فى الطابق السفلى بعيدة ، أرهب الخطر ليلا فأحصر بولى حتى الصباح إلا إذا اشتد الأمر وغلبنى . يجىء للتنظيف فراش عجوز ، يعيش فى قرية قريبة ، يصل عند انصرافنا ، ويذهب قبل عودتنا ، دائما يوصينا بمفتاح الاستراحة ، أن نحذر فقده ، باحكام الباب الرئيسى ، أولاد الحرام كثيرون ، الناحية منقطعة ، والمبنى قديم ، يظنه البعض مهجوراً . فى الأصل أقيم لمفتشى الرى الانجليز العابرين ، ثم ضم إلى المحافظة ، وخصص منذ سنوات لإقامة الموظفين المنقولين مؤقتا ، حتى يتمكنوا من تدبير أمورهم .

ترى من نزلها قبلى ، ومن سيحل فى ذات الموضع بعدى ؟ ، ينهكنى تداعى الأفكار ومحاولتى وصل أخيلة من أحببت ، أسلم أمرى إلى وحدة قصوى ، ولولا جهاز المذياع الصغير لقض مضجعى ، لم أعتد النوم مبكرا ..

أطفأت المصباح الشاحب منذ ساعة أو أكثر ، أقوم إلى النافذة ، بعد قليل سيعبر القطار الفاخر ، يقوم من القاهرة قبل الغروب ، لا يتوقف إلا فى أسيوط ، ثم يواصل إلى الأقصر ، ركابه أجانب ، غرباء عن الديار ، لسرعته تتصل أضواء نوافذه فى شريط طويل حارق ، يبدد العتمة والصمت لحظات ، يخلف عندى وحشة ، أتطلع إلى أصداء المدينة المتكومة عند الضفة الأخرى من الليل ، حيوات شتى تمضى ، لكننى منفى عنها ، ما من صلة ..

لكن .. ما هذا ؟

همهمات ، أمعن مصغيا ، أمسك أنفاسى ، أحبس شهيقى ولا أطلق زفيرى . من ؟ يندر المرور هنا بعد الغروب ، لم ألمح شخصا منذ قدومى ، من ؟ الاستراحة هدفهم ؟ ، هل أمضى إلى زميلى ، أنبهه إلى خطر وشيك ، راح فى النوم منذ وقت غير قصير ، لم أتحرك ، أنتظر لأرى ، أرهف سمعى ، أى عبث بالباب الرئيسى يمكننى الاصغاء إليه من هنا ، أخشى خطوى ، صرير الخشب ينم علىّ ..

رجل طويل ملابسه بلدية ، عمامته ثقيلة ، ادركه فى مجمله ، يقف عند الزاوية اليمنى للمبنى ، هنا ينتهى الممر الضيق المؤدى إلى النخيل

الكثيف ، يدير ظهره إلى الترعة ، ليس بمفرده ، يلوح بيده .. يتراجع خطوات .. أربعة ..

هكذا بدوا في اللحظات الأولى ، اثنان طوال القامة ، آخران قصيران ، مدكوكا البنية ، لا .. انهم خمسة ، الخامس محمول ، يمسك به أحدهم من جهة واثنان من الناحية الأخرى ، لا اتمكن من الملامح ، لكنني اقدر على تحديد الراس والقدمين والزراعين الموثقتين وراء الظهر ..

يشير اولهم إلى الترعة ، لم اصغ إلى نطق ، ادرك أن يحدد موضعا . يتوقفون ، يتطلع كبيرهم تجاه النافذة .

يرجف نبضي ، لا احيد ، لا اغير وضعي ، اى تقلقل سيكشف حضوري ، اغمض عيني ، أرهب لحظة تتواجه فيها نظراتنا ، اكتشف خلالها انه ادركني ، يستمر تطلعه صوب النافذة . هل انتابه شك ما ؟ هل ينتابه شعور غامض ان ثمة من يراه ، يحجبني عنه الزجاج الذى يعكس الأضواء البعيدة ، ومصراعا السلك القديم الذى يمنع البعوض .

يشير بيديه ، يطمئن من معه ، يطلب منهم التقدم .

إذن .. لم يلمحني .

اواصل ثباتي ، أي تغير في وضعي ربما يدرك بالحس ، يحثهم على الإسراع ، يحاولان رفع القدمين الموثقتين ، غير ان عنتا يبدأ ، في مواجهتي ينتفض الجسد الذى ظننته هامدا ، انات مكتومة مصدرها الأنف ، الفم مكمم ، يميل احدهم فينقطع الصوت .

يهمد النصف الأسفل إذ يمسك به القصيران ، يلفان القدمين بحبل متين ، يثبت ثالث حجرا نقله من الضفة ، يشده ، شخص واحد يمسك الراس تنتفض الكتفان . يضغطه الرجل الجاثى على قدميه ، ينفلت الراس في حركة سريعة يمينا ويسارا .

يبدأ عندي دوار ، لم ادرك ميلي إلا بعد لحيظات وعرة ، يثقل صدرى ، يبدأ داخلي ثقل مرير . ارقب انتفاضات الجسد المراوغة . تقوسه عند الخصر ، يثبتونه من ناحية فيفلت من الأخرى ، امراة او رجل ؟ لا اقدر على التحديد ..

تتوالى عليّ صور ، الطريق الممتد حتى المدينة ، مياه الترعة الهادئة ، الماضية بلا توقف . الجسر القريب المقفر الآن ، المزدحم نهارا ، مرور القطارات السريع ، المارق ، مدخل بيت عائلتي ، دفء فراشي هناك ، وجه يخيل إليّ انني اعرفه ، تساؤل . هل تطلع عليّ شمس الغد ؟ وإدراك بعدم قدرتي !

يقف كبيرهم ، لا يشارك في محاولة اخراس انتفاضات الجسد المسجى عنوة ، إشاراته سريعة ، مختصرة ، دالة ، حازمة ، مع بدء حركة يده تتردد الدماء عن المضى داخلى ، تتوارى حقب من وجودى ، اتلخص فى لحظة آنية لا اثق من اتصالها باخرى .

هل طغى الهمود ؟ هل خبت الجذوة ؟ . عندما بداوا ربط الحجر بالعنق تبزغ انتفاضة هائلة . لم تتبعها ولو حركة ضئيلة . رجفة أعى بقاءها فى ذهنى إذا ما قُيد للأيام التوالى ، لو استعيدها بالمخيلة اجزع ، ينزل علىّ صمت إذا صرت متكلما ، اكف إذا تواصلت حركتى ، يسدل على ملامحى وجوم إذا لفنى بشر وجمعتنى صحبة .

انتهوا من ربط الأحجار ، كم ؟ لم استطع التحديد ، اقدرها بخمسة ، اثنان عند القدمين ، مثلهما إلى الخصر ، وحجر شد إلى الرقبة . يحملونه ، تتدلى الأحجار ، يخبط احدها الآخر ، تنبئنى حركتهم البطيئة بثقله ، من ردود افعالهم امكننى تقدير الرجفات المتتالية ، لم ينته الامر ، باستطاعتى الزفير البطىء بعد ان اثقل صدرى ، يتراجعون فجاة . يزداد ميلهم إلى الأمام ، يسرع كبيرهم عند دنوهم من الضفة . يفسح مجالا بينهم ، يسهم فى حمل الجثمان ام ماذا يفعل ؟

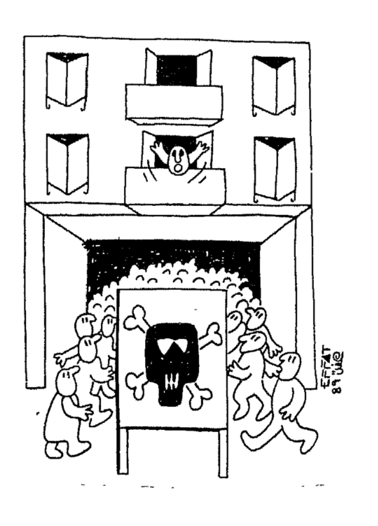
لا أدرى ، لكننى ادرك الآن اننى وحيد تماما ، ناء عن كل مساعد ، غير قادر على المضى إلى زميلى وإيقاظه .

يرفعون الجسد بصعوبة . لم اخطىء رؤية آخر الانتفاضات المتعاقبة فى الفراغ ، محاولات الإفلات الأخيرة ، المجدبة ، اليائسة ، المتطلعة إلى فراغ بعيد . قبل اللحظة التى يصطدم فيها بمياه الترعة ، يعتدل كبيرهم واقفا ، يميل محدقا . يده تمسكان بركبتيه .

يتناثر رذاذ ، أصغى إلى وشيشه ولا أراه ، لم يحدث طفو ولو لجزء من الثانية ، تلتحم قطرات الماء المنتزعة مرة أخرى بسطح الترعة . تتصل بالأصل يظل الرجل منحنيا ، لا أرى الرجال الأربعة ، لا اشرع حتى فى تعقبهم بالفكر لم اعبا . ربما لمحونى ، ربما يدورون حول البناء العتيق فى محاولة للنفاذ إلىّ ، يوثق بصرى وتحديقى إلى هذه النقطة ، فى مواجهتى ، تستقر فى الأعماق الانتفاضات والرجفات ومحاولات الإفلات ، وإرهاصات البداية ، أما ثباتى فطال امره ، يتعاظم ثقل بغيض داخلى ، حتى اننى لا اقدر على التراجع خطوة ..

● ● ●

يناير ١٩٨٩




بوابة

.. هكذا مضى الأمر إلى ما انتهى إليه . إلى ماأصبح معروفا ، شائعا ، عند القريب والبعيد ، حكايات شتى تتردد ، بعض تفاصيلها نشرت فى الصحف ، خاصة المعارضة ، أن تلميحا او تصريحا ، لكن لم يتبدل شىء ، ولم يعلن عن اجراء . انما ثبت الوضع ، انه معروف الآن للكافة ، مطروق من الجميع ، خاصة بعد أن طال الدرجتين الأولى والثانية بنوعيهما ، العادى والفاخر .

عندما ظهر لأول مرة هنا ، عرفه البعض كمستأجر للدكان الصغير الذى حوله إلى مقهى ، ليس مقهى بالمعنى الحرفى ، لكنه محل لاعداد الشاى والقهوة ، كان فى الأصل لتاجر أصباغ بلدية ، عاد إلى بلدته فى الصعيد فجاة بعد أربعين عاما متصلة قضاها هنا ، صفى تجارته وذهب ، ولم يعرف أحد سببا لذلك !

بقى الدكان مغلقا لفترة ، عدة شهور ، حتى ظهر فيه عبده الأسمر ، نحيل ، طويل ، لم ير إلا مرتديا بنطلونا واحدا من قماش الجينز ، وقميصا لم يغيره حتى بعد ان جرى أمره وأفرخ حاله .

عرفه الناس واشتهر أمره بينهم ، خاصة الشباب ، لأنه يمت بصلة قرابة للاعب كرة مشهور يلعب فى فريق نادى الزمالك ، شوهد مرة واحدة عندما جاء جلس إلى المنضدة التى تقع إلى يمين الداخل ، وشرب كوبا من القرفة ، عبده الاسمر ترك مافى يده وجلس إليه ، تحدثا فترة قبل ان يشيع أمر وجوده ويجيىء نفر للسلام والتحية .

مرة لاغير ، لم تتكرر ، لكن بعدها راج المقهى ، وضاق عن استيعاب مريديه من شباب الحى ، وبعض الموظفين ، اضطر عبده الاسمر إلى شراء اربع مناضد إضافة إلى الاثنتين الموجودتين بالداخل ، عصر كل يوم يرصها . يصف المقاعد فوق الرصيف ، أحيانا يجىء أحد رجال البلدية ، يبدى ملاحظة أو احتجاجا ، لايطلب مباشرة ، انما إذا لقى مجاوبة وتناول مافيه النصيب يمضى سلكنا وكان شيئا لم يكن ، وأحيانا يقول أحدهم انه تجاوز عن تحرير المخالفة من أجل اللاعب الشهير الذى تطل صوره المقصوصة من الصحف والمجلات من فوق جدران الدكان .

يقع المقهى تحت بيت من طابقين ، إلى جواره عمارة من خمسة طوابق تمت بدايتها إلى اربعينيات القرن عندما كانت الحقول تمتد هنا وهناك ، ولم يكن إلا بنايات قليلة متناثرة ، معظمه قرب السكك الحديدية .

الطريق حديث ، شق فى نهاية الخمسينيات . خصص أخيرا لمرور العربات فى اتجاه واحد فقط ، يطل المقهى عليه ، كذا العمارات القليلة والتى تتخللها ورش خراطة ، واصلاح عربات ، ومغلق للخشب ، وخرابة لايعرف أحد مصدرها ، ومخزن تابع لشركة التامين القومية ، الجانب الآخر من الطريق يحدده سور قديم من الطوب الأحمر الصلد . متوسط الارتفاع ، أعلى قليلا من قامة انسان مكتمل ، هنا وهناك سيمافورات ، واعمدة غليظة تنتهى بقطع مستطيلة من المطاط ، ما بين القضبان اكتسى لونا اسود قاتما غطى حتى الفلنكات الخرسانية التى وضعوها بدلا من الخشبية القديمة . طوال النهار والليل لاتكف الحركة .

هنا ورش ومخازن القطارات ، يقع المقهى بالتحديد فى مواجهة مدخل الجزء المغطى ، السقف المعدنى القديم ، حيث يتم تجهيز العربات ، وشدها إلى بعضها ، وتنظيفها ، وإعدادها للسفر ،

فوق السور ، فى المواجهة تماما ، لافتة خشبية عتيقة ، بيضاء فى الأصل ، مرسوم عليها جمجمة وعظمتان متقاطعتان ، وعبارة تحذر من عبور المشاة ، برغم التحذير القديم لم يتوقف الكثيرون عن محاولة التسلق والعبور تفاديا لصعود الكوبرى المرتفع ، والذى يمكن رؤيته إلى الناحية اليمنى من امام المقهى ، يصل بين شرق السكك الحديدية وغربها ، هناك تقوم المساكن الشعبية المتراصة التى اقيمت مع بداية الخطة الخمسية الأولى حتى انتبه عبده الأسمر ؟

ثمة روايتان متداولتان ، تقول الأولى انه راى رجلا يحاول عبور السور حاملا حقيبة ، ولكنه لم يقدر ، فتقدم عابرا الطريق ، ومد إليه يد

المساعدة ، وسأله عن مقصده ، فقال الرجل انه قطع تذكرة سفر من المحطة ، لكن الزحام هناك شديد ، وسفره طويل ، لهذا جاء الى هنا ليحاول ركوب العربة من المخزن قبل دخول القطار المحطة وهجوم الخلق عليه .

وتقول الثانية ان عددا من الغرباء بداوا يترددون على المقهى ، يقضون فترات طويلة ، معظمهم من الجنوب ، يجيئون ومعهم حقائب منتفخة ، وبطاطين ملفوفة ، واجولة من البلاستيك ، بعضهم يجيء من المطار مباشرة ، فى البداية لم يلتفت إلى الأمر ، فالمقهى على طريق عام ، سريع . وزبونها « نقالى » ليس له صفة المواظبة ، والدوام ، باستثناء قلة ، يعرفهم الآن بالاسم ، يجذبهم إليه قرابته من لاعب الكرة الذى قيل انه اهداه جهاز التليفزيون الملون الذى ظهر فى المقهى ، فى ايام المباريات يخرجه ، ويضعه فوق منضدة مرتفعة القوائم ، يرص المقاعد متجاورة ، كان يروح ويجيء صامتا ، بين يديه صينية المشروبات ، لايلتفت إلى التليفزيون ، هوالذى يعد القهوة والشاى ، وهو ايضا الذى ينتقل هنا أو هناك ملبيا طلبات الزبائن ، واحيانا يغيب دقائق عندما يمضى إلى عمال مغلق الخشب المجاور ، أو المخزن القريب ، لم يكن يكف عن الحركة ، ويجلس بين الشاهدين إلا فى حالتين ، الأولى عند اذاعة المباريات التى يلعب فيها نادى الزمالك ، وعندما يظهر قريبه ، او يذكر المذيع اسمه ، يتطلع إليه القوم مبتسمين ، أو يصفقون مجاملة ، لكنه يظل متطلعا مشدودا ، وكانه يتفرج بمفرده . لكنه لايلزم الصمت عندما يسأله البعض عن اخبار اللاعب الشهير ، هل يواصل التمرين ؟ هل سيلعب فى المباراة القادمة ؟ هل شفى من الإصابة التى لحقت به مؤخرا فى افريقيا ؟ وربما سأله احدهم همسا عن الاشاعات القائلة بزواجه سرا من راقصة معروفة ، وذاع صيتها مؤخرا بعد ان قامت ببطولة المسلسل التليفزيونى الأخير ؟ يجيب ذاكرا تفاصيل دقيقة ، يؤكد او ينفى ، يهز راسه أو يشير باصبعه ، أو يطلب ارجاء الإجابة إلى ما بعد لقائه به غدا او بعد غد .

أما الحالة الثانية التى يتسمر فيها امام التليفزيون ، فهى ظهور ممثلة شابة صاعدة . يتدفق فيضها الانوثى عبر الصور فى الصحف والمجلات ايضا ، يشترى المجلات الفنية التى تنشر عنها ، ويعلق صورها داخل المحل بجوار قريبه ، ويؤكد البعض انه يكتب إليها خطابات بصفة منتظمة ، هذا ما كان من حاله تجاهها فى اول امره ، وان اختلف بعد ذلك .

كان يتحرك طوال اليوم ، لم يره أحد من رواد المقهى جالسا إلا نادرا ، هو الذى يجهز المشروبات ، ويقدمها أيضا ، استمر فترة طويلة بمفرده ، يعد المشاريب ويحمل الصوانى ، ويرص الجمرات والمعسل ، وآخر الليل يلملم المقاعد ، يكومها فى صفوف مستطيلة بالداخل ، ثم يفرش حشية فى الفراغ الضيق المتبقى . وينام بعد ان يغلق الباب ، لم يكن له سكن فى البداية ، وان استأجر فيما بعد شقة فى الطابق العلوى من المبنى المجاور بعد ان انتقل سكانها إلى مدينة نصر ، وتقاضى منه صاحب المِلْك خلوا معقولا .. لكن متى انتبه ، متى بدأ ؟

الحقيقة ، لا يمكن القطع أو التحديد ، حتى هو نفسه ، لكن هناك واقعة رواها هو ، إذ جاءه ذات ليلة أربعة رجال أشداء من ابناء مدينة طما ، كانوا قادمين من المطار ومعهم حمولة ثقيلة ، قعدوا ، قال أحدهم ان امامهم مشقة ، إذا ركبوا القطار من المحطة لن يتمكنوا من الجلوس ، الزحام شديد ، ومشوارهم طويل ، صعب قضاء عدة ساعات وهم وقوف ، قال أحدهم ..

— تصدق .. اننا مسافرون منذ أربعة أيام ..

خرجوا من طرابلس الغرب يوم الجمعة الماضى ، وانتظروا فى مطار مالطة أربعة أيام ، رحلة صعبة ، وبهدلة لاحد لها ، منهم فاحت رائحة عرق وتعب ، طمانهم ، طلب منهم ألا يعولوا هما ، فالأمر يسير ، تلفت حوله ، ثم عبر الطريق ، بخفة اعتلى السور ، قفزة واحدة ، غاب عن ابصارهم ، عاد بعد دقائق ، قال ان كل شىء جاهز ، حجز لهم أربعة مقاعد متجاورة متواجهة فى إحدى عربات الدرجة الثالثة ، وانهم يمكنهم البقاء والتحرك قبل موعد قيام القطار بربع ساعة فقط . ذهابهم قبل ذلك سيعرضهم للمتاعب من القائمين على امور المخزن ، أو من شرطة السكك الحديدية ..

دعوا له بالتوفيق ، والسداد ، لم يمانعوا عندما طلب منهم جنيهين فقط ، سيقوم بدفعهما إلى أحد الأشخاص الذى سيجيىء إلى الناحية الأخرى من السور ، ويصحبهم حتى العربة . قال ضاحكا : لا بد من دليل فالمخزن كبير ، ولاتوجد أرصفة ، والعربات متشابهة ، واحيانا يتم تبديل بعضها وفصلها من هنا والحاقها هناك ، وهكذا .. بدلا من سفرهم إلى طما يمكن ان يجدوا انفسهم فى مرسى مطروح ..

ضحكوا . قال انه لم ينس ابدا انفراجة فم أحدهم ، وتراجع رأسه إلى الوراء ، واهتزاز جسده بالضحك فترة ، مما أدهشه فلم ير فى قوله سببا لهذا الضحك كله .

يقول إنه لن ينسى ابدا ملامحهم ، ولاملمس الجنيهين ، نال منهما واحدا ، اول رزقه من هذا الباب ، لكن .. هل مجيء هؤلاء تم صدفة ؟ أم أن احدهم أرشدهم إليه . عبده الاسمر لم يحسم ذلك ، ولم يشف غليل أقرب الناس منه عندما تنتابه حالات الصفو ويحكى مطولا ، ويقص تفاصيل عديدة ، معظمها لايمت إليه ولا يخصه .

على اية حال ، في صباح اليوم التالى مباشرة تكرر ذلك ، جاءه مدرس فى منتصف العمر ، منقول إلى قوص ، يحمل حقيبة صغيرة ، بدا حزينا ، مكتئبا ، نافرا من الرحيل ، شرب كوبين من الشاى ، وسال عن النشالين فى القطار ، صمت ، ثم هز رأسه مرتين ، وأبدى إشارة تعجب من يده مرة ، وقبل اعتلائه السور بدقائق . قال :

— هل تصدق انها المرة الأولى التى افارق فيها عائلتى ؟

لم اسافر إلا مرة اثناء دراستى فى رحلة إلى أسوان والآن .. أمضى إلى بلدة لا اعرف فيها أحدا ..

تطلع إليه ، وحنى عليه ، أدرك ما يمر به ، لم ينس ملامحه لفترة ، ولم يره مرة أخرى .. قال له :

— توكل يارجل وقابل أيامك بقلب رضى ونفس مفتوحة هل انت متزوج ؟

يهز المدرس رأسه .

— من يدرى ، ربما تجد ابنة الحلال هناك ، وتعيش أحلى أيامك .. توكل على الله ، توكل يارجل ..

الحق انه كان بشوشا ، مرحا ، سريع الاستجابة ، لكنه يعود دائما إلى صمته بسرعة ، فكأنه أدى دورا خاطفا ثم عاد إلى طبيعته .

فى اليوم التالى لسفر المدرس شوهد كسر أعلى السور . طوله حوال متر ونصف وعمقه نصف المتر ، لايعرف أحد متى اقيم السور ، هل بنوه مع مد السكك الحديدية ؟ أو فى فترة لاحقة ، بعض القدامى خاصة من العاملين فى مغلق الخشب يؤكدون ان الانجليز هم الذين اقاموه اثناء الحرب العالمية الثانية لاخفاء حركة القطارات العسكرية ، خوفا من عيون عملاء المحور ، المهم انه شيد من الحجارة الغليظة ، والطوب الأحمر الصلب ، استعصى سنوات على أهالى الناحية الذين حاولوا مرارا إحداث ثغرة فيه للعبور تجنبهم صعود الكوبرى المعدنى المرتفع ، لكنهم فشلوا ، البناء عريض ، متين .

كيف ازيل هذا المقدار ؟ . لا احد يدرى ، لكنها اتسعت فى الأيام التالية بحيث اصبحت فتحة طويلة ، تسمح بمرور رجل او امراة بدون بذل اى محاولة للتسلق ، وفيما بعد جرى تسوية الجانبين ، والعتبة القليلة الارتفاع ، وتم تركيب باب من الحديد المتين ، له قفل ، مفتاحه عند عبده الاسمر او بعض معاونيه الذين جاءوا مع زيارة المسافرين ، وتعقد امور العمل ، لايعرف أحد بمن اتصل عبده الاسمر؟ بمن اقام العلاقات الوثيقة ؟ لكن أصبح معتادا تردد عدد من العاملين هناك فى تجهيز العربات او تنظيفها أو صيانتها ، وإعدادها للسفر ، ويجلسون إليه ، يتبادلون المزاح ، يدقون الكف ، ويستفسرون عن أخبار قريبه الشهير ، او يبدون ملاحظاتهم على لعبه فى المباراة الأخيرة ، يطلبون منه ابلاغ تحياتهم إليه ، ورغبتهم فى رؤيته ، فيعدهم خيرا .

فى فترة قصيرة ، وجيزة جدا ، أصبح ملما ، عارفا بكل تفاصيل المخزن ، اقسامه ، اركانه ، القائمين على اموره خلال نوبات العمل المختلفة ، ليس العمل فقط ، انما المهندسون ايضا ، القدامى منهم وحديثو التخرج ، بدا وثيق الصلة بهم ، متداخلا بينهم ، فطنا بطباعهم ، كأنه يعرفهم منذ زمن طويل ، ثم شرع فى ترتيبه .

بدأ بذلك الدفتر الصغير الذى احتفظ به حتى فى الفترات التالية والتى شهدت ازدهاره . ونمو أمره ، وطلوع سعده ، دون فيه مواعيد تجهيز القطارات وأوقات تحركها من الورش إلى الأرصفة ، عدد المقاعد فى كل عربة . والعربات الإضافية التى يتم إلحاقها بالقطارات فى أيام الزحام ومواقيت الشدة .

بدأ الأمر بعربات الدرجة الثالثة ، ركابها أول من سعوا ، كان عددهم محدودا ، صحبهم ، عبر بهم الطريق ، بل ساعدهم فى حمل الامتعة . لكنهم تزايدوا مع مرور الأيام ، ازدحم المكان ، صار يطلب منهم افساح طريق للخروج والدخول ، او الانتظار بعيدا ، بعضهم يفترش الرصيف الضيق ، يجلس منتظرا ، اطفال ، نساء ، رجال ، يظهر عبده الاسمر ، ينادى على ركاب قطار الثامنة والنصف قبلى ، السريع ، العادى ، يتقدمون ، يتبعونه ، يفتح البوابة ، يبدأ عبورهم ، واحدا واحدا ، ينهرهم احيانا لتدافعهم ، وتزاحمهم . خلف السور يقف احد العاملين بالمخزن ، عند حد معين يصيح ..

— كفى ..

يتقدمهم إلى العربة الصحيحة ، فيما بعد تيسر الوضع ، أصبح هناك

شخص يلازم السور باستمرار ، بينما يقوم آخرون بمرافقة المسافرين واجتياز القضبان المتقاطعة ، المتصلة ، وتحذيرهم فى مواضع الخطر ، ونهرهم أحيانا ليلزموا الصمت . أو الحذر ..

اشترى خزانة حديدية ضخمة قديمة عليها رسم بارز لرجل أجنبي يمسك أوراقا مالية ، تفتح بعد لف مقبض نحاسى مستدير عدة مرات ، اشتراها من سوق الرويعي القديم ناحية العتبة ، وضعها فى الزاوية اليمنى ، احتلت حيزا ، لكنها ضرورية ، فالمبالغ فى ازدياد ، والاحتفاظ بها فى الدرج الصغير لم يعد ممكنا ، إذ يجب عليه حفظها حتى ساعات معينة من الليل ، يجيء إليه عدد من العاملين هناك ، لايطيلون المكث أو البقاء ، وإذا جلس احدهم فإنه لايظل أطول من الوقت اللازم لشرب كوب الشاى أو فنجان القهوة ، لم يغب عنه الهدف الحقيقي من الجلوس اليه ، مراقبة الأسعار التى تم الاتفاق عليها ، والتى حددها طبقا لمسافة المسافر ، فليس من المعقول ان يدفع الراكب الذى يقصد المنيا نفس المبلغ الذى يستحق على الراكب المتجه إلى ادفو او أسوان مثلا . الحقيقة انه التزم الدقة ، ولم يبالغ ، بل اكد انه دفع من جيبه لبعض العجائز جدا الفقراء الذين لم يكن باستطاعتهم تحمل قرش واحد زيادة عن ثمن التذكرة . كان يعلم انهم يدسون عليه البعض للتاكد من التزامه بالأسعار ، لكنه لم يعبا ..

ضايقه بعض رجال البلدية ، وآخرون يمتون إلى الجهات المعنية ، لاستمرار المقهى مفتوحا إلى ما بعد المواعيد المحددة ، لكن يبدو أن قريبه تدخل عند ذوى الاختصاص ، واستخرج له تصريحا يقضى ببقاء المكان مفتوحا لمدة اربع وعشرين ساعة ، بعض الجيران قالوا انه دفع مبلغا كبيرا مقابله ، لكنه لم يثبت صحة ذلك . احدهم أرسل شكوى ، توجه إليه عبده الأسمر ، عاتبه ، هل ضجيج المقهى أعلى أم ضجيج القاطرات التى لاتكف عن اطلاق صفاراتها طوال الليل ، ثم أخرج أصل الشكوى من جيبه ، مزقها على مرأى من آخرين تجمعوا ، بعدها لم يسمع أحد بأية شكوى أخرى مماثلة .

صباح أحد الأيام توجه إلى فرع البنك الأهلى القريب ، وبعد أيام وصله مظروف أصفر مسجل استلمه بعد أن وقع لساعي البريد الإيصال الخاص . تأمل طويلا أول دفتر شيكات يمتلكه فى حياته ، لم يستخدمه ، لكنه عند دفع مبلغ كبير يسأل ..

— نقدا أو اكتب لك شيكا ؟

طبعا يفضل العاملون بالورش والمخزن تقاضى انصبتهم نقدا وعدا ،

تحرير شيك وقبوله أمر فيه مخاطرة ، هذا يعنى اثبات تقاضيهم مبالغ منه . ولكن السبب الأبرز . هو اضطرار حامل الصك للذهاب فى مواعيد معينة ، والانتظار ، والمرور بإجراءات عديدة ، مأسهل تسلم النقود مباشرة ودسها فى الجيب !

مع مرور الأيام ، وإقبال الخلق ، ازعجه أمران ، أولهما ضيق المكان ، الدكان لم يعد مناسبا إطلاقا ، والثانى توزيعه النقود يوميا على أولئك الذين يسهلون الأمور داخل المخزن .

بالنسبة للمكان ، لم تستمر المشكلة ، ويبدو انه تحرك بسرعة بعد ان نصحه أحد الكبار هناك بالبحث عن مكان أفسح ، بدلا من هذا الزحام وتلك الجمهرة اللافتة للنظر ليلا ونهارا ، استيقظ السكان يوما فوجدوا مغلق الخشب مقفلا ، غاب صاحبه العجوز ، والملاحظون ، والعمال ، بعد ثلاثة أيام لاغير فتحت الأبواب ، وظهر عدد من العمال ، بدأوا اجراء تعديلات ، هدموا حواجز فاصلة ، رمموا الجدران ، نقلوا أكداس الخشب إلى أماكن غير معلومة ، تم تبليط الأرض ، اتضحت معالم المكان ، مقهى فسيح ، لايوحى مدخله الضيق ، المكنون بمدى رحابته ، المدخل ضيق ، الباب منخفض ، على جانبى الصالة صفت المناضد والمقاعد وفى وسطها أيضا ، إلى الركن الأيمن حاجز نصفه من الخشب ونصفه العلوى من زجاج مصنفر ، خصص لانتظار العائلات ، كثير من أبناء الصعيد كانوا يلاقون حرجا وضيقا إزاء بهدلة حريمهم أمام الدكان الضيق ، فى نهاية الصالة دورتان للمياه ، الأولى للرجال والثانية إلى الناحية الأخرى للنساء ، لم يقدم الشاى والقهوة والقرفة والحلبة والنرجيلات فقط ، لكنه خصص ركنا لاعداد السندويتشات الخفيفة ، كثير من المسافرين يحتاجون إلى طعام يسير لطول الرحلة ومشقة السفر . قال عبده الأسمر لبعضهم انه يفكر فى انشاء فندق من عشرة طوابق ، للانتظار والراحة ، يدفع النزيل مقابل عدد ساعات إقامته ، إن ليلا أو نهارا . بدلا من الانتظار فى المقهى ، أو فوق الرصيف ، عدد كبير يجىء من المطار مباشرة إليه ، لمثل هؤلاء يبيع تذاكر السفر أيضا ، بعد اتفاقه مع أحد العاملين على بيعه مقدما عددا من التذاكر يوميا ، وإذا زاد المنصرف عما لديه يرسل أحد أعوانه ، لايقف فى طابور المنتظرين ، انما يدخل مباشرة يحصل على العدد المطلوب ، لايستغرق الأمر إلا دقائق معدودات .

انه يولى اهتماما خاصا للقادمين من المطار . حمولهم ثقيلة ، ورغبتهم فى الإسراع بالسفر قوية ، وقدرتهم على الدفع أقوى ، كما أن فرحهم

بالوصول يصاحبه كرم سهولة فى الانفاق ، فى إخراج القرش ، يعرف الآن مواعيد وصول الطائرات ، خاصة القادمة من العراق أو عمان . يحسب مدة انتظار الحقائب ، والجمارك ، والمسافة ، ثم يومىء إلى بعض مساعديه ..

— طائرة بغداد على وشك ..

يسرى تأهب . هذا يعنى ضرورة إخلاء مساحات للحقائب الضخمة ، والأجولة المنتفخة ، والصناديق ، كثيرا ما تحدث عن هذا الفندق ، يستريح فيه المسافرون ، ومنه يخرجون مباشرة إلى البوابة لعبور السور ، سيخصص فى الطابق الأول معرضا لبيع المأكولات ، والهدايا . بحيث يجدون كافة مافاتهم شراؤه من المدينة ، مشروع كبير فى حاجة إلى أعداد ورأس مال . والأهم إقناع سكان العمارات المجاورة ومن قبلهم الملاك ، لابد من الشراء والهدم ثم البناء . فى هذا الوضع بالتحديد ، الفندق لابد أن يقام هنا فى مواجهة البوابة .

ابناء المنطقة تبادلوا عبارات شتى حول الحظ الذى ابتسم له ، حاول بعضهم تقدير دخله اليومى ، وتذكره آخرون عندما جاء ، واستأجر الدكان ، والله .. كان يمشى ببنطلون مقطوع . وحذاء قديم يوشك أصبعه أن يطل منه ، أشاد البعض بأخلاقه ، هدوئه ، وذكائه فى استغلال الموقع والظروف ، السور قائم منذ عشرات السنين ، هل فكر أحد مثله ؟

عندما اكتملت معالم المقهى الجديد ، تذكر بعض الجيران تردده اليومى مرات عديدة ، يحمل صوانى المشروبات ، كثيرا ما نهره المعلم ، وزعق فى وجهه . مرة لنقص السكر فى الشاى ، ومرة لأن القهوة بدون « وش » ، سبحان مغير الأحوال ، لم تمض إلا مدة بسيطة حتى اشترى المخزن ، وقال البعض إنه دفع مبلغا كبيرا مقابل اخلائه ، وانه استأجره من المالك الأصلى ، ولكن آخرين قالوا انه اشترى الأرض ايضا ، ولم تعرف حقيقة ذلك ، عبده الاسمر كتوم ، قليل اللفظ ، ولا يرد إلا إذا بادره أحد بالكلام ، عندئذ يبدى المجاوبة والحميمية ، كأن الصلة من قديم ، ولم تتغير طباعه بعد اتساع نشاطه . وجريان المال بين يديه .

لن ينسى ابناء المنطقة يوم افتتاح المقهى ، جاء عضو مجلس الشعب عن الناحية ، ورئيس الحى ، وقام بقص الشريط لاعب الكرة الشهير ، كما تم تصوير الحفل بالفيديو . وعلى الرصيف رصت باقات زهور ضخمة ، أحدها مرسل من عمال ومسئولى مخزن القطارات ، وآخر من مهندسى الورش . وثالث من صحفى معروف يظهر اسمه فى جريدة صباحية ، فى

هذا اليوم شوهد عدد من قدامى العاملين فى « مغلق » الخشب ، اثنى الناس عليه ، لأنه لم يقطع عيشهم ، انما استعان بهم فى خدمة المسافرين ، وتنظيم انتقالهم وعبورهم البوابة .

عبده لم يغير موقعه الأصلى ، يبدو انه يتفاعل بالمقهى الصغير ، لم يغير معالمه . أصبح مكتبا له ، مع بقاء « النصبة » التى أعد فوقها الشاى والقهوة زمنا طويلا ، استبدل الخزانة الحديدية الضخمة بأخرى أصغر حجما ، تفتح بأرقام معينة لايعرفها إلا هو ، صباح كل يوم يفتحها ، ويذهب بنفسه لإيداع الإيراد . من موقعه هذا يتابع أدق التفاصيل ، بدءا من تنظيف المقهى ، وتغطية أرضيته بنشارة الخشب ، ثم كنسها آخر النهار ، إلى عملية حجز اماكن المسافرين ، وصرف قطع صغيرة من الورق الملون ، كل لون يعنى مسافة معينة ، كل ورقة تحمل رقمين ، العربة ، والمقعد ، هذا خاص به هو ، إضافة إلى تذاكر السفر التى توسع فى بيعها من المقهى مباشرة ، لكنه أحاط هذه العملية بسرية خاصة . وأسند مسئوليتها إلى شاب نحيل أسمر مثله من اقاربه ، وهذا شاب صموت مثله ، لكنه يردد دائما انه جامعى دفعة الف وتسعمائة وخمسة وثمانين !

الأمر الثانى الذى سبب له ربكة فى البداية ، فتوصل إلى حله ، لكن بعد صعوبة ، التقى مرارا بالعاملين فى مخزن القطارات ، ناقشهم ، أجرى معهم حوارات مكثفة ، مطولة ، واستخدم خلالها آلة حاسبة صغيرة جدا ، كان يضعها فى جيب قميصه الأمامى ، يبدو انه نجح فى أقناعهم ، فبدلا من التردد عليه يوميا لاستلام انصبتهم ، اقترح تخصيص مبالغ ثابتة يقدمها اليهم بداية كل شهر ، متوسط عدد الركاب معروف الآن تقريبا ، انه ياخذ فى الاعتبار ايضا ايام تزايد الحركة عن معدلها ، الأعياد والمواسم ، كل شيء منظم الآن ، لكل مسافة سعر معروف ، لم تحدث مشاكل خلال الفترة الماضية إلا فيما ندر ، ثم ان المبالغ إذا سلمت إليهم أوائل الشهور تكون فاعليتها اقوى ، إذ تتزامن مع استلام المرتبات ، المرتبات التى لم تعد تفى بالحاجات الضرورية ، الأسعار ترتفع يوميا ، وسعر اليوم ليس سعر الغد ، طبعا الموظف هو الضحية أولا وأخيرا ، هذه بوابة للرزق ، ومادام الخير وفيرا فليعم الجميع .. ولكن وفقا لنظام واصول !

اكد لهم أنه يراعى الحق والضمير ، لن يأخذ اكثر من حقه . ثم هناك وجوه أخرى للانفاق ، مثلا .. عدد العمال الذين اضطر لتشغيلهم حتى يمكن ضبط الأمور ، الديون المتبقية عليه من تكاليف هذا المقهى الجديد ، هناك مصاريف أخرى لايمكنه الافصاح عنها ، لكنها لازمة وضرورية حتى

يستمر العمل في هدوء ، بعيدا عن اى ضجة أو مضايقة ، أولاد الحرام والمتربصون كثيرون ، وهذه البوابة يمكن ان تغلق في اى لحظة باجراء بسيط جدا .

هل اتضح كل شيء الآن ؟

الحق انهم ابدوا الاقتناع ، وكما قال احدهم بعد انصرافهم ، لم يكن بوسعهم غير ذلك ، فهو يمسك بهم تماما ، يدير الأمر وكانه خلق له ، يعرف كافة العاملين الآن . والمواعيد ، والحالة الفنية للقاطرارت . والعربات ، واعداد المقاعد ، خلال المناقشة فوجئوا بصرامته ، وعباراته القصيرة ، ولهجته الصلدة لأى نقاش ، الرافضة للمجاوبة . فكانه عبده آخر غير الذى يعرفونه .

على اى حال وافقوا ، وانتزعوا منه وعدا بصرف مبالغ إضافية فى الأعياد والمواسم ، وعند دخول المدارس .

الحق انه لم يقصر ، حق كل منهم يصله ، لم يضطرهم إلى التردد عليه ، بل انه تدخل لدى رؤساء بعض الاقسام لحل مشاكل عاتى منها صغار العاملين ، اصبح المقهى الجديد من معالم المنطقة ، واشتهر امر البوابة فى القرى والمدن البعيدة ، وبين المصريين المغتربين فى البلاد العربية ، لم تفتح اى ثغرة اخرى فى السور ، رفض عبده الاسمر اقتراحا من احد المهندسين الشبان الملتحقين حديثا بالورش فتح بوابة اخرى لتسهيل مرور الركاب ، اكد ان هذه تكفى ، بوابة واحدة يمكن ضبط الأمور من خلالها ، ولكن إذا تعددت البوابات ستبدأ متاعب عدة .

ان البوابة التى تم تركيبها من خشب متين ، طليت بلون الجدار ، تبدو الآن وكانها جزء منه ، يتعاقب على حراستها رجال أشداء استعان بهم عبده الأسمر لفض اى منازعات ، ولترتيب مرور المسافرين ، بعضهم مدربو رياضة قدامى ، عملوا فى نادى الزمالك ، وجاء بهم قريبه ، وتردد انهم يتقاضون مرتبات عالية ، حتى ان عاملا قديما بالورش جاء يوما إليه ، وقال انه يقصده فى خدمة ، ويرجوه الا يرده خائبا . ولما تطلع اليه صامتا ، قال الرجل ان ابنه تخرج من كلية الزراعة منذ عامين ، يعنى مهندسا زراعيا ، ولم يعمل بعد ، انه قعيد البيت ، لكنه يحتاج إلى مصروف يومى ، على الأقل جنيه ونصف ، الولد جيد ، على خلق ، وشغال ، لكنه يخشى عليه من الفراغ ، ولايعرف ماذا يمكن ان يحدث له ؟ . كل مايرجوه ان يلحق ابنه بأى عمل فى المقهى ، او عند البوابة ، حتى يقضى الله امرا كان مفعولا .

تطلع عبده الاسمر إليه ، بدا العامل القديم منهكا لصعوبة الأيام ، شقى الملامح ، رق له ، لكنه أبدى تاسفا ، فعنده مايزيد عن حاجته ، وكم يود التخلص على الأقل من أربعة . فيما بعد قال لقريبه انه لو فتح هذا الباب فلن يمكنه اغلاقه ، لهذا كان لابد من الحسم بداية .

مضى عام بدون منغصات ، بل راج أمره جدا ، وتيسر حاله ، وشوهدت سيارة بيضاء متوسطة الحجم تقف أمام الدكان ، يقودها أحيانا إلى جهات لايعرفها أحد ، أما لاعب الكرة المشهور فأصبح يتردد عليه بانتظام ، وأحيانا يصحبه فى عربته المزودة بهاتف ، يراه الناس ممسكا بسماعته بينما يده الأخرى تحرك المقود . كما يطلع معه إلى الشقة التى استأجرها فى العمارة المجاورة ، شقة تحتل الطابق الأخير بأكمله . كان يسكنها رجل محال إلى المعاش ، ماتت زوجته وتركت له ثلاث فتيات ، أصغرهن فى الثامنة ، انجبها على كبر ، وكانت أحواله معسرة جدا ، حتى انه اقترض من سائر الجيران ، كان موظفا ذا هيبة فى هيئة التأمينات الاجتماعية محاسبا مشهودا له بالكفاءة ، ولكن المعاش أقل من المرتب ، وأبواب الرزق الإضافى معدومة .

دفع عبده الاسمر مبلغا كبيرا له ، ولصاحب البيت ، وبذل جهدا قيل ان قريبه المشهور لعب فيه دورا ، حتى حصل للرجل على شقة فى مساكن الإيواء العاجل بناحية عين شمس ، والمخصصة لمن تهدمت بيوتهم . سعى عبده الأسمر إلى هذه الشقة بالذات لأن نوافذها وشرفتها الواسعة تطل مباشرة على البوابة . فى ساعات راحته ، ليلا أو نهارا يمكنه ان ينظر ويتابع الأمور ، وعند اللزوم يصيح مناديا هذا أو ذاك .

فى البداية أقام بمفرده . لكن فيما بعد شوهدت امرأة شابة جميلة تنشر الغسيل ، وتنفض التراب عن النوافذ ، وبعد الظهر تقف مرتدية ثوبا منزليا ، تنظر إلى العابرين ، تتابع ما يجرى عند البوابة ، صموتة . عيناها تلتقيان بعيون جارتها ، لكنها لاتبادلهن الحوار ، وإذا استجابت فمجرد إيماءة ردا على تحية وسرعان ما تولى وجهها بعيدا .

ظهورها عصرا ، وقوفها وحيدة ، أنحناءاتها ، شعرها الاسود يستلقى على ظهرها ، مسترسلا ، كثيفا ، ناعما ، ترفع رأسها فجأة لتزيح خصلة تدلت فدنت من عينيها .

هل تزوج ؟

لا .. وإن أوحى لبعض الجيران بذلك ، خاصة موظف البنك المقيم بالطابق الثالث ، انه صعيدى ، مازال ينطق اللهجة الجنوبية ، تردد عليه

مرتين ، قال معاتبا ان اسرته تود التعرف إلى المدام ، انهم جيران ، والنبى أوصى على سابع جار ، لكنها تبدى صدا .

لم يغب عن عبده الاسمر غرض الرجل الذى سبق أن ابدى قلقه من سكنى أعزب فى البيت ، انه أب لابنتين ، الأولى مدرسة ابتدائى ناحية غمرة ، تخطت الثلاثين ولم تتزوج بعد ، والثانية ماتزال طالبة فى معهد السكرتارية ، ترجع متأخرة لأنها تدرس الانجليزية باحد معاهد اللغات الخاصة ، أحيانا تقابله على السلم ، تتطلع اليه .. لكن فى خفر !

قال عبده الاسمر ان المشاغل كثيرة ، ويوما سيقوم بزيارة عائلية إذا سمح وقته ، ثم ان امرأته لاتحب الاختلاط .

غير ان هذه الزيارة لم تحدث قط . ولم يكن صعبا على الجيران ملاحظة غيابها بعد خلو ساعات العصارى منها . تساءل بعضهم ..

هل طلقها ؟

الحقيقة افضى بها إلى قريبه اللاعب المشهور ، وهذا رواها بالتالى لآخرين ، فهذه البنية فوجىء بها ذات صباح باكر فى الدكان ، ترتدى جلبابا أسود ، تمسك حقيبة متوسطة ، ظنها ساعية إلى مقعد ، لكن نظراتها إليه ، وبقاءها لحظات بدون لفظ ، وانوثتها البادية ، البضة الفياضة ، جعله هذا كله يوقن أن الأمر استثنائى . يوميا يرى نساء عديدات ، مسافرات إلى نواح شتى ، بعضهن يبدين ماهو أكثر من التلميح ، لكن هذه بالذات أخرجته عما ألزم به نفسه ، الا يستجيب والايبادر إلى غواية ذات صلة من قريب أو بعيد بالبوابة ..

« تفضلى » .

قعدت . قالت باختصار ..

« أنا غريبة وعاوزة آتاوى فى اى مطرح .. »

على الفور اجتاحه شبق ، ربما لادراكه انها فى المتناول ، استفسر منها ، عرف انها من بلدة أبو كبير ، وانها هاربة من أهلها .

لماذا ؟

هذا ما لم يصرح به ، كما انه لم يذكر شيئا بعد ذهابها ، لم يفصح ، ولم يكشف ، أحيانا يقول انه اعتاد الوحدة ، ملّ بعد أربعة شهور . اعطاها مافيه النصيب وطلب منها ان تروح إلى حالها .

قيل انه عاد يوما فلم يجدها ، لمت كل شىء وراحت !

لا أحد يدرى . ولم تعرف حقيقة الأمر ..

إلا أنه استعادها فى نطقه مرارا ، قال مرة انها كانت تشبه هذه الممثلة الصاعدة التى يتعقب صورها فى الصحف والمجلات ، ويترك مشاغله كلها عند ظهورها فى حلقات تليفزيونية .. الخالق الناطق هى ، هى . مرة قال انه اعتاد طهيها .

على أية حال صار بعد ذهابهاأعمق صمتا ، لايجيب مباشرة على مايوجه اليه ، وأحيانا يغيب ساعة أو ساعتين ولا يخطر مساعديه بوجهته ، غير ان همته لم تهن فى متابعة الترتيبات ليلا أو نهارا .

فى بداية العام الثانى ، جاءه موظف من مكتب الحجز الرئيسى ، جاء بصحبة عامل قديم بالمخزن ، قال الموظف انه يتحدث باسم عدد من زملائه ، الأحوال تزداد صعوبة ، والمرتبات ضئيلة لاتفى ، الحقيقة انهم سمعوا عنه خيرا .

عرض تخصيص عدة من أماكن الدرجة الثانية الممتازة ، والأولى المكيفة ، سوف يسلمه التذاكر مقدما ، وصورا من لوحات الحجز ليعرف خريطة المقاعد ، والأماكن المخصصة له ، كثيرون يضطرون لدفع زيادة مقابل الحصول على المقاعد ، زيادة يمكن الاتفاق عليها واقتسامها . اختتم الموظف حديثه .

— انت كلك نظر ياعبده باشا ..

هنا قال العامل القديم مبتسما ..

— والاخ عنده مفاجاة جميلة لك ..

استمر عبده الاسمر متطلعا إلى الموظف ، كانه لم ينته إلى ما قاله العامل ، ردد .

— الأولى والثانية .. أولى وثانية ..

ضرب المكتب براحته

— لكن هذا وضع جديد يحتاج إلى تدبير مختلف !!

● ● ●

يناير ١٩٨٩

إحتجاج



.. فلما كان يوم الأربعاء الموافق الثالث والعشرين من شهر يناير .. توجه سعادة السفير بصحبة المترجم الخاص إلى مبنى وزارة الخارجية لمقابلة وكيل الوزارة المختص .

لم يطل مكثهما عند مدير المكتب سوى لحيظات . فالموعد محدد مسبقا ومدرج . في منتصف الحجرة يقف الوكيل ، متوسط الطول ، نحيل ، يرتدى نظارة طبية مذهبة الأطار ، الدفء يشيع في الفراغ العبق برائحة قدم غامضة ، السجاد ، الأثاث ، المكتب راسخ القوائم . صوان حفظ المجلدات ذات اللون المتشابه .

يتقدم السفير خطوة ، ويتقدم الوكيل خطوة لكنها فسيحة ، يلتقيان في منتصف المسافة ، يتصافحان ، يمد ذراعه مرحبا بضيفه ، مشيرا إلى الأريكة الوثيرة ، العريضة .

يقعد المترجم في مواجهتهما منحنيا قليلا ، يبدو الوكيل مسترخيا في جلسته ، يحرص أن يبدو متبسطا ، كأنه يستريح من عناء العمل خلال المقابلة . انه يعرف السفير جيدا ، امضى ثلاث سنوات وبضعة شهور في البلاد . قابله في مآدب عشاء او غداء عديدة ، التقى به مرات في هذا المكتب ، انه يعرف المترجم ايضا ، ملم بماضيه ، إذ تلقى تعليم اللغة العربية في الجامعة .

يبدى ترحيبا بهما ، يلامس جبهته باطراف أنامله ، يقول إنه من الصعب الاستمرار في القراءة بنفس الوتيرة بعد الخمسين .

يظهر ودا ، يبدأ الحديث بهم ذاتي حتى يضفى على الجلسة درجة من حميمية ، صحيح ان العلاقات بين البلدين تمر بمرحلة جمود ، وجفوة من فترة ليست بالقصيرة ، لكنه دبلوماسي محنك ، يعرف الأصول ، وفوق ذلك فان انطباعه عن السفير مريح ، انه رجل طيب .

يقول السفير إنه من الضرورى استخدام نظارة للقراءة بعد سن الأربعين يتراجع إلى الوراء . يشير باصبعه ، انها ملازمة له منذ سن

الثالثة والأربعين أى منذ ثمان سنوات . منذ ذلك الحين يمشى بنظارتين ، واحدة للنظر واخرى للقراءة ، ها هى فوق المكتب ..

يقول السفير . هناك عدسات تجمع بين الاثنتين فى اطار واحد . احيانا يكون استخدام نظارتين مربكا .

يبسط يديه ، ما العمل ؟ ان الفارق بين عدسات المشى والقراءة كبير بحيث لا يمكن الجمع بينهما ..

يقطب السفير حاجبيه ، إذن .. الأمر هكذا . هذا جديد بالنسبة له !

يقول ان مثل هذه العدسات اصبح العثور عليها ميسورا هنا ، انهم يصنعونها بمهارة .

يعدل السفير من وضعه ، يقول انها موجودة فى بلاده ايضا ، وعلى درجة عالية من الجودة .

يدخل الساعى غامق السمرة . يومىء السفير مبديا رغبته فى شرب قهوة اما المترجم فطلب شايا بدون سكر ..

يتراجع إلى الوراء قليلا . يتخذ وضعا متصلبا إلى حد ما ، كأنه يوشك على القيام ، او الإقدام على شىء ما ، ينظر إلى المترجم ، يبدأ الحديث بلغة بلاده غير الشائعة ، حتى هذه اللحظة كان الحديث باللغة الانجليزية يصغى المترجم ممسكا بورقة وقلما ، ثم يبدأ الحديث بعربية فصحى يعرف الوكيل إيقاع نطقها ، خاصة أولئك القادمين من هذا البلد دائما ما تلقى اللغة الأصلية بظلالها ، هكذا يختلف نطق اليونانى عن الأمريكى عن الروسى .

— سيادة الوكيل المحترم .. جئت لأقدم احتجاجا رسميا ..

— احتجاجا ؟

ينهى الوكيل جلسته المنبسطة ، يفارق ظهره الأريكة ، تبدو ملامحه أكثر حدة .

— نعم .. احتجاج رسمى ..

— إذن .. لحظة من فضلك ..

يقف . يخطو باتجاه مكتبه ، يقعد ، تتشابك اصابع يديه ، يستدير المترجم ليواجهه ، السفير الآن جالس على حافة الاريكة تقريبا يمسك الوكيل بقلمه بعد ان بدل نظارته ، يبدأ التدوين ..

— يمكننى الإصغاء يا سعادة السفير ..

— حسنا يا سيادة الوكيل المختص .. باسم دولتى اتقدم باحتجاج رسمى ..

يتوقف لحظات ، يعدل وضع رباط عنقه .

— نشرت صحفكم عدة مقالات معادية لبلادى . فيها تهجم صريح . هذه المقالات كان لها اثر سيىء يهدد العلاقات التى استمرت فترة طويلة علاية وطيبة .

يتوقف المترجم ..

— هل انتهى الاحتجاج ؟

— نعم .

يومىء السفير ، يبدا المترجم فى تدوين ما يسمعه ..

— سعادة السفير المعتمد ، لابد من إيضاح ، ان الصحافة فى بلادنا تتمتع بالحرية ، وما يكتب فيها يعبر عن راى العاملين فيها ..

على الرغم من بقاء ملامح السفير شبه جامدة ، إلا أن ضيقا يلوح ..

— ان نشر هذه المقالات فى وقت متقارب لا يمكن أن يكون صدفة .. خاصة أن الصحف شبه رسمية ..

— هل قلت شبه رسمية ؟

يومىء المترجم مؤكدا ، ينقل بصره بين السفير والوكيل الذى احنى راسه قليلا حتى يمكنه النظر من فوق إطار نظارة القراءة ..

— أؤكد أن صحافتنا تتمتع بالحرية . وما يكتب فيها يعبر عن آراء الصحفيين ، ان وضع صحافتنا يختلف عن الصحف فى بلادكم المملوكة للدولة ..

يقوم السفير واقفا ، تبدو لهجته أكثر حدة ، يقف المترجم أيضا ، يقطب .

— سيدى .. ان صحافتنا مملوكة للشعب ..

يخلع الوكيل نظارة القراءة ، يهزها بيده ..

— على اى حال ، سأبلغ احتجاجكم اليوم إلى الجهات المسئولة ..

— اشكرك يا سيدى الوكيل المختص ..

يلتفت إلى المترجم .

— هل انتهى الاحتجاج ؟؟

— نعم .

يقوم . يفارق مقعده وراء المكتب ، يتناول علبة سجائر معطرة بالنعناع يقترب من السفير ، يقول بالانجليزية :

— اعرف أن سعادتك تدخن احيانا ..

— الحقيقة أننى امتنعت تماما منذ شهرين ..

يتردد المترجم ، يتطلع إلى السفير الذى أوما له مشجعا ، يتناول السيجار يبقيها بين أصابعه وكانه يحاول إخفاءها ، يمد الوكيل قداحة ذهبية يدخل الساعى حاملا صينية المشروبات .

— القهوة لسعادة السفير ، والشاى هنا ..

يدس السفير يده فى جيبه ، يخرج علبة صغيرة ، يضغط حافتها ، يتناول قرصا دقيقا ، مستديرا .

— سكارين ؟

— لا .. هذا نوع جديد ، سكر مستخرج من الفاكهة ..

— تسمح ..

, انه فرنسى .. لا يغير طعم القهوة ..

— ولكننى اعرف أنك لست مصابا بالسكر !

— لابد من إنقاص وزنى قليلا ..

— هذا افضل .. ننسى أنفسنا احيانا فى المكاتب ..

— رياضة النادى لا تكفى ..

— على أى حال .. اننى افضل القهوة بدون سكر ..

بعد الرشفة الأولى ، يبدى السفير ارتياحا .

— البن رائع ..

— قهوتنا على الطريقة التركية دائما ..

يتدخل المترجم بصوت خفيض .

— هناك القهوة العربية المرة ، شربتها فى الكويت ..

— انها طريقة مختلفة تماما .

ينتهى السفير من رشف القهوة . يتراجع قليلا . يتحدث بلغة بلاده متوجها إلى المترجم الذى سارع بوضع شوب الشاى . وتناول القلم والورق ..

— أرجو الاهتمام بهذا الاحتجاج ..

— طبعا ..

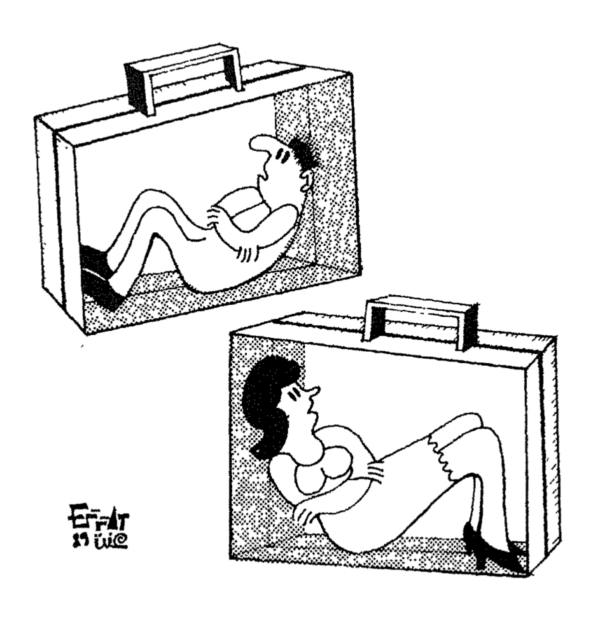
— اننى أتمنى وقف الدعاية السوداء ضد بلادنا ..

يقف الوكيل ، يتساءل بعربية فصحى ، متأنيا فى لفظه ..

— ماذا ؟ هل قلت الدعاية السوداء ؟ وماذا تعنى بذلك ؟

● ● ●

فبراير ١٩٨٩



شتات الشقائق

فانبعثت يقظة ، بعد أن وسنت للحظات ..
تخشى مواصلة النوم إلى ما بعد الموعد . ألا تتمكن من إيقاظه ، فى السادسة يجب أن يكون فى المطار ، عربة الأجرة ستجىء فى الخامسة ، الشوارع خالية فى الصباح الباكر ، قدر السائق ساعة للوصول إلى المطار ، هذا ما حدده عند الاتفاق معه ، انه جارهم . ويسكن الناصية القريبة ، عيّن توقيت المفارقة ، تمام الخامسة ، لكنه يجب أن يصحو فى الرابعة والنصف ، يغتسل ، يصلى ، يرتدى ملابسه ، لكن الأهم تناولهما لقمة معا لآخر مرة قبل الرحيل ، آخر إفطار بصحبته ..

آخر إفطار ؟

لماذا ؟ لماذا تقرن النهاية باللحظات المنتظرة ؟ فال سيىء ينبغى تحاشيه . صحيح .. انه سيغيب سنة ، لن نراه قبل اثنى عشر شهرا ، سنة ستتبدل خلالها احوال ، تقوم أوضاع وتحيد مصائر ، لكنه سيرجع ، سنراه مرة اخرى ، لماذا يردد خاطرها ، آخر إفطار ، آخر مرة .

صحيح .. الغياب صعب ، ولكنها يجب أن تبدى الجلد . الا يذكرها طوال الشهور القادمة دامعة ، يجب أن تبتسم ، اما ان تدمع في حضوره ، فهذا شؤم . غدا ستجلس إلى المائدة بمفردها ، ستعد كوبا واحدا من الشاى بدلا من اثنين ، ستضع رغيفا بدلا من رغيفين، ستأكل بمفردها ، ستشرب الشاى مطرقة إلى الأرض .

يا عالم .. متى يلتقى الحى بالحى ؟

في مثل هذه الساعة غدا ، سيكون هو فى ناحية ، وهى فى ناحية ، سينزل ارضا غريبة يطأها لاول مرة ، وستمسى هى غريبة في موطنها ، حذرة ، منقطعة ، فما ابعد الأقارب الذين يعيشون فى الصعيد الأعلى ، وهنت الصلات التى كانت يوما وثيقة ، خاصة بعد رحيل الوالدين ،

تقعد عند حافة السرير ، تدنو من ذرى الشجن ، توشك أن تدمع ، تحوش نفسها . يجب الا يلمح طيف حزن فى عينيها ، يجب الا تحمله هما فوق همومه ، يكفيه قسر الغربة ، ومشقة الرحيل ؟

ثم انها ليست المرة الأولى التى ستبقى بمفردها . الم يسافر خارج القاهرة مرارا ؟ ، ألم تختلف مواعيد خروجهما إلى عملهما ؟

لكن .. فرق بين سفر قريب ، ورحيل طويل ، فى رحلاته القصيرة تدرك بشكل ما انه هنا . وهنا تعنى هذه الصالة والشوارع المحيطة والضواحى . والبلاد التى يمضى إليها يوما او يومين إن فى بحرى أو فى قبلى . لكنه غدا سيكون بعيدا ، سيغيب نَفْسه من البيت ، سنة كاملة لن تسمع صوته إلا عبر الهاتف ، هكذا يقضى العقد الموقع بينه وبين صاحب العمل ، عام متصل .. ثم انها يجب اعتياد البقاء بمفردها ، لن يظل معها إلى الأبد ، يوما ما سيذهب إلى بيته ، سيتزوج ، يطل عليها بين الحين والآخر ، هى شقيقته الاكبر منه ، التى مال حظها ، وقُضى عليها أن تعيش بمفردها ، سيجىء أولاده الصغار إليها ، ستحنو عليهم ، ستجهز لهم الحلوى ، سيملأون البيت صياحا ، وضجيجا ، ودفئا ، ثم يمضون .

يجب أن تعد لأيام وحدة مقبلة . لكن الأيام التالية لرحيله ، الأيام ..

الأولى ستكون صعبة ، قاسية ، هذا مفروغ منه ، ولا لوم عليها لأن قلبها يفيض شجنا ، لكنها يجب أن تحجب ، أن تدارى عنه .

تقوم ، يجب إيقاظه بعد قليل . تقف عند الباب المطل على الصالة الضيقة ، المائدة ، المقاعد الأربعة ، بجوار باب الشقة حقيبة سفره بنية اللون ، مرتفعة ، اقفالها صفراء نحاسية المظهر ، تلمع فى الضوء الخافت ، على حافتيها ورقتان مستطيلتان ، كتب عليهما اسمه وعنوانه ، حقيبة أصغر ، سوداء ، سيحملها بيده ، رفعها مرارا قبل نومه ، دعاها لتجرب ثقلها ، سعى إلى إشراكها فى كل خطوة ، لم تتردد ، لم تتقاعس ، لم ترجف تاثرا ، بل اقبلت مبدية حماسا مضاعفا ، قالت إن ما يثقلها الكتب ، لكنه وزن معقول ، كلتا الحقيبتين اشترياها من الدرب الجديد قرب العتبة الخضراء . لم يمتلكا إلا حقيبة قديمة استخدمها فى أسفاره القريبة .

تجتاز الصالة ، تقف امام باب غرفته المواربة قليلا ، صعب عليها الوقوف على حاله ، نائم .. مستيقظ ؟ ، الليلة القادمة ستخلو هذه الحجرة منه ، لن تغلقها ، ستبقيها مفتوحة ، ستنظفها يوميا وتفتح النافذة لتهويتها ، وترتب ما تركه من اوراق وتنفض الغبار عن الكتب ، تعود النظر إلى الحقيبتين ، إلى جواز السفر الموضوع على حافة المنضدة ، تطل منه بطاقة الطائرة ، تتجه إلى المطبخ ، رائحة غاز ؟ لكنها أحكمت إغلاق الصمام قبل النوم ، أوصاها مرارا خلال الأيام الماضية بضرورة إغلاق باب الشقة جيدا ، ومحبس الغاز ، تفتح الصنبور ، تملأ كوبا ، تفرغه فى البراد المعدنى ، كوب آخر ، اثنان ، بعد ذلك لن تعد إلا واحدا .. حتى عودته سالما .

تشعل الموقد الغازى ، للنيران حفيف خافت ، بعد أن يغلى الماء تضع الشاى ، تتركه قليلا ، كوب مضبوط ، معطر بالنعناع ، اعتاد شربه قبل خروجه إلى عمله .

تضع طبق الجبن ، طبق الفول ، الخبز تصلب قليلا ، ستضعه على النيران ، لم تعد تتحرك بحذر ، حان موعد صحوه ، تقف بالباب .

— أنا صاحى ..

— صباح الخير .. الساعة الرابعة والربع ..

يزيح الغطاء ، يشعل الضوء ، عيناه مزرورتان .

— أذن الفجر ؟

— أظن الصلاة بدأت ..

تتجه إلى المذياع ، ينبعث صدى الفراغ ، انها لحظة الركوع ، او السجود ، لحظة صمت الامام ، شخص ما يسعل ، ترى .. من هو ؟ ، الله أكبر .. تذاع الصلاة من مسجد الإمام الحسين ، عاشا بالقرب منه طفولتهما وصباهما . وصدر فتوتهما ، بعد انتقال الأسرة إلى تلك الضاحية ، وحتى غياب الوالدة ، اعتادا صحبتها أسبوعيا لزيارة ضريح الحبيب الشهيد ، ثم العروج على الصحب من جيران العمر .

كانت المرحومة تقول انها لا تستطيع العيش بعيدا عن الحسين ، وافقت من اجل راحتها ، فالبيت عتيق وضيق ، لكنها من الضرورى أن تطل بين الحين والحين على الأحباب القدامى . جيران العمر ، كانت تقول إن عمرها تفرق هناك على النواصى ، الحوارى ، والمتاجر التى اعتادت شراء حاجاتها منها ، إسماعيل الخضرى ، نصرى الجزار ، عبد الهادى البقال .

بعد رحيلها بغتة ، سعت إلى الأماكن التى احبتها المرحومة ، إلى الأرض التى مشت فوقها . بعد إحدى زياراتها ، قالت لشقيقتها إنها رات المتقدمين فى العمر يسعون ، كلهم هناك .. فلماذا غياب أمها البكر ؟ لماذا وهى اصغر سنا من كثيرين ما زالوا ..

يومها قال إنهما يجب الا يكفرا بالقضاء ، انه أجل ، ولكل اجل كتاب .

تعرف أن أمها رحلت محسورة ، لم تطمئن عليها ، لكم ودت أن تراها فى بيتها ، لكم تمنت ان تداعب أحفادها منها ، كثيرا ما عادت إليها بأدوات تجميل ، وقماش جديد ، تتطلع إليها صامتة ، لم تقل كلمة . لكنها أدركت نظراتها ، وجرى حوارهما بالصمت ، حادا عن الخوض فى أسباب الحظ المائل ، والبخت الوحش ، كانت تقول انها زينة البنات ، فهى هادئة الملامح ، خفيفة الحضور ، متناسقة ، لم تحد قط ، لكنه الحظ المائل ، وصعوبة الوقت ، وتعثر الأحوال !

لو أنها بالقرب منها الآن ، لو ان نفسها يتردد فى البيت لاطمأنت ، ولما خشيت الليالى المقبلة ، لكنه الأجل ، لكنه النصيب .

لا تستمر ، فتوالى الصور ، وانبعاث اللحظات الشاردة ، أمر جالب للتاثر ، للدمع ، مثير للحرقة ، وهذا ما يجب تحاشيه وتجنبه حتى خروجه وسفره بالسلامة .

يقف فى الصالة ، يجفف وجهه . يتطلع إليها ..

— الدنيا برد ..

— آخر الليل .. وبرد السنة صعب ..
بعد لحظات تساءلت ..
— وهنـــاك ؟
— النهار معتدل ، ولكن برد الصحراء شديد ليلا ..
— تفرجت على النشرة الجوية فى التليفزيون ، عاصمة البلاد العظمى فيها اثنا عشر والصغرى صفر ..
لم تقل انها تساءلت دائما عن جدوى عرض درجات الحرارة فى عواصم الدنيا وهذا يوم يجيء تهتم فيه بطقس بلد لم تره أبدا ، سيسعى شقيقها فى نقطة نائية منه .
— أنا كتبت أرقام عداد الكهرباء ، علقت الورقة على الباب .. يستحسن هذا دائما ..
تومىء ، طوال الأيام الماضية يوصيها أن تنتبه ، الا تفتح الباب لأى إنسان إلا بعد رؤية شخصه من العين السحرية ، أن تعود من ناحية العمارات بعد نزولها محطة الأوتوبيس ، صحيح المسافة أطول لكنها أكثر أمنا من الطريق المجاور لسور النادى ، يردد أن الدنيا صارت وحشة ، والأمان شحيح ، تبتسم وتوصيه أن ينتبه هو إلى نفسه ، الا يعول هما ، كل ما أوصاها به ستنفذه بحذافيره .
انه يحوش نفسه عن النطق بوصاياه ، تكرار ما قاله مرارا خلال الأيام الماضية ، الآن .. والوقت يمر ويدنو يتحاشى معانى لها وثيق صلة بغيبته الطويلة ، بسفره ، ببقائها وحيدة .. ، يقف مرتديا قميصه ، وبنطلونه ، لم يرتد الحذاء بعد ، اخرجه من تحت سريره ، وضعه أمام المقعد المجاور للمائدة .
— تأخرت سهرة التليفزيون أمس ؟
تلتفت إليه ، وضعت طبق الجبن الأبيض ، والفول ، وبراد الشاى .. ثم طبق البيض المقلى ..
— لم اكمل التمثيلية ..
— لا يضعون فى الاعتبار ذهاب الناس مبكرين إلى اشغالهم ..
— صحيح .. لكنه يسلى الخلق ..
ينظر إلى المائدة .
— غذاء أو إفطار ؟
— اسند نفسك .. اليوم طويل ..

نفس العبارة كانت تقولها المرحومة للوالد عند شروعه فى السفر إلى البلدة زمان . كان يركب قطار الثامنة ، يغادر البيت فى السادسة أو بعد صلاته الفجر مباشرة .

يجلس إلى المائدة الصغيرة ، يمضغ بسرعة ، هذه لحظات سوف تستعيدها مرارا ، عن بين كل مرات إفطاره لن تذكر إلا تلك اللحيظات ، يتطلع إلى الساعة ، لم تصل العربة بعد ، إيقاع الدقائق الآن أسرع ، الصمت بالغ مداه ، وثمة طنين غامض مجهول المصدر ، صوت الصمت ذاته .

— تغير طعم البيض .

ملاحظة أبداها من قبل مرارا ، تجيبه بنفس الكلمات ..

— من الصعب الحصول على البيض البلدى ..

ثم تقول ؛

— كل شىء تغير طعمه ..

يطوف بعينيه حول الصالة ، كأنه يدقق معالمها ، يتحاشى مثلها تلاقى نظراتهما ، ترى .. أى الصور تتوالى عليه الآن ؟ الآن بالذات ؟ تحجم عن النطق بالسؤال ، أوقات جلوسهما إلى بعضهما محدودة ، قصيرة ، تعقب دائما أوقات الطعام ، ولكن هذه المرة تتقدمه ، فبعد أن يفرغ سيفارق مباشرة ، وربما لن يتم شرب كوب الشاى ، كان حديثهما اليومى يدور حول موضوع بعينه ، الآن يحومان حول بعضهما ، فى لحظة يدنوان ، وفى اللحظة عينها ينأيان ، لا تذكر من قال امامها انه يفضل السفر والأهل نيام ، اللحظات الأخيرة مرهقة .

انها ترى لحظات استعدادتها هذا الوقت القصير ، الفاصل ، ستذكره متمهلة ، والحنين إليه يهمى ، يغرقها ، هو فى ناحية ، هى فى أخرى ، لكم جلس إلى المائدة ، لكم تناول إفطاره ، لكم رشف الشاى ، لكن هذه اللحيظات بالذات ، هذا الحضور !

محرك السيارة ، يتزايد ، يعلو ، يتوقف .

— وصل ..

يقوم ، مستنفرا للإقلاع ، حركته الآن أسرع ، لفتاته ، ارتداؤه الجاكتة .

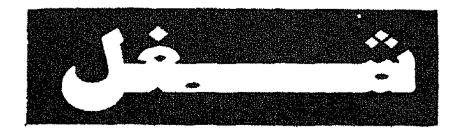
— معك تصريح العمل ..

يومىء ، يشير إلى حجرته .

— التوكيل فى الدرج الأيمن ..
— ياه .. لا تذكر هذا التوكيل ..
تواجه ابتسامته الهادئة ، ابتسامة تبرر قولا ، أو تخفف أمرا لا تود سماعه ..
— الحياة علمتنا أن نحتاط .
— اذكر خيرا ..
يقول خافت الصوت .
— كله خير بإذن الله ..
— دعنى أصحبك .
— معقول ؟ وكيف ترجعين من المطار .. الدنيا شتاء والظلام يستمر حتى السابعة صباحا ..
لا تدرى ما يجب القيام به ، تبذل جهدا حتى لا تدمع عيناها ، لن يذكرها باكية ، هو من بقى لها فى الدنيا ، وها هو يرحل ، تميل على الحقيبة الكبيرة ، يربت كتفها .
— ستبقين هنا ..
— لا .. حتى الباب .
— طيب .. هذه ثقيلة عليك ..
تصر ، وكأنها تشارك بقدر فى حمل عبء الرحيل ، تنزل درجات السلم . هل ازداد اطراقه .
— يكفى هنا .
— حتى العربة ..
لكنه يقف أمامها ، هذا كاف جدا ، لا داعى لخروجها إلى الطريق ، برد الدنيا شديد ، وملابسها خفيفة ، يمد يده ، يلمس شعرها ، تنحنى ممسكة بيديه ، تقبلهما ، تماما كما كانت تفعل عند بدء غياب أبيها فى الزمن القديم الذى لن ينبعث « أبدا .. »

● ● ●

مـارس ١٩٨٩



EFFAT
عفت 89

حتى الآن لم اعرف السبب ..
كراهيتها غير المبررة ، سعيها ضده بكل ماتتقنه ،
وتوظيفها تراثها وعلاقاتها مع شسوع البون بينهما ،
هى موظفة وهو ساع ، هى مهندسة وهو عامل . هى
ثرية ، متنفرة ، وهو بسيط الحال ، لاحول له ،
ولا قدرة على إيذائها ، او الحاق الضرر بها .

لاقيته عند التحاقى ، منذ عشر سنوات ، اما هى فلم تظهر فى المؤسسة إلا منذ خمس سنوات وبضعة شهور ، لم تمكث طويلا بعد تخرجها من كلية الفنون التطبيقية . مع مجيئها ترددت اقاويل عن والدها الاستاذ بكلية الطب . صديق عدد من ذوى النفوذ ، اولاد بعضهم يدرسون عنده ، يترددون عليه فى البيت ، يقضون السهرات عنده ، وخلال بعضها يتم الاتفاق على امور هامة ، يعلن بعضها على الخلق من خلال وسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة .. هكذا قيل ، غير أن زميلة من قسم التصاميم الهندسية اكدت انها تعرف عائلتها ، قريبها مقيم بنفس العمارة التى يقطنونها بناحية العجوزة ، قالت إن والدها رجل طيب ، أطيب من

اللازم ، نعم .. هو استاذ مرموق في عمله ، صارم مع طلبته . لكنه رقيق الحال في بيته ، أمره . نَيْ ، طرى ، تجاه امرأته ، إنها ربة البيت تردد دائما أن أمها من أصل يونانى تتباهي بذلك وتتميز تتقن الفرنسية مع انها لم تتم تعليمها الثانوى ، لكنها ذات صلات شتى ، خاصة بزوجات المشاهير ، تعرف أحوالهن وأخبارهن وتقلباتهن ، فى كل ليلة بصحبة احداهن ،اما ذاهبة إلى عشاء ، أو داعية بعضهن إلى مأدبة فى بيتها ، لذا حق لها ان تسمى سيدة مجتمع ، عرف عنها درايتها الأتم بتهيئة الجلسات ، وتوفيق المشروبات للمأكولات ، فهذا النوع من النبيذ يوافق هذا الطبق ، وهذا المشروب يسبق ذاك . إضافة إلى قدرتها على معرفة حكايات لاتحد عمن بيدهم امور الحل والعقد ، ونجوم السينما والمسرح ، ومشاهير الكتاب ، تلك خصال وسمات حببت القوم إليها ، فسعوا إلى التردد عليها والائتناس . وأثناء السهرة تقوم زميلتنا الجديدة بالخدمة مع شقيقتيها . أعمارهن متقاربة ، بين كل منهن والأخرى سنة واحدة لاغير ، متأنقات ، لسن زاعقات الجمال ولاهن بالدميمات ، عندهن جاذبية خفية ولحظ ، عضوات بنادى الجزيرة ، لهن من الحرية قدر وافر ، قالت زميلتنا ان الأب كثيرا ما يعتذر بعد استقباله الضيوف ، ينسحب إلى مكتبه أو إلى حجرته متعللا بالإرهاق أو ضرورة إعداد المحاضرات .

كلام كثير تردد ، تفاصيل رُويت . أصغيت حذرا ، وان بدا منها فيما بعد ما يؤكده ، ولفترة أجهدت ذاتى فى محاولة فهم الصلة بينما سمعته وما بدر منها تجاه بدوى ، لكننى لم ادرك الكنه . عندما جاءت أبدت اهتماما كبيرا بالحصول على مكتب ذى مواصفات معينة . حتى قيل انها عرضت على المدير الإدارى ان تشترى مكتبا على نفقتها . لكنه قال إن هذا غير مسبوق ، وعدها بالتدخل لدى قسم الميزانية ، وبالفعل أتوا له بواحد غطى خشبه بطبقة من الفورمايكا ، مزود بأربعة ادراج ، مع ان الموظف المبتدىء يسمح له بمكتب ذى درجين فقط ، شارك بدوى فى حمله ، حتى استقر فى موضعه بجوار النافذة المطلة على الطريق العام . خصص الركن لصوان حفظ الملفات والتصميمات ، لكنها أعلنت علينا نيتها فى نقله إلى جوار المدخل ، لأن عينيها فى حاجة إلى الضوء ، لم يمانع أحد منا ، نحن الخمسة الذين نشاركها الجلوس فى الصالة المستطيلة الواقعة آخر الطابق ، بدوى متفرغ لخدمتها ولقضاء الحاجات .

يجيء مبكرا . يسكن الطرف

الآخر من المدينة ، لكنه يصل مبكرا ،

يكنس الصالة ، ينظف زجاج النافذة ، واسح المكاتب ، يشعل عودا من البخور طيب الرائحة ، ياتى به من جوار ضريح سيدنا الحسين . عند وصولنا نجد المكاتب نظيفة ، المكان مهيأ ، يستقبلنا مبتسما ، راضيا ، على الفور يبدأ اعداد الشاى ، وراء باب الصالة ، في الركن الأيسر منضدة صغيرة فوقها موقد كهربائى صغير ، براد شاى وستة أكواب ، واربعة فناجين ، للمنضدة درج متوسط الحجم يضع فيه السكر والشاى والنعناع المجفف والبن ، بن خاص يشتريه من رجل عجوز في المغربلين ، يخلطه بالمستكة ، والزعفران ، ومواد أخرى يضعها بنسب معينة يكسب القهوة نكهة خاصة جدا ، حدث ببعض الأصدقاء إلى زيارتى ، وطلب قهوة عم بدوى ، صاحب لى اكد ان المذاق نادر .

يقبل بدوى على إعداد مشروبات الصباح ، يحرص على نظافة المنضدة . يمسك بيمينه فوطة صفراء ، يمسح بها البلل ، يزيل ذرات السكر المتناثرة ، يمضى إلى الحمام ، يغسل الاكواب بصابونة يحتفظ بها ، ويشطفها جيدا . يرجع ، يصف الأكواب . اثنان . اثنان . يصب أولا قليلا من الشاى ، يرفع الكوب في مواجهة الضوء ، يتامل اللون الياقوتى الداكن ، يعرف مزاج كل منا ، يعرف تفضيلى الشاى الثقيل ، يصب لزميلاتى اولا ، ثم يحمل إلىّ الكوب ، يضعه فوق الحامل المستدير عند حافة المكتب اليمنى .

إذ نفرغ يسأل عمن يريد الإفطار ، انه يعرف من اعتاد تناوله فى المكتب ، لكن هذا لم يمنعه من السؤال اليومى المعتد ، يمضى إلى مطعم قرب ميدان الدقى اشتهر بنظافته ، يعود بالسندويتشات ، يفك اللفافة ، يكور الورق ، يلقيه فى سلة المهملات ، يوزع قطع المخلل على أطباق ستة يحتفظ بها ، يبسط ورقة بيضاء فوق المكتب اولا ثم يقول .

« بالهنا والشفا » .

بعد الفراغ ، يتناول الأطباق ، يمضى ليغسلها ، ثم يضعها فى مكانها من الدرج ، ينسحب إلى خارج الصالة ، مبتدئا جلسته فوق مقعد دائرى صغير بدون مسند ، بين الحين والحين يطل متسائلا عما إذا كان احدنا فى حاجة إلى شىء ؟

عندما تسلمت عملى ، أول ايامى ، بادر بإعداد الشاى ، سألته آخر النهار عن الحساب ، كم ؟

ابتسم . هز رأسه من أعلى إلى اسفل ، قال ان ماقدمه اليوم تحية

التحاقى . فى اليوم التالى جاوبنى بابتسامته الهادئة التى تحوى رغبة فى الود ، والقربى ، وسلاما ومسرة ، ومسا من خضوع استسلامى لأمر ما !

« اى حاجة يا استاذ .. »

اعتدت ان أعطيه ما فيه النصيب ، لم ينظر فى النقود ، لم يعتد احصاءها ، انما يدسها فى جيبه على الفور ، مع توالى الأوقات لاحظت انه يعرف عاداتى ، متى ينال التعب منى ، متى يدركنى نصب ، متى احتاج كوب الشاى ، احيانا يدنو ، انتبه من خلال انهماكى فى تلوين وتحديد المربعات الصغيرة ، المتراصة ، المتتابعة ، المتجاورة . يقول بنبرة اقرب إلى الهمس .

« استرح قليلا يااستاذ .. »

ارفع عينى المجهدتين ، فعلا .. لابد من الراحة ، احملق عبر الفراغ الممتد . بعد دقائق معدودات أعود إلى انحنائى ، إلى توحدى بالتصميم ، عندما جاءت بدا تبدل وتغير ، ابدى ترحيبا ، اظهر ودا ، لكنها قابلته بصد حازم ، منذ الأيام الأولى بدا واضحا انها لاتتصرف مثل الموظفين الجدد . الذين يبدون لطفا ورغبة فى القربى ، لاح حرصها على افهامنا انها مسنودة . ان العمل لايليق بها ، ان مجيئها ظرف استثنائى . وان ثمة تغيرا سيحدث ، وهى فى الانتظار .

مشيتها . خروجها ، دخولها ، قصر خطواتها ، نظرها فى اتجاه واحد ، تأففها . وضعها زجاجة عطر باريس امامها ، بعد أى مصافحة تبادر إلى مس يديها كانها تزيل اثرا تخشى منه .

فى الغرفة جهاز واحد الهاتف ، يتصل بالبدالة ، إذا شاء أحدنا الاتصال بالخارج ، يجب أن يدق مرات ، ثم يرجو العامل وصل الخط ، منذ أول ايامها لاحظت اتجاهها إلى المكتب الموضوع فوقه الجهاز ، تدير عينيها بيننا ، تقول باختصار « ممكن ؟ » .

لاتنتظر ردا ، تحمله إلى مكتبها ، تبدا اجراء مكالمات شتى ، ثم اعتادت حمله إلى مكتبها فورا ، تحتفظ به معظم الوقت ، لم تفتنى نظرات زميلاتى الثلاث ، وزميلى الصامت دائما مثلى ، لم نكن نستخدمه إلا فيما ندر . اما هى فلا تفرغ من اتصال إلا لتبدا آخر . بعض مكالماتها قصيرة جدا ، لكن معظمها يطول لنصف ساعة أو أكثر ، لاحظت قدرتها على الهمس ، بحيث لايمكن الواقف أمامها مباشرة او الجالس على مقربة أن يحدد الألفاظ أو يتبين مخارجها . تتحدث احيانا بالفرنسية . اثناء حديثها إلينا تلفظ

كلمات عديدة ، ترفع عينيها إلى الفراغ ، تقول الكلمة أولا بالفرنسية ، ثم تبدو متعثرة فى التوصل إلى مقابلها بالعربية التى تحرص دائما على ابداء عدم اتقانها لها ، اثناء استرسالها فى حوار ينطلق لسانها باللغة الأجنبية ثم تتوقف فجاة مبدية اعتذارا كان مابدر منها مجرد هفوة عابرة .
احيانا يرتفع صوتها ، تنتقل من الهمس إلي الجهر ، تذكر اسما معروفا ، تتساءل عما إذا كان سيبقى إلى العشاء ، أم انها مجرد زيارة عابرة ؟ ، تذكر اسم مسئول كبير بالمجلس النيابى مقترنا بلفظ « انكل » وإذا جرى حوار ورد خلاله اسم مسئول ، أو أحد الوزراء تقرنه بنفس اللفظ ، تشير إلى لقاء به تم ، أو سيتم !
اعتدت الاصغاء صامتا ، لا اظهر دهشة ولاعجبا ، عندما سألها بدوى عما تفضله . شايا أو قهوة ؟ قالت إنها تشرب القهوة ، هم بالاستدارة لاعداد الفنجان المضبوط ، اشارت إليه أن ينتظر ، اظهرت فنجانا من الخزف الملون ، وعلبة معدنية مستديرة ، قال بدوى مبتسما ..
« عندى بن محوج سيعجبك ياهانم .. » .
اشارت إلى العلبة .
« هذا بن خاص من السعودية .. »
قالت إنها اعتادت الشرب منه .. ونبهت إلى ضرورة عدم خلطه . أوما بدوى ، وصدت مضمضه الخفى ، اعتاد تقديم الشاى والقهوة مع بذله العناية ، وابداء الحرص .
لشهور عدة لم تبد تجاهه جفوة ، كانت تسلمه مظاريف مغلقة ، وأحيانا لفافات لا أعرف ماتحويه ، تطلب منه توصيلها إلى عناوين محدودة ، أو يحضر لها أوراقا من هنا أو هناك ، تعطيه اجرة المواصلات العامة . لم يبد بدوى تذمرا ، أو شكوى ، لاح لى حرصها الوعر وشحها ، واخراجها القرش بصعوبة ، حتى قالت زميلتى يوما انها ترجىء كل مكالماتها الهاتفية لحين حضورها إلى المكتب .
صباح أحد الأيام زعقت لبدوى ، اشارت إلى سطح المكتب . ذرات غبار عالقة ، قالت انه لايعرف شغله ، انه مهمل ، حول الصالة إلى مقهى ، إلى مطعم . الا يكفى احتمالها لرائحة زيت الطعمية ، الا يكفى سكوتها على هذا القرف ؟!
تطلع بدوى إليها صامتا ، دهشا ، رجاها الا تغضب نفسها ، ثم اتى بفوطة صفراء ، مسح الزجاج مرات .

صباح يوم تال دخلت نافرة ، لم تلفظ حتى تحية الصباح ، اتجهت مباشرة إلى مكتبها ، فتحت الأدراج احدثت جلبة ، تابعناها خفية ، لم نتجه بنظراتنا إليها مباشرة ، مرة أخرى استدارت ، تطلعت حولها ، اجتازت الفراغ ، عند الباب اتجهت إلى بدوى ، قالت إنها ستذهب إلى فرج بك .

بعد ذهابها ، قالت إحدى زميلاتى .

« تفهمنا انها ستقابل رئيس مجلس الإدارة .. » .

قالت زميلتى الأخرى ..

« يسهر عندهم .. »

هنا علقت الثالثة .

« طوال النهار تمثيل فى تمثيل .. »

انتبهت إلى بدوى يرمقنا صامتا . مفاجاة ربما بالحوار ، لكنه لايعلق تادبا وحشمة ، الحوار بين مهندسات حول زميلتهن ، لايصح التدخل .

فى اليوم التالى لحقنى فى الممر ، لاح لى حزينا ، متاسيا . حتى ظننت مكروها لحق به ، اعتذر ، بعد اليوم لن يستطيع إعداد الإفطار لنا : لن يشترى الطعمية والأرغفة الساخنة والباذنجان المخلل ، استدعاه مدير مكتب الأمن ونبه عليه ، قال انه شكته ، ولما جاوب الرجل قائلا ان الاساتذة يجيئون من البيت مبكرين بدون إفطار ، قال إن من يريد الطعام فليتناوله فى بيته .

قال بدوى انه يعتذر ، باستطاعتها الحاق الأذى به . انها تدخل مكتب رئيس مجلس الإدارة بدون موعد سابق . تقضى عنده اوقاتا ، وتخرج ضاحكة ، تتبسط معه ، وتناديه « انكل » .

قال حزينا ، مغموما ، انه منذ سنوات يعد الإفطار للجماعة ، لكن ماذا بوسعه أن يفعل ، ثم قال انه سيلزم مقعده فى الممر ، ولن يدخل إلا إذا ناديناه ، طلبت منه ذلك صراحة ، فى الأيام التالية لاحظت غسقه واعتامه . قلت مهونا ..

« ربنا على القوى يا بدوى .. » .

قال بصوت خافت .

« أصلها صغيرة ياأستاذ .. وفرحة بشبابها . »

لم أعلق ، شعرت بحيرته وضيقه ، وبقائه فترات طويلة جالسا فى الممر محملقا فى الفراغ ، أومطرقا ، مع انه لم يكن يكف عن الحركة طوال

اليوم ، والدخول والخروج طوال اليوم مستفسرا عما إذا كان أحدنا يريد شيئا ما ، لم تتوقف عن طلباتها وارساله هنا وهناك ، صارت لهجتها جافة ، لكنني لم أتوقع تطور الأمور إلى ماصارت إليه .

حدث أن جاءت يوم أربعاء متأخرة عن موعدها ساعة كاملة ، ولجت الصالة بصرامة وحدة ، لم تلق تحية الصباح ، جرى ذلك منها مرة أو مرتين من قبل ، قبل جلوسها فتحت درج مكتبها ، صاحت متأوهة ، مستنكرة ، أين جهاز التسجيل ؟

طلبت زميلتنا الأكبر سنا ان تفتش بقية الأدراج بتأن . صاحت انه ليس ابرة لكي يختفي هكذا فجاة . صاحت ، جاء بدوى مسرعا ، تطلعنا متوجسين ، لاحت نُذر الشر .

فيما بعد قالت زميلتي انها جاءت مضمرة الأمر ، حتى انها تساءلت عن الجهاز قبل نظرها الى الدرج ، لفترة طويلة ظلت ملامح بدوى تتردد عندى ، أحيانا اثناء مشيي ، او خلال سعيي ، أو سكينتي ، قبل نومي ، زعر حط عليه بغتة ، اتساع عينيه ، انفراج شفتيه ، غموق لونه . تهدل حضوره ، تعلق بصره بأصبعها الذى ارتفع في مواجهته مهددا ، موحيا بكافة النُذر ، مدت ذراعها مشيرة إلى الخارج ، آمرة الا يمشي ، ان ينتظر ، الا يتحرك .

لاذت نظراته بي . لم أدرى مايجب ان افعله في هذه اللحظات ، كذا زميلاتي ، ادارت قرص الهاتف بعصبية ، ثم راقت ملامحها وهدأ صوتها ، ادركنا انها تخاطب ضابطا في قسم الشرطة ، ارتفعت ضحكاتها متعمدة ، غير تلقائية ، اعتدتها ، إذ اصغيت إليها مرارا اثناء مكالماتها الطويلة ، كأنها تنبه لمن يجلسون على مقربة انها هنا ، قريبة ، لها حضور . وتتحدث إلى اشخاص مهمين .

روت للضابط مجيئها إلى المكتب . اكتشافها ضياع الجهاز الذى اعتادت سماع الموسيقى الأوروبية من خلاله اثناء عملها ، قالت إن الجهاز لايعنيها ، يمكنها إحضار غيره ، لكن دلالة ماجرى أهم ، كيف تأمن مع وجود لص على مقربة منها ؟ ، مرة أخرى ترددت ضحكاتها . قالت أخيرا « باى » . لم تنظر تجاه احدنا ، قلبت أوراقا ، احصت اشياء ، خطت كلمات ، بعد لحظات قالت زميلتنا الأكبر سنا انه كان ينبغي التروى قبل إبلاغ الشرطة . ليس سهلا اتهام انسان هكذا ، ربما أخذت الجهاز معها إلى البيت ، زمت ملامحها ، قالت إنها واثقة ، انها سكتت عليه طويلا ،

لكنها هذه المرة لن تتراجع ، وستعرف كيف تربيه !

قلت اننا لم نلحظ مايدل على سوء نية بدوى . ولم تلح منه علامة عبر فترة طويلة تدل على انه يمكن ان يمد يده .

التفتت ناحيتى ، قالت بحدة اننى أدلله ، وأعامله كما لو كان مهندسا أو مساعد مهندس ، كأنه أحدنا ، ثم اشارت إلى الخارج .

— هذا صنف أعرفه ..

قلت إنه ليس سهلا اتهام انسان بالسرقة قبل ظهور ادلة . ثم ألم يكن ممكنا الشكوى إلى المسئولين فى المؤسسة ، هنا ادارة أمن ، اما الاستعانة بالشرطة فامر غير مسبوق .

قالت انها تعرف ماتفعل .

قلت اننى لم المح بادرة تدل على سوء نيته ، وإذا لزم الأمر فاننى سأشهد معه . عندئذ ارتفع صوتها .

« إذن .. من أخذ الجهاز ؟ »

تطلعت إليها بحدة بينما رددت زميلاتى الأكبر سنا .. حرام والله حرام ..

قامت ، عند الباب التفتت موجهة حديثها إلى لا أحد ، أعلنت انها ماضية إلى « أنكل » ، رددت بينى وبينى نفسى « ملعون أبوكى وأبو انكل » .

دقائق وجاء أربعة ، أربعة من الشرطة السريين ، يرتدون الثياب المدنية ، أحاطوا بدوى ، أمسك اثنان منهم ذراعيه ، طلب منه الآخر ابراز بطاقته ثم طلب منه أكبرهم المضى بصحبتهم فى هدوء ، خرجت إلى الممر منضما إلى الزملاء الذين وقفوا يتابعون مايجرى ، عند المنحنى التفت بدوى ناحيتى بعينى أسير ، وذعر مغلوب على أمره .

« والله ياأستاذ لم أسرق .. »

فيما بعد ، قال إنهم اقتادوه إلى قسم الشرطة ، وانهم أمروه بالجلوس فوق دكة خشبية فى ممر طويل ، رمادى الجدران ، أمروه الا يتحرك ، أربع ساعات كاملة ، لم يطل فى وجهه أحدهم . بكى خلالها على ولديه . وعلى نفسه . ورثى سوء بخته ، وتوسل إلى الله ، إلى الأولياء لكى تنفك ضائقته ، بعدها قادوه إلى ضابط شاب ، وبخه ، وسبه ، ونهره ، وأصر على ان يعرف بكم باع الجهاز ؟ ، ثم دخل اثنان أحدهما يمسك بسلك كهربائى غليظ ، لوح به وسط الفراغ فأحدث أزيزا أقشعرت منه روحه ، سألوه عن أصله وفصله . دنوا منه وابتعدوا . لكنه لم يقر ، قال انه فقير

الحال ، لاحول له ، ظهره عار تماما من اى سند ، منقطع عن كل عون ، لكنه لم يسرق ، قال ان ما طغى على حاله تفكيره فى صغيريه ، وما يمكن أن يجرى لهما بعده ، وأن استدعاء صورتهما قوّى أمره وثبت حاله .

فى موعدها جاءت ، بعد ان أجرت اتصالات بهذا وذاك ، ورددت عبارات حرصت على اسماعها لنا ، ذكرت فيها ألفاظ مثل « سيادتك » و « معاليك » و « سعادة الباشا » ، واستفسرت عن « القمورة » ، فرغت والتفتت ، بدت رائقة المزاج ، ساعية إلى الحوار ، قالت إنها اتصلت بالشرطة مساء امس ، طلبت منهم إطلاق سراح هذا البنى آدم ! ، وانها تنازلت عن الشكوى التى لو اتخذت مجراها لمضى إلى السجن ، لكنها أرادت تلقينه درسا حتى لايمد يده مرة أخرى .

قالت زميلتى كبيرة السنة ، ان المسامح كريم ..

استدارت لتواجهها ، قالت إنه لن يدخل الصالة أبدا ، طلبت نقله إلى جهة تابعة للمؤسسة ، بعيدا عن المقر ، انها لاتطيق رؤيته ، ثم ان هذا الصنف الوضيع يمكنه الإقدام على اى شىء ، بصراحة .. تخشى على نفسها ، ربما ألقى على وجهها ماء النار . قالت انهم أخذوا عليه إقرارا فى الشرطة ..

لم اعلق ، لم التفت ناحيتها ، أعرف ان الكلام موجه إلىّ ، اذ كنت أكثر الحاضرين أبداء للود تجاهه ، وكان يبدى عناية خاصة بأمورى ، ويطيل الحديث إلىّ عندما نكون بمفردنا ، ويطلعنى على شهادة ابنه الأكبر فى المدرسة ، وصورة صغيره الذى مازال يحبو .

فيما تلا ذلك وقعت داخلى وحشة ، وغزانى اسى ، لم تكن علاقتى بالمسئولين فى المؤسسة جيدة ، ولم تكن رديئة ، فمنذ التحاقى بها وأنا محايد فى حضورى ، علاقتى الحميمة قاصرة على اللوحات ، والخطوط ، والألوان ، أمضى ساعات منحنيا حتى لأعشى فى ذروة الضوء ، ويؤلمنى عنقى ، لا انتبه إلا وبدوى يقف على مقربة ، مبتسما ، يضع كوب الشاى أمامى يوصينى بلحظات راحة ، اللوحات باقية ، لكن البصر يذهب بدون أن نشعر .

لم أعد قادرا حتى على رد تحيتها العامة غير الموجهة إلى واحد منا بالتحديد ، حضورها قربى صار صعبا علىّ تحمله ، فلم يبق إلا بذل الجهد لتناسيه ، أو تجاهله . أخبرنى عم نصر ، اقدم سعاة المؤسسة ، انهم نقلوا بدوى إلى المخزن الفرعى فى العباسية ، الآن هو الحمال المختص

بنقل الصناديق والاثقال إلى العربات التى تمضى إلى المحافظات . قال انه تسلم عمله بالفعل ، لكنه فى حال صعب وعر ، طلب من نصر أن يبلغنى تحياته ، بسط عم نصر يديه . الله على المفترى ، ما من انسان يمكنه مواجهتها أو التصدى لها ، انها تدخل مكتب رئيس مجلس الإدارة بدون المرور على السكرتير ، لكن .. لكل ظالم نهاية ، دنا منى ، قال همسا اننى ادرى الناس ببدوى ، مع ذلك يخشى ان يساورنى شك ، يقسم انه مظلوم ، ما جرى منها تجن فادح ، بدوى رجل طيب ، نقى العنصر ، همه فى الدنيا تربية ولديه ، كان إذا لقى جنيها فى الممر ـ حدث ذلك فعلاً ـ يسلمه إلى المعاون ، لم يقبل الحرام على نفسه قط ، أما متعته فى الحياة فكانت التفانى فى الخدمة ، لايمكن تصور حاله بعد ان منعته من اعداد الشاى والإفطار ، ولزم الجلوس فى الممر ، دبرت الأمر ، ظهر هذا منها فجاة ، لماذا .. لا أحد يدرى وبدوى لايتكلم .

استعدت ما قاله عم نصر عندما رايته بعد يومين اثر انصرافى ، مضيت إلى محطة الاوتوبيس ، كنت أحرك عنقى يمنة ويسرة . ألمنى طول الانحناء ، وحنين غامض ، ممض ، تثيره عندى الأيام الخريفية ، فوجئت به أمامى . ينتظرنى ، قال إنه حصل على تصريح خاص للانصراف قبل موعده بثلاث ساعات حتى يتمكن من المجىء ليرانى . خشى ألا يقابلنى ، ان اغير خطتى واركب مَن محطة اخرى ، أو أمشى مباشرة إلى ميدان التحرير كما اعتدت أحيانا ، ابتسم ، الابتسامة التى اعتدتها صباح كل يوم ، استفسر عن حالى ، عن الزميلات ، ثم قال باختصار دال ..

— والله اوحشتمونى ..

الممت بملامحه واستعدتها مرارا بعد انصرافه ، بدا نحيلا ، تحت عينيه قتامة ، وفى حدقتيه اسى ، تساءلت ..

— ماذا جرى لك ؟ هذا كله من اسبوع واحد ؟

قال انه فى نار ،. والله فى نار . سنوات طويلة اعتاد المجىء يوميا فى الوقت ذاته ، احب عمله معنا ، ألف الجدران حتى ! ، لكن .. ماذا يفعل ؟ انه بلا حول فى مواجهتها ، البون شاسع بينهما ، مع ذلك حطت كل ثقلها عليه .

— لماذا ؟ لماذا. يابدوى ؟

حاد بعينيه بعيدا .

— تصور ياستاذ انهم عصبوا عينى ، هددونى . كدت أياس من رؤية

الأولاد .. كانت تتصل كل نصف ساعة ، والضابط يجيء من حين إلى آخر ويقول انه سيرسلني وراء الشمس ، لكنني عزمت على الموت وإلا أقر كذبا بالسرقة .. والله يااستاذ لم ار المسجل .. والله ..

انني اصدقه . ما من دافع يدعو إلى القسم .. الناس في المؤسسة متعاطفين معه ، ولا أحد يصدق زعمها .

— صحيح .. صحيح يا أستاذ ..

بدت لمعة في عتمة نظراته ، قال إنه احب شغله معنا ، لكن العمل في المخزن صعب . لم يألفه ، لم يعتده ، صحيح ان الأحمال خفيفة ، ومعظم الوقت يقضيه شاغرا ، لكنه لايطيق المكان ، المخزن تحت الأرض ، معتم ، يمضي معظم يومه قرب المدخل . لكن شغله في المؤسسة شيء آخر ، قلت إن الأمور سوف تتخذ مسارها الصحيح في المستقبل ، ليس معقولا استمرار الظلم ،

اشار إلى الأوتوبيس ، يعرف أي خط اتخذه عند عودتي إلى بيتي ، بذل جهدا للملمة شتات الكلمات ، وجهدا للنطق بها ، رجائي ابلاغ سلامه إلى زميلاتي الطيبات اللواتي تعاطفن معه .

سألته وأنا اهم إلى السيارة ، هل يحتاج شيئا ما .

— ابدا والله ، مودتكم ولاشيء آخر ..

ثم قال ان العشرة لا تهون إلا على ابن الحرام ، وأيامه معنا لايمكن نسيانها ..

اسبوعان مضيا ، أول أيام الشهر فوجئت به يقف في الممر ، ينتظر باسما ، بدا وجوده غريبا ، في غير موضعه . قال انه يعرف مجيئي مبكرا قبل الآخرين أول أيام الشهر ، ابتسم ..

— انت في حاجة إلى شاي ..

هذا اليوم عرفت انه احتفظ بالبراد والموقد الغازي والأكواب عند عم نصر ، بدا مرحا ، خفيفا ، شديد العناية بما يقوم به ، صب الشاي ثلاثا ، في كل مرة يرفع الكوب إلى الضوء ، يهز رأسه غير راض ، وعندما قلت له إن هذا الكوب لم اشرب مثله منذ ذهابه كاد يدمع تأثرا ، عندما دنت الثامنة أنهى قعدته ، لملم حاجاته ، استفسر عما إذا كنت في حاجة إلى شيء ، ولما قدمت إليه نصف جنيه ابى واستنكر ، قال انه جاء ليراني ، وتلك تحيته ، أدركني خجل ، بعد اسبوع قالت زميلتي الأكبر سنا عند انفرادنا اننا سنرتاح من البرنسيسة ، قالت إنها ستقوم بإجازة ، ستسافر إلى

الخارج ، وانها تحدثت إلى عدد من صاحباتها وأصدقائها . أخبرتهم بسفرها . لم أدر كيف علم بدوى ؟ . فى أول أيام غيابها جاء ، لقيته واقفا أمام مدخل الصالة ، تقدمني باسما ، مسح المكتب بالفوطة الصفراء ، نفض التراب عن المقعد ، قام بذلك قبل قدومي كرره مرة أخرى ابرازا للمودة وتدقيقا للعناية ، قال انه اتفق مع زميل له على ان يوقع له فى كشف الحضور خلال هذه المدة ، خاصة ان العمل خفيف جدا خلال فترة الصيف ، على اى حال هو قادر على تسوية أموره هناك ، قال إنه يمضى أوقاتا طويلة بمفرده هناك ،. بدون شغل ، يحملق إلى المارة من مكانه الذى ينخفض عن مستوى الطريق ، من يريد الراحة والتنبلة فليذهب إلى هناك ، العربات تجيء على فترات متباعدة ، تمضى ايام لاينقل خلالها صندوقا واحدا ، لاهو ولا زميله .

كعادته انهى كلامه فجاة بابتسامته الهادئة ،. تحوى اسى غامضا ، حيرتني زمنا ، ارقبها ولا أجد لها قرينا بين الابتسامات التى أراها على سائر الوجوه ، كثيرا ماسعيت الى تصنيفها ، إلى تحليل سماتها ، ولكنني كمن يحاول إعادة اللون إلى عناصره الأولى بعد امتزاجها ، قال ..

— والله يا استاذ عشرتكم لا تعوض ..

تابعت دقته وعنايته ، كانه انتظم مرة أخرى ولايجتاز فترة موقوتة .

سروره الداخلى الذى لاح فى حركته ، خاصة عندما مضى لياتى بالإفطار المعتاد ، الفول والطعمية والأرغفة ، تقسيمة الخبز وحشوه ، لفه الشطائر فى مناديل ورقية ، ثم عودته بعد فراغنا ليحمل البقايا ويضعها فى لفافة كبيرة ليلقى بها فى صندوق القمامة نهاية الممر . وقوفه بالباب على فترات متقاربة ليسال ، إذا كنا بحاجة إلى شيء ، دخوله قبل انصرافنا . ليساعدنا فى طى اللوحات وتجميع الأوراق ، وإزالة ماطال اسطح المكاتب من الوان او احبار ، واسداله الستائر على النافذة العريضة المطلة على الطريق الجانبى ..

بقى بشره ملازما له . كذا ابتسامته ، وابداؤه الود والتعلق ، حتى دنو عودتها ، فى اليوم الأخير ودعنا كمدا مرغما ، كان اجتثاثه يتم للمرة الأولى ، قال انه سيجيء كلما سنحت الفرصة ..

انقطع اسبوعين متصلين ، استفسرت من عم نصر ، أبدى الرجل قلقا ، قال إنه لم يتصل به منذ مدة ، رجوته ان يسال ، لمت ذاتى ، كان يجب ان أسعى لاتبين حاله منذ تجاوزه المدة التى اعتاد ان يظهر بعدها ، لكنني لم

أهتم ، لم أعبا ، اخبرنى عم نصر انه فى اجازة مرضية ، وانه راقد فى بيته ، قال الرجل متأسيا .

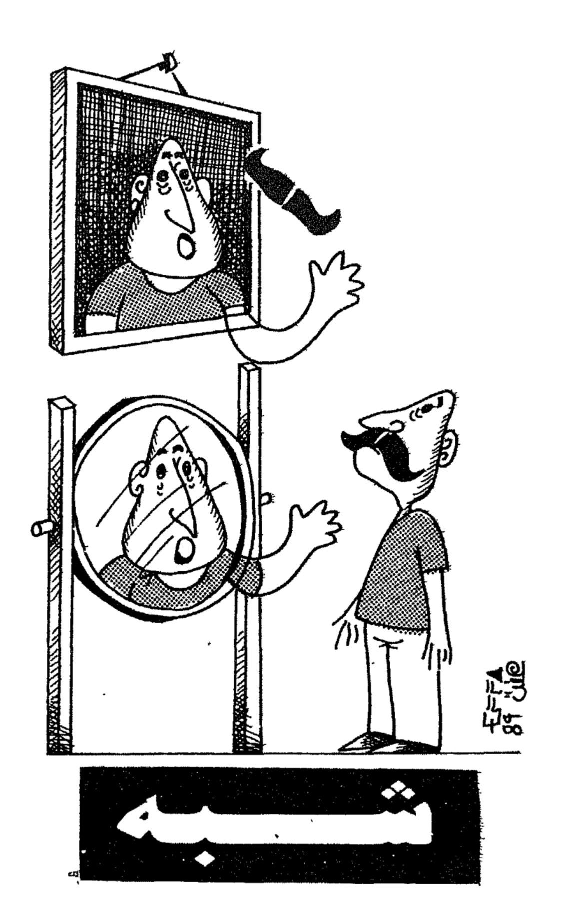
— بدوى منذ تركه الشغل هنا وهو فى النازل ..

اكدت على ضرورة زيارته ، ابدت زميلتى تعاطفا ، قالت انها ستتحدث إلى الآنسة حتى يعود الرجل الى عمله ، ولكنها بمجرد بدئها الحديث فوجئت بالغضب ، بالنزق ، والقسم انها لو لمحته فى الصالة ، بل فى المؤسسة فلن تهدأ حتى تزج به إلى السجن ، كان بإمكانها الحاق أذى لايمكن تخيله به ، لم تتصل بعمها المسئول الكبير فى مكان حساس ، لكن يبدو انها ستفعل !

قالت زميلتى إنها فوجئت برد الفعل . لاتدرى مصدر هذا الغل كله عندها ، قلت غاضبا ، متعجبا « ولا انا » .

● ● ●

مارس ـ ١٩٨٩


شبيه

متى بدأ اقترابه منه ؟
كيف بدأت الصلة ؟
كم من الوقت استغرق هذا التحول الذى لحظه القريب والبعيد ، ورآه هو نفسه ذات صباح باكر ، عندما حدق مطيلا النظر فى المرآة قبل إتمام حلاقة ذقنه ؟

يمكن التحديد ، فمن الثابت ، المقطوع به ، انه لم يكن من المقربين إلى سيادته قبل توليه المسئولية الجديدة ، كما انه ليس من أقاربه أو أبناء بلدته ، هؤلاء لم يعين أيا منهم ولم يساعدهم حتى عُرف عنه ذلك ، فانقطعوا عن السعى إليه ، أو طلب مساعدته .

من الثابت ، المعروف ، انه تعرف عليه خلال المحنة العابرة التى جرت قبل توليه المسئولية التنظيمية ، عندما هاجمت الأجهزة الرقابية كافة الإدارات والفروع ، وبدأ تحقيق دقيق ، وشمل التحفظ عددا ليس بالهين ، كان هو من بينهم ، أمضى خمسة وأربعين يوما فى الحبس الشديد ، فيما بعد عندما تغيرت الأوضاع ، وبدأت المرحلة الجديدة ، بعد الحركة التصحيحية المباركة ، أصبحت تلك الفترة عنصرا من رصيده الإيجابى ، أشار إليها مرارا فى أحاديثه خلال المحاضرات والمؤتمرات ، والندوات ، وذكر تفاصيل خلال جلساته الخاصة ، وفى لحظات صوفه مع صحبه الخُلص ، الأوفياء ..

تعرف عليه إذن فى المعتقل ، كان يقضى فترة عقوبة لم يعرف أحد على وجه الدقة سببها ؟ جريمة اختلاس ؟ أو اعتقال سياسى ؟ أو جريمة مدنية ؟ كثيرون سعوا إلى معرفة السبب لكن لم يتضح لهم الأمر . أما معرفة الجميع بصحبته لسيادته فترة السجن فمن العناصر التى أكدت متانة العلاقة بينهما رغم اتساع الفوارق ، وتباعد المراكز لكن عرف بين الكافة انه حمل على سيادته الكثير خلال مرحلة الشدة ، إذ كان يتولى ترتيب فراشه ، وإعداد طعامه سرا بواسطة الامكانيات المتاحة والأدوات التى صنعها المساجين من علب الصفيح الفارغة ، كان يغسل له ثيابه أيضا ، يقول البعض إن هذا تم لقاء اجر معلوم ، قدره علبة سجائر يوميا ، وهذا كثير فى ظروف السجن ، بينما أكد آخرون انه لم يتقاض مقابلا لتعبه ، وهذا ما حببه إلى سيادته ، بحيث أن السنوات العشر بين أيام الاعتقال ، وبدء توليه المسئولية كاملة لم تزحه من ذاكرته ، لم تنسه إياه ، إنما ارسل إليه استدعاه ببرقية ، وبعد وصوله بساعة تسلم عمله كسكرتير خاص ، وهذه وظيفة لها مهام تختلف عن مسئوليات مدير المكتب الذى يتولى إعداد التقارير ، ودراسة الخطط قبل عروضها ، وتلخيص بعض البحوث ، وإجراء الاتصالات مع الجهات ذات العلاقة .. لا .. إن مهامه مختلفة تماما ، فهو المسئول عن ترتيب المقابلات ، وتلقى الاتصالات الهاتفية أو إجرائها ، كما انه يتولى أمور سيادته الخاصة جدا ، بدءا من متابعة حاجيات البيت ، وإرسال الملابس للتنظيف ، وإعداد وجبة الإفطار المكونة من البسكويت والشاى فقط ، وتقديم طبق عند الواحدة والربع ظهرا فيه خيار مقشر مقسم إلى شرائح ، ذلك أن سيادته يلتزم نظاما غذائيا خاصا ودقيقا لم يحد عنه منذ سنوات طوال . البعض قال ان مهامه جديرة بسكرتيرة . لكن سيادته لم يحدث طوال تقلبه فى مواقع المسئوليات المختلفة انه استعان بأى امراة فى تدبير أمور مكتبه ، عرف عنه قوله أن ذلك افضل ، وأقل جلبا لوجع الدماغ !

الحق انه قام بالمهمة على الوجه الأكمل ، حتى ايام الأجازات داوم خلالها ، لم ينقطع ، لم يخلف موعد عبوره البوابة الخارجية ، حتى حار عامل المصعد ، كيف يمكنه ضبط الموعد ؟ بحيث لايتأخر ولا يتقدم دقيقة .. مجرد دقيقة !

عامل المصعد أول من لاحظ تغير خطوه ، أسر بذلك إلى زميله المحال إلى التقاعد والذى جاءه فى زيارة ودية ، لكنه لم يفض إلى أى شخص

خوفا من تفسير الأمر على انه مساس برئيس المؤسسة ، وهو مشهور بقسوته ، رددها بينه وبين نفسه : انه يشبهه .. يشبهه !

الملاحظة دقيقة ، ويمكن تحديد إعجابه يوم قيلم سفير دولة النمسا المعتمد بزيارة المقر الرئيسى لتوقيع عقد مبرم . يومها غادر مكتبه ليشرف على إجراءات الاستقبال . ليتأكد من تمام كل شيء ، رص أصص الزهور على الجانبين ، السجاد الأحمر وتغطية الدرج ، تعليق أعلام الدولتين ، وصور الرئيسين ، فى هذا الصباح رأى اجتياز سيادته للمدخل ، وصل قبل السفير ، خطاه ليست سريعة وليست بطيئة ، ليست فسيحة أو ضيقة ، إنما معتدلة ، واثقة ، كما أن ميل قامته إلى الأمام جلى يلحظ .

تراجع خطوة حتى كاد أن يلتصق بالجدار ، رفع يده ، تبعه حتى المصعد ، ثم قال إنه ينتظر سعادة السفير هنا ، أومأ برأسه إيماءة سريعة ، موجزة ، دالة بدون النظر إليه .

اعتاد انتظاره فى المكتب ، المرة الأولى التى يرى دخلته ، يطلع على لحظة اجتيازه ، حضوره الصارم ، طوال اليوم وحتى بعد انصراف السفير ، فى ذروة العمل . وبعد عودته إلى البيت ، ولحظات انتقاله من الصحو إلى النوم ، كان يستعيد لحظة الاجتياز تلك .

فى اليوم التالى عند عبوره المدخل ، استعاد لحظة الأمس ، تقمصها ، تفحصها ، ثم أتى بما حوته من جديد ، هكذا تبدلت خطواته ، ومالت قامته ميلا يسيرا ، واتخذت عيناه اتجاه النظرات ذاتها ، وعندما صافح أول القادمين اتخذ زراعه وضعا مشابها تماما لسيادته عندما يصافح ضيوفه الذين يتقدمون منه .

انه لايرى سيادته خلال ساعات العمل إلا لفترات جد وجيزة ، عندما ليوقع أوراقا ذات صفة خاصة ، أو ليستفسر عن بعض التوجيهات المتعلقة بامور شديدة الخصوصية ، أو عند تقدمه الضيوف ، خاصة الأجانب أو القادمين من المحافظات ، أو الهيئات الإقليمية ، اما كبار المسئولين عن القطاعات الفنية بالمؤسسة فلا يتقدمهم ، إنما يعلن فقط عن وصولهم ، اما من خلال الهاتف ، أو بوقوفه عند مدخل الحجرة وذكره الاسم مقترنا ـ طبعا ـ باللقب والمنصب الذى يشغله ، لم يتخلف عن ذلك حتى وإن تكررت الزيارة مرتين او أكثر فى اليوم الواحد .

دائما .. نفس الصوت ، ذات الإيقاع ، ثم يعود إلى مكانه خلف المكتب ، فى هذه الأوقات يكون حضوره حوله وداخله قويا ، فكل حركاته

وسكناته مرتبطة به . عينه على الهاتف الذى تتوسطه دائرة حمراء ، إذا أضاءت فهذا يعنى انه يتكلم .

يمضى الوقت اصبح يمكنه تحديد اللحظة التى يشعر فيها بضيق سيادته من ضيفه . برغبته فى إنهاء المقابلة ، عندئذ يفتح الباب ، يقف متطلعا وعلى ملامحه حرج ، يقول إن الموعد التالى حان أوانه !

بعد الانصراف يبدأ التفكير فى ترتيب المكتب ، لملمة الأوراق ، حفظ بعضها فى الخزانة ذات الأرقام ، لايعرف الرمز السرى اللازم لفتحها إلا اثنان ، سيادته وهو ، هذا من أسباب راحته ، وعوامل انفراجه عند الضيق ، اشتراكه معه فى امر خاص لايعرفه ثالث . انه لايذهب مباشرة ، إنما يتحرك قليلا فى المكتب ، تماما كما يفعل هو فى الأوقات التى تتخلل المقابلات ، قال أمامه مرة انه لايمشى إلا فى النادى ، والنادى لايذهب إليه إلا مرتين فى الأسبوع ، لهذا ينتهز فرصة متاحة للمشى فى المكتب ، خاصة قبل نهاية يوم العمل .

يمضى ذهابا وإيابا ، ثم يلقى نظرة على المكتب ، ثم يستدير متمهلا .

يميل رأسه قليلا جهة اليمين ، ويده اليسرى فى جيب جاكتته ، يتجه فجاة إلى المصعد ، يحيى موظفى الأمن الدائمين بتلويحة مقتضبة ، سريعة .

مع ابتعاده ، ينشغل به أكثر من حضوره بقربه ، يفكر : لابد انه الآن فى الطريق ، يجلس فى المقعد الخلفى ، يقرأ بعض الصحف ، أو الأوراق التى أخذها معه . العربة تعبر الجسر ، تتوقف أمام بيته فى الضاحية ، البواب يحمل عنه الحقيبة . بنفس الخطى يتقدم صوب مدخل العمارة . عندما يجلس لتناول الطعام ، ينظر إلى الساعة : لابد أن سيادته فرغ الآن ، يصل إلى بيته قبله ، أحيانا يتصل به للتاكد ، من امور معينة ، أو للتذكير بضروريات حساسة ، مرات يطلبه قبل وصوله ، أو اثناء نزوله لشراء لوازم البيت ، تبلغه زوجته ، عندئذ يستعيدها مرارا ، ويستنطقها الألفاظ بالضبط ، ولهجته ، غرب كلمة عنى بها أمرا ، أو إشارة خفية غاب عنها مغزاها ، لابد أن يتاكد . أما إذا راى سيادته جهما ، كدرا ، فسرعان ما يقطب جبينه . يصعب الحوار معه ، يأوى إلى غرفته قبل أن يشرب الشاى الذى اعتاده ، تدرك امراته فتنأى عنه ، ان ضيقا يستقر داخله لايخف ولا يفارقه إلا إذا رآه اليوم التالى رائق البال ، كان يدرك هذا من رؤيته فى اللحظة الأولى ، طريقة دخوله ، إيماءاته ، من إجاباته

المقتضبة ، أو المتصلة ، وياسلام .. ياسلام .. عندما يبدى التبسط ويبادر بالمداعبة !

ينظر إلى الساعة قبل نومه ، لابد انه آوى إلى فراشه الآن ، قال على مسمع لأحد أصدقائه وهو يودعه « من الضرورى نومى ست ساعات على الأقل .. » .

بشكل ما ، لايمكنه تحديده ، أو تعيين الفوارق الفاصلة ، أدرك عاداته ، فمنها قراءة قصة خفيفة ، غرامية أو بوليسية قبل نومه ، اضطراره عند اشتداد الأرق إلى استخدام جرعة صغيرة من أقراص منومة أتى بها من فرنسا ، يستخدمها بقدر معلوم .

عندما رأى العلبة في حقيبته ، صغيرة ، خضراء الغلاف ، انتابه الأرق ليالى متوالية ، فكر في استخدام منوم ، وعندما افضى إلى امرأته بأن جزعها ، قالت ان هذا خطير ، ويمكنه التعود عليه ، لن يستطيع النوم بعد ذلك إلا به ، أوشك على القول إن سيادته يتناوله . لكنه احجم ، لم ينطق ، في اليوم التالى اشترى علبة ، فى الليل بلع نصف قرص ، لكنه امتنع بعد ذلك ، إذ انتابه طوال اليوم التالى دوار . وقام بينه وبين الخلق حاجز شفاف غير مرئى ، خشى أن يعتاده ، أن يقطع أولى خطى الإدمان بدون قصد ، خشى ما تكتبه الصحف ، ماترددده وسائل الإعلام عن انتشار الأقراص ، وذيوعها ، ولجوء بعض ممن يتعاطونها إلى الأنواع المهدئة ، المنومة ، اما ما ثبت امتناعه وقواه سماع سيادته يقول إنه لم يستخدم المنوم إلا مرات قليلة ، خاصة عند سفره إلى الخارج ، وتغيير مكان الرقاد ، وتعاظم إحساسه بالمسئولية ، يتصاعد تأثير سيادته داخله عند ابتعاده عنه ، بالأخص عند رحيله ، الحق انه لم يكن غليظا ، فظا ، مؤذيا حتى يرهبه ، لكن عرف عنه قسوته التى تنفجر عند الغضب ، أو وقوفه على الخطأ ، قسوة يمكن أن تصل إلى آماد لايمكن معرفتها . كان حضوره في المؤسسة صارما ، حتى اثناء سفره . يخشاه الكل ، يرهبونه ، إذا قام بزيارة مفاجئة إلى إدارة أو قسم ، أو فرع ، يصمت المتكلمون ، ينفرط عقد المجتمعين حتى وإن ظلوا متجاورين ، شاخصين ، ومهما أبدى من لطف أو بشاشة ، فلم يخف هذا عن العاملين والأقربين بذور الغضب الجامح ، المفاجىء ، الذى يمكن تفجره عند أول بادرة ، ومن ثم .. لايبقى ولايذر ..

حدث إحدى الأمسيات أثناء خروجه مع زوجته من دار عرض سينمائية وسط المدينة أن اشتبه فى اقتراب شاب منها أكثر مما ينبغى ، عندئذ

انتفض غاضبا ، امسك بياقته ، صفعه ؛ أعلن إصراره على اصطحابه إلى قسم الشرطة ، ورغم مفاجاة زوجته بما جرى ، وتوسلها إليه أن يترك الشاب الذى راح يقسم انه لم يقصد ، وان مسافة تفصله عن الهانم ، إلا ان ملامحه عكست نفس قسمات سيادته عندما يبلغ غضبه مداه ، خاصة زم الشفتين وخروج الالفاظ متاكلة متدافعة وإشارة الأصبع التى تحمل معنى التهديد ، بالذات إشارة الأصبع ، ممتدة ، متصلة ، حادة العلامة ، مدببة الطرف ، لطالما تاملها عند شروعها أمامه . فى حضوره ، حتى أثناء المناقشات الجادة كان رأسه يميل قليلا ، ويبرز أصبعه أما محذرا ، او منبها ، أو منذرا ، هذا ما كان يبدو منه اثناء القائه الكلمات الافتتاحية ، أو الخطب الاحتفالية .

لايمكنه تحديد الوقت الذى بدأ يردد فيه تلك اللازمة التى اعتاد سيادته النطق بها عند بدء الحديث ، او خلال اعرابه عن آدائه ، يقول متمهلا ، « أعتقد ان .. » ، انتبه إلى نفسه يرددها كما سمعه ينطقها ، خاصة بداية الحديث ، وإذ يصغى يهز رأسه ذات الهزات المختصرة ، الدالة . وإذ تدركه راحة ، أو يمسه رضى ، تلوح ابتسامة معلقة . ويلفظ آهة مطولة .

فى يوم خفت فيه اللقاءات ، وقف يعرض عليه صورا التقطت اثناء الزيارة الأخيرة ، رن جرس الهاتف المباشر ، أومأ مرات ، ثم نطق جملا لم تسترع انتباهه ، لكنه توقف عند قول سيادته انه لايقرأ جيدا إلا إذا اضطر إلى الرقاد بسبب وعكة .

فى المساء بعد تناوله الشاى المعطر بالنعناع الأخضر ، قال لامرأته انه يشعر باعياء ، سيرقد مبكرا ، لن ينام مباشرة ، إنما سيقرأ قليلا .

— اصبحت مشغولا إلى درجة اننى لايمكننى القراءة إلا إذا مرضت ..

أما ذروة راحته فعند ذهابه بصحبة سيادته لافتتاح معرض اقيم ضمن انشطة المؤسسة ، أو لتوزيع ميداليات التفوق على النابهين ، أو لمنح بعض المتميزين شهادات التقدير ، أو لحضور مقابلة هامة ، انه يمشى خلفه مباشرة . يتاخر عنه مقدار نصف خطوة ، إذا نظر فإنه يتبع اتجاه نظراته ، وإذا مد يده ليتفقد معرضا او شيئا ما ، فإنه يحدث فيه باهتمام ولايحيد ببصره إلا وإذا فرغ سيادته ، وعند منح هذا شهادة او ذاك ميدالية فإنه يضفى جدية وراحة على ملامحه ، يتطلع إلى الشخص فى اللحظة نفسها ، اما إذا استدار متطلعا هنا او هناك فإنه يستدير فورا . لايتاخر ، لايتقدم ، بطول الصحبة أصبح عنده تقدير خفى لحركة

سيادته . وللتوقيت الذى يلتفت فيه هنا او هناك ، تماما كما اعتاد الاستيقاظ فى موعد صحو سيادته والذى عرفه بعد طول المعايشة ، أما إذا خلا به فى الحجرة ، إذا واجهه ، وقد وقف امامه ، فإنه جمودا ينزل على ملامحه ، لاينطق اللازمة « اعتقد ان .. » ولايشير باصبعه . ولايميل برأسه قليلا ..

لم يكن عسيرا على المتعاملين معه ، وذوى القربى ، ملاحظة اكتسابه صفات سيادته ، ترديد العبارات ، الإيماءات حتى اسلوب الانفعال .. اما هو فلا يدرى احد حقيقة ما جال عنده هذا الصباح ، عندما تطلع إلى المرآة قبل تاهبه لحلاقة ذقنه وهذا من عادته « القديمة ، إطالة النظر إلى ملامحه .

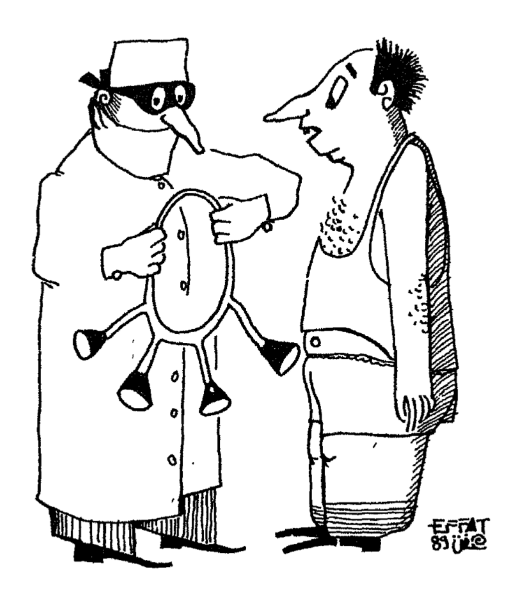
هذا الصباح اطال ودقق .

العينان ، نظراتهما . الخطان الغائران يحددان الوجنتين ، الشارب الكثيف الذى اهتم به ورعاه اخيرا ، الفم المزموم ، الذقن المدببة ، لم يكن يطالع ملامحه التى تحتفظ بها الصور الملتقطة له على فترات ومراحل شتى ، التى اعتادها الآخرون ، لكنه كان يطالع الملامح الحسية . والمعالم المالوفة لوجه سيادته ، لتكوين هيكلة الجثمانى ، بالضبط .. كما يراه الخلق ..!

● ● ●

مارس ـ ١٩٨٩

انتظار



.. توقفت مرات خمسا ، سلم مرهق ، كانه لن يؤدى
إلى طابق تال ، مع ان العيادة تقع فى الطابق الأول ،
المبنى قديم ، لم أتقن استخدام العصا بعد ، ادفع بها
إلى الوراء بينما ساقى إلى الامام ، او اثبتها فى
الوقت الذى اخطو فيه ، داخل ساقى يتمدد لهب
مُحمى ..

اللافتة سوداء قديمة ..

حروف عتيقة ، متآكلة ، اسم الطبيب فقط ، ما من تخصص مكتوب أو درجات علمية ، أكدوا لى فى المؤسسة ان اسمه معروف ، والبعض يصفه بانه الطبيب الأول فى مصر ، المتخصص فى علاج الأوعية الدموية ، تنشر الصحف أخبار سفره لحضور مؤتمرات علمية ، وملخصات الأبحاث التى توصل إليها ، قيل لى ان بعضا من اثرياء العرب يرسلون طائراتهم الخاصة إليه ، يقلع فى الصباح ، يوقع الكشف ، يرجع فى نفس اليوم ، أمره مفروغ منه ..

انى قلق ، إذ وصلت متاخرا عن الموعد المحدد بخمس دقائق ، حذرنى الممرض من التاخير ، وأكد لى ان الحجز سيلغى إذا لم اصل قبل الميعاد المحدد ، أعددت ما يجب قوله ، سكنى النائى ، ازدحام المرور والمى الذى يبطىء حركتى ، عندما ولجت المدخل فوجئت بالممرض يقف ، كانه كان يصغى إلى صوت خطواتى ، انه يدس يديه فى جيبى سترته ، يتطلع إلى الفراغ ، يتجاوزنى بعينيه ، ملتح ، عريض الفك والوجنتين ، يغطى رأسه بطاقية من القطن الأبيض ــ يقول ، « فعلا ، انت تاخرت ، لكنك محظوظ .. الدكتور لم يصل بعد .. »

ارتياح وقلق ، خشيت إلغاء الكشف ، اما قلقى فرؤيتى المنتظرين ، ما من مقعد شاغر ، بعد ان دون اسمه ، لاحظت ان رقمى الثالث والعشرين ، يعنى .. لو وصل الآن ، لو أن متوسط ما سيقضيه مع كل مريض عشر دقائق ، سالتقى به بعد مائتين وثلاثين دقيقة ، اربع ساعات ! اخشى الا احتمل وجع ساقى التى ستبقى مدلاة فترة طويلة ، من الافضل مدها إلى أعلى ، هكذا نصحنى طبيب المؤسسة التى أعمل بها ، لكن انى لى بمقعدين ؟ ، زحفى البطىء والمى البادى لم يلفت انظار أحد ، الكل مرضى ، لكن يبدو انهم اجتازوا المراحل الأولى ، هل كان ضروريا ان أكون راقدا الآن ؟ هل اخطأت إذ جئت بمفردى ؟ ، عبرت الصالة إلى الغرفة الجانبية ، تطل على الطريق ، مروق العربات ، نداءات بعض الباعة أو المارة ، أريكة قدرت انها تتسع لأربعة ، عليها ثلاثة ، اتجهت دابا بعصاى ، تطلع احدهم ، أفسح لى ، بقى الآخران جامدان .. « شكرا » ، اسندت ظهرى إلى ما تيسر لى من المقعد العتيق ، منخفس الحشايا ، « آه » وخزنى الم حاد ، عندما عبر اعتدلت ، أواجه امرأة تعصب رأسها بمنديل ابيض ، فستانها أصفر منقوش بدوائر خضراء ، رجل يرتدى جلبابا بنيا ، متورم القدمين ، حجمهما كثيب ، خارج عن المألوف ، ربط إليهما مداسا مسطحا . إلى الجدار الأيمن علق إطار مذهب بالى ، اضيق عينى ، قصيدة اهداها إلى الطبيب العبقرى محمود امين ناظر جراج الشمال شكرا وامتنانا بعد نجاح العملية الجراحية ، المرأة مستمرة فى التطلع إلىّ ، هل تحاول التثبت من ملامحى ؟ ام ترثى لتعبى الواضح ؟ نظرات الآخرين تحدق بى ، انا القادم الجديد ، الحدث الطارىء بالنسبة إليهم ، شاب نحيل جدا ، يمدد ساقه متخذا .. وضعا يماثل وضعى ، لكنه لا يقبض عصا ، امرأة قصيرة ، بدينة ، حضورها أمومى ، اصابعها متشابكة ، انها فى المقعد الأقرب إلىّ . تذكرت أمى !

رجل ذو سمات جادة ، يمسك مظروفا اصفر تطل منه أوراق بيضاء ، يحملق إلى السقف ، فوقه لوحة تتوسطها آية قرآنية كتبت بحروف مذهبة فى لوحة مجاورة على ارضية سوداء ، الجدران مرتفعة الطلاء حال لونه لقدومه ، فى الركن القصى عنكبوت ضخم اسود نسيج بيته لما تراكم عليه من غبار ودخان ، تتطلع المرأة البدينة عبر الباب ، انها قريبة يمكنها رؤية الداخل والخارج اتساءل :

● هل جاء الدكتور ؟

● لا ..

تختلج الأوردة اختلاجات متوالية ، كان ثقل ساقى يتزايد .

● من عادته التاخير ؟ -

تقول المراة مرتدية الثوب الأصفر .

● يجيء عادة ما بين السابعة والثامنة ..

يقول شاب قصير ، اصلع تماما ..

● السابعة ؟ لا يمكن ان يدخل العيادة قبل صلاته العشاء .. تتطلع إليّ ذات الثوب الأصفر ، تقول ..

● فى الأسبوع الماضى ، فى مثل هذا اليوم ، وصل السابعة إلا ربعا .. يلوح متورم القدمين بيده ..

● لا مواعيد ثابتة له ..

الاختلاجات تصبح وخزا ، الم غريب ، كريه ، غير مسبوق ، واشد الالام ما كان مجهولا ، غريبا ، لم نعرفه ، لو خبرناه ، لعرفنا مداه ، هذا لم اعانيه من قبل ، يتحدث متورم القدمين ، لا يوجه حديثه إلى أحد ..

● ربما يجيء فى الثامنة ، او التاسعة ، فى الأسبوع الماضى ، يوم الاربعاء ، جاء بعد منتصف الليل ، كان المرضى قد بداوا فى الانصراف ، قابلهم على السلم ، عادوا وكشف عليهم ..

اقول :

● إذا كان يجيء متاخرا ، فلابد انه ينصرف متاخرا ..

. تنظر إليّ المرأة البدينة ، تبدو مشفقة ، كانها تتساءل عما أعانى منه ، عما اقاسيه ، تقول ..

● لا .. انه لا يطيل الكشف ، لا يحب الكلام الكثير .

لا يسال عن الاسم ، أو الأصل ، أو الفصل ، لا يثرثر كالآخرين ..

تبدو سخريته على ملامح الرجل متورم القدمين ، يستمر محدثا محملقا إلى السقف ..

● حديث .. أى حديث ؟ انه لا يتبادل كلمتين حتى مع المريض ، أحيانا لا يسال عن المرض ، ينظر إلى الداخل عليه فى لمح البصر يعرف سر الوجع ..

المرأة البدينة ترفع كفيها ..

● الله يعمر بيته ، الله يخليه ، والله اعرف كثيرين اعاد إليهم قيمة الكشف بعد ان عرف صعوبة أحوالهم .. فجاة ، اشعر بمن ينظر إليّ ، التفت إلى الصالة ، انه الممرض ، يقف قرب الباب ، يداه وراء ظهره ،

يتطلع إلىّ ، أحيد ببصرى ، يجتاز المدخل ، على مهل يتجه إلى النافذة ، انه أطول قليلا مما رأيت عند وصولى ، عنقه غليظة ، أثق ان الطاقية تخفى صلعا مكتملا ، استدار ناحيتى ، يتطلع إلى الوجوه التى صمتت ملامحها ، هل يبحث عن شىء ما ؟ هل يتفرس ، هل يستوثق امرا ، يخرج متمهلا ، يدركنى قلق خفى ، ذو الشعر الأبيض يعود إلى تقليب الجريدة ، عليه سمات ترفع وانفة ، لم ينظر إلى اى من الذين تحدثوا ، بين لحظة وأخرى يعدل وضع المظروف الأصفر ، ساقى الآن اثقل ، صوت خطى سريعة فى الصالة ، هكذا يدخل الأطباء إلى حجرات الكشف غير ملتفتين إلى المرضى ، فى أعقابهم يسرع الممرضون ، يعدون القهوة قبل بدء الكشف ، أتساءل ..

● جـــاء ؟

تهز المرأة راسها نفيا ، لم أدر كم مضى من الوقت قبل أن أتساءل ..

● بعد وصوله ، هل يستدعى المرضى مباشرة ؟

تومىء ، لا تنطق ، انها متقدمة فى العمر ، تبدو مهمومة ، لا أظن أن أحد الجالسين سيخطر له اننى أتلمس سبلا للحديث إليها ، ألمى بادى ، يدركه الناظر إلىّ ، أشير بيدى اليسرى غير الممسكة بالعصا إلى الحجرة المغلقة .

● هل يكشف على المرضى هنا ؟

لم يجبنى احد ، بعد لحظات قالت المرأة البدينة ، أمومية الحضور ..

● منذ عشر سنوات ، كان مكتبه أمام هذا الباب مباشرة ، لكنه أزال الجدار الفاصل بين الحجرتين ، وسع حجرة الكشف .. وسع الله عليه دنيا وآخرة ،،

اتســاءل :

● ألا يتصل تليفونيا عندما يتأخر ؟

يلتفت إلىّ الأشيب ، المترفع ، لأول مرة يرفع عينيه عن سطور الصحيفة .

● يتصل ؟ من هو الذى يتصل ؟

يبدأ حديثه متمهلا ، يتجه إلىّ مباشرة كأنه ينوى وضع حد لتساؤلاتى .

● انت فى عيادة طبيب لا مثيل له فى مصر ، عالمى ، والهيئات العلمية تسعى إليه .. هل تعرف ذلك ؟

انفى علمى بهز راسى .

● الأسبوع الماضى أرسلت الجمعية الطبية فى ميلانو تستشيره فى حالة مستعصية ، الم تقرا هذا فى الصحف ؟

كدت اهم مجيبا بالنفى ، لكنه واصل ..

● طبيب مثله يعتذر .. لمن ؟

الشاب مرتدى القميص الأبيض .

● انه يتاخر لانشغاله فى عمليات دقيقة ، يجرى العمليات فى عدة مستشفيات ، ربما يرى حالة عاجلة ، ربما ينقذ مريضا الآن يشرف على الموت .. ونضيق نحن أو نتململ لأنه تاخر ساعة او اكثر ؟

لم يفتنى غمزه لى ، التفت ، الممرض يقف عاقدا يديه أمام صدره ، منفرج الساقين قليلا ، أرى علامة السجود تتوسط جبهته ، كيف لم الحظها إلا الآن ؟ مع انه يقف فى ضوء أقل خفوتا ، الرجل الأشيب يواصل حديثه ، كانه لم يصغ إلى احد ، الاحظ اتجاه نظراته إلى الممرض ..

● أمير عربى .. لا داعى لذكر اسمه ، اعتاد أن يرسل إليه طائرته الخاصة ، مرة دعاه لقضاء عدة أيام فى قصره ، انا اعرف قصر الأمير .. جنة الله فى أرضه ، لكنه اعتذر بلطف ، قال ان مرضاه فى انتظاره ..

المراة البدينة مرتدية السواد ..

● الله يعمر بيته ..

أسمع خطوات ، انها بطيئة ، مرضى جدد ؟ ربما ، باب يفتح ثم يغلق ، تتطلع إلى ذات الفستان الأصفر ، يكمن فى ملامحها جمال عتيق صاف ، هفا علىّ نسيم عشق قديم هون من قيظى المحدق ، أدرك إلى أى حد يمضى العمر مسرعا ..

● جـــاء ؟

تهز رأسها نفيا ، الرجل الأشيب يمسك المظروف الأصفر ، يعلو صوته ، ينظر باتجاه الباب ، هل يحرص على اسماع الممرض ؟

● من يعرف انه صائم منذ تسعة شهور ؟ يفطر يوميا بعد الغروب ، وأحيانا فى غرف العمليات ، يكتفى بكوب ماء ، ثم يتناول إفطاره بعد العملية ..

المرأة البدينة :

● يقولون انه لا يدخل غرفة العمليات إلا إذا صلى ركعتين يتصاعد انفعال الأشيب ، يلوح بالمظروف الأصفر ..

● لماذا يصوم منذ تسعة شهور؟ بالضبط منذ موسم الحج الماضى ؟ ، انا اقول لكم .. سيادته اعتاد الحج كل سنة ، وهو الآن ـ بالمناسبة ـ يستعد للسفر ، انه يحج على نفقته ، واثناء الحج يقيم عادة بجوار الحرم المكى ، يكشف على الفقراء مجانا .. اى والله مجانا !

امراة ضامرة ، قصيرة ، تجلس قرب النافذة ، تعدل وضع طرحتها ، تتنهد ، من الم كامن أم إعجابا بما تسمع ؟

● فى العام الماضى اصطحب معه ولديه وامرأته للحج ، حدث أن تاه ولداه فى الزحام عند قضاء الليل فى منى ، أحدهما ، صغير لم يبلغ العاشرة ..

برغم المى المتعاظم ، اتساءل ..

● إذن .. هو ليس كبيرا فى السن ؟

لا ينظر الشاب إلىّ عندما بدا فى صوته تهكم خفى ، كأنه يردد امرا معلوما ..

● عمره اربعة واربعون ..

اقــول :

● ياه .. انه صغير ، وهذه الشهرة كلها ..

يرد رجل عجوز لم الحظ وجوده إلا الآن ..

● عبقرى !

المراة البدينة ..

● لا يرد فقيرا ابدا ..

يواصل اشيب الشعر ، كان احدا لم يتحدث ..

● لم يجزع ولم ينهر ، امر زوجته بالكف عن البكاء ، وقبل ذهابه إلى البوليس ، لاحظوا انه لم يلجا إلى معارفه ، وهم على أعلى مستوى ، قبل ذهابه نذر على نفسه ، لو انه عثر على ولديه سيصوم عاما كاملا ، بعد ساعات ، مجرد ساعات، عثر عليهما .. وأين ؟ أين تظنون ؟

يجيب اكثر من صوت .

● أين ؟

يثقل الألم ساقى ، كان جوالا من الرمل الساخن شد إليها ، لا اقدر على الجلوس ، اقوم على مهل ، منحنيا ، متكئا على عصاى ، ازحف باتجاه الباب ، دوار وخفق قلب ، وسوء حظ ، وأسى على ما حل بى ، بمجرد اجتيازى الباب ، بدون أن يتقدم احد لمساعدتى ، افاجأ بالممرض يقف امامى ، انه ضخم ، ممتلىء صحة رغم تقدمه فى العمر ..

● إلى اين ؟
● هل سيتأخر ؟
● قطعا سيجيء .
● ارجوك ، لا اقدر على القعاد ..
يقول بصوت غاضب ، ارجفني :
● أرد الكشف ؟ سبعة عشر عاما انقضت على هنا ، لم يطلب أحد ما تطلبه ..
اغالب المي حتى اجاوره .
● الم تحدد لى موعدا في الخامسة ..
● يبدو أن الأمور لا تعجبك ..
يتسع جوال الرمل الساخن المشدود إلى ساقى ..
● انا مريض ، لا اقدر على القعاد وعندى ..
تصدم وجهى قوة هائلة ، افقد الرؤية لثوان ، أعود إلى الغرفة منبطحا على ظهرى ، بينما يقف الممرض منفرج الساقين ، ضاما قبضته ، متاهبا للكمى مرة اخرى ..

● ● ●

ابريل ١٩٨٦

دراسات ومشاهدات :

العنوان	الناشر	السنة
● المصريون والحرب	صدر عن دار روزاليوسف	١٩٧٤
● حراس البوابة الشرقية	صدر عن دار الطليعة ببيروت	
	مكتبة مدبولى القاهرة	١٩٧٥
● نجيب محفوظ يتذكر	صدر عن دار المسيرة ـ ببيروت	١٩٨٠
	طبعة ثانية فريدة ـ إدارة الكتب والمكتبات بأخبار اليوم	١٩٨٧
● مصطفى أمين يتذكر	صدر عن مكتبة مدبولى ـ القاهرة	١٩٨٠
● ملامح القاهرة فى الف عام	صدر عن كتاب الهلال	١٩٨٣
● أسبلة القاهرة (قاهريات)	صدر عن مكتبة مدبولى	١٩٨٤

تحت الطبــع :

الأخبار الطوال (رواية)

رقم الايداع بدار الكتب ٤٢٧٧ / ٨٩

الترقيم الدولى ٨ ـ ٣٠٩ ـ ١٢٤ ـ ٩٧٧ ISBN

صدر للمؤلف

● اوراق شاب عاش منذ الف عام (مجوعة قصصية)	طبعة اولى	١٩٦٩
خاصة عن دار صلاح الدين ـ القدس	طبعة رابعة	١٩٨٠
	طبعة خامسة	١٩٨٧
● أرض .. ارض .. (قصص)	طبعة اولى	١٩٧٢
	طبعة ثانية	١٩٨٠
● الزينى بركات (رواية)	طبعة اولى	١٩٧٥
	طبعة خامسة	١٩٨٩
● الزويل (قصص)	طبعة اولى	١٩٧٤
	طبعة ثالثة	١٩٨٧
● وقائع حارة الزعفرانى (رواية)	طبعة اولى	١٩٧٦
	طبعة ثالثة	١٩٨٧
● الحصار من ثلاث جهات (مجموعة قصصية)	طبعة اولى	١٩٧٥
	طبعة ثانية	١٩٨٠
● حكايات الغريب (مجموعة قصصية)	طبعة اولى	١٩٧٦
	طبعة ثانية	١٩٨٠
● ذكرى ما جرى (مجموعة قصصية)	طبعة اولى	١٩٧٨
	طبعة ثانية	١٩٨٠
● الرفاعى (رواية)	طبعة أولى	١٩٧٨
	طبعة ثانية	١٩٨٠

● خطط الغيطانى (رواية)

● كتاب التجليات ـ السفر الأول ـ صدر عن دار المستقبل العربى بالقاهرة ودار الوحدة ببيروت ١٩٨٣

● كتاب التجليات ـ السفر الثانى ـ صدر عن دار المستقبل العربى ١٩٨٥

● كتاب التجليات ـ السفر الثالث ـ دار المستقبل العربى ١٩٨٧

● رسالة فى الصبابة والوجد ـ روايات الهلال ١٩٨٧

● رسالة البصائر فى المصائر ـ روايات الهلال ١٩٨٩

● اتحاف الزمان بحكاية جلبى السلطان مجموعة قصصية ـ صدر عن دار المستقبل العربى ١٩٨٥

● منتصف ليلة الغربة (مختارات قصصية) مختارات فصول ١٩٨٤

● احراش المدينة (مختارات قصصية) كتاب اليوم ١٩٨٥

محتويات الكتـــاب

....


الآن بالأسواق
المنظف السحري
الجاف
متعدد الأغراض
الصقر
AlsaKr
يزيل الأوساخ والبقع الشحمية بأمان
ويترك الأيدي .. نظيفة .. ناعمة .. معطرة ..
لأيدي الحرفيين - لغسيل الملابس والنطرية -
لتنظيف القيشاني والسيراميك - لتنظيف أجهزة
إنتاج شركة الاسكندرية للزيوت و
١٠٠ قرش